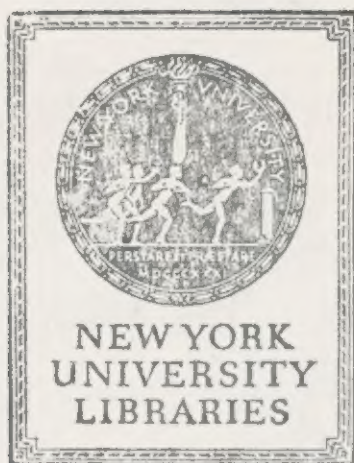


BOBST LIBRARY

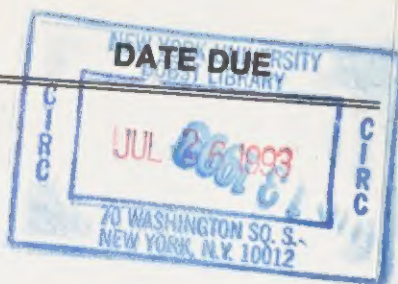


3 1142 01498 6692



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

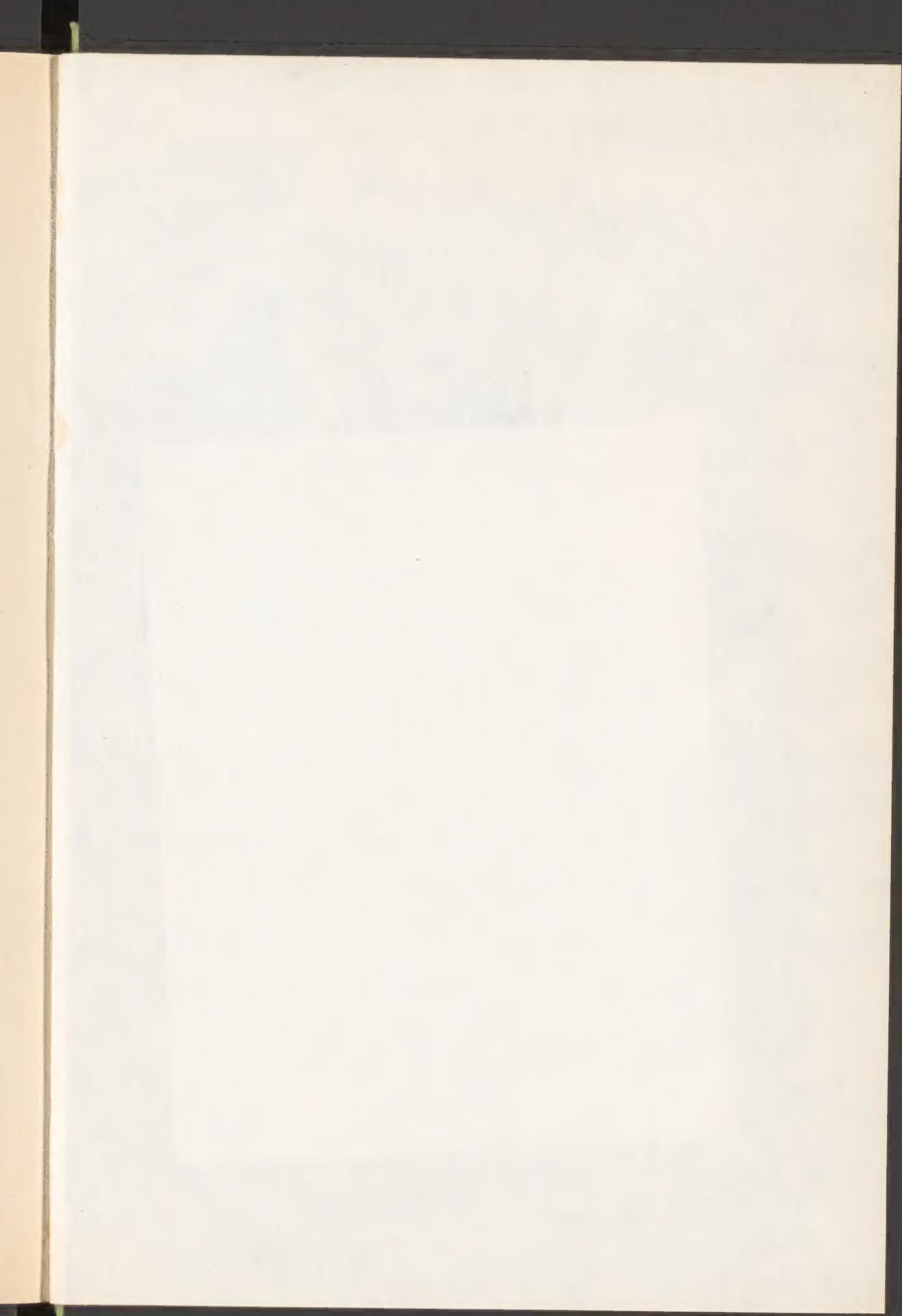
DATE DUE



Bobst Library

AUG 26 1993

CIRCULATION



Alī, Jawād

/Tārīkh al-'Arab fī al-Islam/

تاريخ العرب

في الإسلام

السيرة النبوية

تأليف

٧٠١

الدكتور جواد علي

١٩٦١

مطبعة الزعيم — بغداد

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

هَذَا كِتَابُ

فِي تَرْغِيبِ الْقَبِيلِ

شَيْخَانِ

بِإِذْنِ الْإِمَامِ الْإِسْلَامِيِّ

Near East

DS

231

A5

v. 1

C. 1

1281

بِإِذْنِ الْإِمَامِ الْإِسْلَامِيِّ

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ العرب في الاسلام ، جعلته صلة وتكملة لكتابي : تاريخ العرب قبل الاسلام . وهو مثله في أجزاء ، سيتوقف عددها على الزمان الذي ستقف ضربات قلبي عنده ، وعلى البحوث التي سأطرق اليها .

وقد جعلته - كما جعلت الأجزاء السابقة المطبوعة - وسعاً بين الاطناب والابهاز ، وبين التفصيل والاختصار . خالياً من الهوى والغرض . لم اكتبه جبراً خاطار ، ولا ارضاء لأحد . وكل ما اردته من كتابته أن يكون رأياً من الآراء ، وصوتاً من الأصوات ولحناً من الألحان التي نسمعها عن تاريخ العرب والاسلام .

وقد حرصت في هذا الكتاب كذلك ، على ألا أهتم إلا بالنواحي التي كان لها شأن وخطر في تاريخ العرب والاسلام ، أما الأمور الثانوية والحوادث التي لم يكن لها شأن خطير في تغيير مجاري الحياة ، فلن أتعرض لها إلا بقدر ما كان لها من صلة بحياة الناس في ذلك العهد .

وقد اضطررت في هذه المرة كما اضطررت في الماضي الى ترك فهارس الأعلام الى الجزء الأخير من الكتاب . أما الموارد التي اعتمدت عليها ، واستقيت علمي منها ، فسأذكرها تامة كاملة عند ورودها للمرة الأولى ، ثم أشير إليها رمزاً واختصاراً ان تكرر ورودها ، حرصاً مني على وقت القارئ من الضياع ، وعلى مساحة الكتاب من الانساع من غير داع ولا سبب مبرر .

ولما كان كتابي هذا كما قلت وذكرت تكملة لكتابي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، واستمرار له . لذلك لم أجد في هذا الجزء أي مكان مناسب للبحث في الحياة السياسية أو الدينية أو الاقتصادية أو غير ذلك من نواحي الحياة في الجاهلية القريبة من الاسلام بحثاً مفصلاً مسترسلاً ، فالأسترسال في هذا البحث وفي هذا الموضع معناه إعادة لما كتبه

في تلك الأجزاء وتكرار للكلام سابق واضاعة لوقت غال ثمين . ولهذا فسرف لا انطرق في هذا الجزء الى أمور الجاهلية إلا بقدر ما للجاهلية من صلة بالاسلام . وبقدر ما لها من علاقة بعصر النبوة وبأيام الرسول .

لذا فسأدخل في موضوع عصر النبوة رأساً ، دون مقدمة ولا تمهيد . أما من يريد الوقوف على الجاهلية ، وعلى أحوال الجاهليين ، قبيل الاسلام وعند ظهوره ، فعليه مقدماً بمراجعة تلك الأجزاء .

وبعد ، فأنا في كتابي هذا ، لست بداعية ولا بمبشر بدين من الأديان ، ولا أعتقد أن باليهودية أو النصرانية أو الاسلام حاجة الى رأيي أو مساعدتي وتأييدي . فالأديان كلها من منبع واحد ، وهي تتمم بعضها بعضاً ، مكملتها لما قبلها من نبوات ورسالات . والاسلام لا يضيره ولا يشيره قول من يقول إنه مأخوذ عن يهودية أو عن نصرانية أو عن أية ديانة أخرى . إنه يرى أنه رسالة من رب العالمين الى الناس أجمعين ، وأن اليهودية ديانة سماوية ، وأن النصرانية ديانة سماوية كذلك ، وأن الاسلام ديانة سماوية أيضاً جاءت متممة للديانتين المذكورتين وللأديان الأخرى مكملتها لها ، وإنها وحي من الله . وما دامت هذه الأديان ديانات من الله رب العالمين ، ومن منبع واحد ، فلا بد أن يكون في هذه الأديان ما يقتضيه طبيعة الوحي والالهام من ذلك المصدر الذي أهم هذه الأديان .

وأنا في هذا الكتاب لا أريد أن أسفه رأياً ، أو أن أؤيد رأياً وأنتصب له . فنحن في زمن صارت هذه الطرق من البحث فيه عتيقة بالية ، لا تفيد أصحابها شيئاً إن لم تسيء إليهم . وسبيلي كما قلت أن أذكر الآراء ، وأن أوضح ما بلغه اجتهادي من غير تعصب أو تحيز . وآفة العلم الهوى والانحياز .

أما بعد ، فلا بد لي في هذه المقدمة من تقديم شكري وتقديري هنا الى أستاذي الأستاذ السيد محمد بهجة الأثري نائب رئيس المجمع العلمي العراقي الأول ومدير الأوقاف العام ، لمساعدته إياي في قراءة مسودات هذا الجزء كافة ، وإبدائه ملاحظات عليها ثمينة وآراء قيمة ، أفادتني كثيراً ، ونفعتني نفعاً كبيراً . وقد كان ، كما قلت في الأجزاء السابقة ، صاحب الفضل الأول في اخراج كتابي هذا ، كما كان وما زال حريصاً على أن

يكون الكتاب في أحسن حالة ممكنة شكلاً وموضوعاً ، وحريصاً أيضاً على متابعة طبع بقية الأجزاء ؛ فهو إذن حقيق بخالص شكري وجزيل تقديري . وأنا إذ أثبت هذا في هذا الجزء أيضاً على سبيل الإيجاز ، فإنما أثبتته تقريراً للحقيقة ، واعترافاً بالفضل لأصحابه .

وأنا في هذا الكتاب أيضاً طالب علم ، مبتدء في التاريخ لم آت فيه بشيء جديد ، وكل ما ذكرته وأوردته فيه هو خلاصة علم غيري . وتاريخ الاسلام بحر واسع ، لم يتعد حتى الآن عن ساحله كثيراً ، وسيظل كذلك ماشاء الله حتى تنهياً للعلماء الباحثين فرص الوقوف على الموارد والمصادر ، وهي كثيرة ولا شك ، مبعثرة هنا وهناك ، وحتى يدرس هذا الموجود وينسق وينظم ويرتب . فإذا تم مثل ذلك ، كان من الممكن يومئذ كتابة تاريخ علمي عن الاسلام .

ورجل هذه منزلته وهذه درجته في العلم ، لا بد أن يكون كثير الزلات ، كثير الهفوات . ولما كان الانسان لا يدرك خطأه إلا بعد الوقوع فيه ، فهو يرجو ممن سيوقعه حظه في قراءته ، والوقوف عليه ، أن يرشد مؤلفه اليها ، ليستفيد منها وليتعلم . والعلم دراسة وتجارب .

ونقد الناس ، مهما كانت أهدافه وأغراضه هو في نظر كاتب هذه الصفحات حكمة وتعليم وتقويم ودرس لمن اعتبر . أما المدح ، فهو تنشيط للمعاطفة موقت ، لا يلبث أن يزول أثره ، ولا يفيد منه العاقل ، إن لم يكن في صميمه شبطاً وموقعاً للممدوح في الغرور ، تاركاً آياه فريسة للخيلاء ، والخيلاء من أمارات فراغ الرؤوس .

وختاماً لمقدمتي هذه ، لا بد من أن أشير الى أن ما في هذا الكتاب من صحيح أو فاسد ، ومن صواب أو خطأ ، هو مني وحدي ، وأنا المسؤول عنه ، لا يؤاخذ به غيري . إنه يمثل اجتهادي ، ولكل مجتهد رأي . ونيتي فيه خالصة للعلم ، وإنما الأعمال بالنيات .

جواد علي

الفصل الأول

خطورة تاريخ الاسلام وكيفية تدوينه

يأتي الاسلام بعد النصرانية في عالم الأديان السماوية من حيث العدد ، إذ يبلغ المسلمون عدة مئات من الملايين عدداً ، وهم منتشرون في مختلف أنحاء الأرض ، غير أن غالبيتهم في العالم القديم ، ولا سيما آسية مهد الأديان العالمية .

والمسلمون وإن اختلفوا لونا ولغة ، هم في نظر الاسلام أمة واحدة ، أفرادها سواء كأسنان المشط ، تجمع بينهم رابطة الاسلام ، وهي رابطة فكرية حسب بمعنى أنها لا تقوم على العقيدة النصرانية التي تستند إليها بعض الديانات ، مثل ديانة يهود .

وقد قرب الاسلام بين الشعوب التي دخلت فيه وألف بينها بخصائص وميزها بعلامات صارت كالعلامات التجارية الفارقة . حتى إذا دخل الغريب أرضاً فيها أكثرية إسلامية ، شعر حالاً بأنه بين قوم دين غالبيتهم الاسلام .

والماذن هي من أهم العلامات الدالة على وجود الاسلام في المكان الذي ترى فيه . و « الهلال » في نظر الغربيين علامة فارقة تعني الاسلام . وهي في نظرهم في مقابل الصليب ، العلامة الفارقة التي تميز النصرانية عن غيرها من الأديان .

ولكن المئذنة مع هذا لم تكن معروفة في أيام الرسول . أما « الهلال » فلم يكن أيضاً شعاراً للاسلام في صدر الاسلام .

وهكذا شأن كثير من السمات التي تميز المسلمين عن غيرهم في هذا اليوم ، هي لواحق . لحقت بالاسلام فيما بعد ، ولم تكن موجودة في أيام الرسول .

ودراسة تاريخ الاسلام دراسة تحليلية تستند الى النقد والتبصر وعمل الفكر والروية ، توصلنا ولا جرم الى نتائج قيمة مثمرة ، تكفل لنا التفريق بين الأصول والفروع ، بين الاسلام الصرف ، وما لحق به من لواحق على مر الأيام .
ودراسة تحليلية دقيقة مثل هذه ، تفيدنا اليوم كثيراً ، بل هي ضرورة لازمة . ولا سيما دراسة تاريخ أيام الرسول . فإن بين ما يتشكى منه الشرق الأدنى والأوسط لهذا العهد ، وما تشكى منه في القرنين السادس والسابع للميلاد صلة ورابطة وشبهاً في أشياء عديدة . ولتشخيص الشكاوي لا بد من الرجوع الى أسبابها وعواملها البعيدة . ومعنى هذا الرجوع الى الماضي للاستفادة منه في مداواتها ومعرفة الأسباب التي أدت الى بقائها حية فعالة حتى الآن .

ويعم العالم الاسلامي اليوم جمود وركود في العقل وفي الجسم . والسواد الأعظم في جهالة عمياء وفي ظلام دامس : تعصب بغضب يشبه تعصب قريش في أيام الرسول ، وكسل وأمراض ، حتى وقع في روع الكثير من الغربيين والشرقيين ، أن ذلك من الاسلام ، وان الاسلام معناه الكسل والانكسل والاستسلام ، وأنه سبب تأخر المسلمين ؛ وأن العالم الاسلامي لا يمكنه لذلك من مجاراة ركب الحضارة ، إلا بابتعاده عن الاسلام ، وبتخليصه من أصوله المسيطرة على العقول ، سيطرة تامة راسخة ؛ وذلك بثورة كالسحرة جامحة عليه ، شبيهة بثورة العالم الغربي على الكنيسة وعلى كل ما كان لها من سلطان على عقول الناس .

ودراسة تاريخ الاسلام على الشكل المقترح ، هي دراسة كفيلة بإيجاد الأجوبة الصحيحة المقبولة لمثل هذه المشكلات ، وإيجاد الحلول للمعضلات العويصة المتعلقة بتاريخ الاسلام . وهي ستساعد العالم الاسلامي كثيراً ولا شك في معالجة هذه الامراض التي يتشكى منها ، وهي أمراض مزمنة قديمة في الغالب ، ورثها الشرق من عهود سبقت ظهور الاسلام ، وليس للاسلام فيها دخل ولا يد .

ونحن في الوقت الذي ندعوه الى وجوب دراسة تاريخ الاسلام دراسة نقد وتحليل ، نعتزف بأن تطبيق ما نقواه ليس بأمر سهل يسير . وأقّة ذلك أن الانسان مهما حاول تجريد نفسه من نزعات العواطف ، فإنه لن يتمكن من التخلص منها تخلصاً تاماً

كاملاً . فليست العواطف ملائمة تدرى أو تستبدل ، أو هي شيء يرى ويمكن إدراكه والتفكير عليه . إنها كالقوة موروثية في بعض الأحيان ، وحاصل جملة مؤثرات خفية ، قد تستعيد بعض الناس فتسبب بأحكامهم ، وقد تكون خفيفة يسيرة عند بعض آخر ، وقد تكون في حكم العدم عند زمرة . ولكن هذه الزمرة هي أيضاً من لحم ودم ، وهي ممرضة مثل غير ما نلاحظ وقد تسبقها إلى الموضوع لحكم العواطف من حيث تدري ولا تدري تبعاً للأحوال والقوة المؤثرات .

ثم إن المؤرخ يجب أن يكون كرجل المنعبر ، ذا استعداد عظيم في التحليل ، وذا حيط عظيم من العلم في المواد التي يريد تحليلها ، وذا ذكاء خارق يمكنه من الاستنباط والاستنتاج ، ومن اجراء المقابلات والمطابقات والمفارقات والمقارنات ، لتكون أحكامه منطقية سليمة ، وأراؤه معقولة مقبولة ، والاحكام قاصداً من القصاص ، ومؤرخاً من هذا العالم القديم الذي يرى أن التاريخ حفظ ورواية ، وتسجيل لما يرويه الناس ، فهو يسجل كل ما يسمعه ويدون كل ما يقرأه ويعثر عليه في الموارد . يبدى رأياً في موضوع لمجرد اعتماده على خير وجده في كتاب أو في جملة كتب ، ويقول بأخذ أمة من أمة لمجرد وجود اشتراك في فكرة أو اسم أو أسماء أو تشابه ما . وأنا لا أريد هنا بالطبع أن انكر وقوع الأخذ والاقتراس بين الأمم والأشخاص ، ولكني أدعو الى وجوب استعمال النضر والروية في أمثال هذه الأحكام ، لئلا تتورط في مزالق العجلة ، والعجلة كما يقول المثل العربي من الشيطان .

ومن هنا أخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في اصدار الأحكام في تاريخ الاسلام ، وتأثرهم بعواطفهم ، لاخذهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان ؛ وحكمهم بموجبه ، ولاصدارهم أحكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو التشابه ، مع قولهم بوجوب استعمال النقد ، وباحتزاسهم في الأمور ، ووجوب التأكد من معرفة الأخذ قبل الحكم عليه ، ولا سيما أن السامعين أسرة واحدة كما يدعي المستشرقون ، يشتركون في كثير من الأمور ، ويتفقون في كثير من الآراء ، ومن الصعب تعيين الناقل عن الأصل الذي يرجع الكل اليه .

وآية ذلك أن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين ، أو من

المختارين من كليات « اللاهوت » ، وانهم إن تطرقوا الى الموضوعات الحسابية من الاسلام ، حاولوا جهد امكانهم ردها الى أصل نصراني . وطائفة المستشرقين من يهود ، وخاصة بعد تأسيس « اسرائيل » وتحكم الصهيونية في غالبيتهم ، يجهدون أنفسهم ارد كل ما هو اسلامي وعربي الى أصل يهودي . وكلنا الطائفتين في هذا الباب تتبع لسلطان العواطف والاهواء .

لقد غالى كثير من المستشرقين في كتاباتهم في السيرة النبوية ، واجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة . وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول . ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي . وطريقة مثل هذه دفعتهم الى الاستعانة بالشاذ والغريب . فقد موه على المعروف المشهور ، استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغربه النقد وأشاروا الى نشوئه . تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ ، هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك . ومهما قالوه في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول ، فإن سيرة الرسول هي أطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء .

ومن هذه الطائفة المستشرق « شيرنكر A. SPRENGER » والمستشرق الايطالي « الامير كيتاني » . والأول هو مؤلف كتاب : DAS LEBEN UND DIE LEHRE DES MOHAMMED في السيرة النبوية ، وهو في ثلاثة مجلدات . وقد حاول جهد امكانه الاحاطة بكل ما كان معروفاً في زمانه من موارد عن السيرة ، ومناقشته وتدقيقه ونقده ، على وفق طرق البحث الحديثة التي كانت معروفة في ذلك العهد . وهو مشكور على جهده هذا وعمله من هذه الناحية . كما يشكر كل مؤرخ وباحث يسير على هذا النهج ويتبع طريقة النقد الخالص ، ولكنه وبالأسف لم يتمسك بالنقد العلمي تمسكاً صحيحاً ، بل جرى مع عاطفته وذهب مذهباً شاذاً جعله يأخذ بالخبر الغريب الضعيف ، لمجرد أنه غريب غير مأوف ، ثم يقدمه على الأخبار المشهورة أو المتواترة ، ويبني عليه أحكاماً ، ويأتي بأراء تبدو ان ليس له علم بالأخبار وبالروايات المتعددة في كتب السير والتواريخ والتفسير والحديث ، أنها آراء جديدة حسنة ، تشف عن عمق في البحث وتوسع في النقد وصبر على غرلة الأخبار عجيب مقدر فهو يذكر الآراء ، ويدون الروايات قديمها ومتأخرها ، ثم يناقشها ويفندھا ويصححها . وطعن في هذا الراوي ويقوم هذا الخبر ، ولكنه ، وهذا هو الغريب فيه ، أخذ في كثير من الأماكن بالخبر الغريب

المتأخر الشاذ وبالروايات الاسرائيلية والأخبار المدسوسة ، فاقام لها وزناً وجعل لها اعتباراً . ثم بنى عليها أحكامه ، وكان عليه التفريق والتميز بين المتأخر والمتقدم من الأخبار ، ودراسة سند كل خبر ورواية ، والتعرف الى آراء العلماء في اوائل الرواة وحملته الخبر من حيث صدقهم وكذبهم ، ودراسة كل نص دراسة عميقة من الناحيتين : انطباق مضمون الرواية والخبر على روح الاسلام وأحكام القرآن والحديث وروح عصر الرسول ، ودراسة النص من الناحية اللفظية ، لينظر إذا كان صحيحاً ينطبق على اسلوب الزمن الذي ترجع الرواية اليه .

ومن هنا جاء بأراء مغلوبة . قد تكون سرته وأعجبه وأفنته بانه قد كشف هفوات وأغاليط في السيرة ، وأنه قد نجح في إثارة كثير من الشكوك سيقف عليها الناس في تاريخ الرسول . ولكنه في الواقع لم يأت بشي جديد ، فان ما ذكره وأورده لم يكن من لدنه ولا من ظفره به في موارد لم تكن معروفة ، بل هو مسطور في كتب السير المطبوعة والمخطوطة ، وقد قرأه الناس ، لم يجدوا في ذلك حرجاً ولا غشاضة . وكل ما فعله هو أنه - كما قلت - اختصر تلك الأخبار ثم ناقشها ونقدها وبين ما فيها من قوة أو ضعف ، إلا أنه بدلاً من أن يستمر في نقده على وفق الاسلوب العلمي ، ركبه هوس حب الخبر الغريب النادر ، فقدمه على المشهور المتواتر . وأخذ بالروايات الضعيفة وبالقصص الاسرائيلي وبروايات الضعفاء ، مع نص العلماء على فسادها ، فقبولها وساندها وأقام لها وزناً ، واستند الى أخبار « السيرة الحلبية » كثيراً ، وفي هذه السيرة كما هو معروف حشو وقصص اسرائيلي نبه عليه العلماء ، فكان عليه أن يدرك ذلك ، ولكنه لم ينتبه ، ولم يأخذ بوجوب تطبيق أصول النقد عليها ، فوقع ويا للأسف عمداً أو سهواً في أغاليط ، وفي أحكام فندها جماعة من المستشرقين .

وأما (كيتاني) ، فقد سلك أيضاً مسلك (شبرنكر) في دراسة السيرة من ناحية الرجوع الى موارد كثيرة ومن الاحاطة جهد إمكانه بكل ما ورد عن سيرة الرسول ومن دراسة كل خبر ونقده والبحث عن روايته ، ووقع في مثل أغلاطه فقد أوالع بالخبر الغريب ، وأخذ بالروايات المتأخرة الضعيفة التي لا نجد لها أصولاً في كتب السيرة القديمة وفي

الموارد الأخرى، وأبدى فيها آراء مبنية على العاطفة في الغالب. فوقع من ثم في تلك الأغلط. وقد أثار (كيتاني) كثيراً من التحفظات والشكوك في الذي كتبه عن الرسول أعجبت المعجيين المولعين بطريقة المستشرقين في البحث وفي كتابة التاريخ، دون أن يطلعوا بالطبع على مواطن الضعف عند هؤلاء المستشرقين. كما أنه تهجم على بعض الرجال مثل (ابن عباس) فاتهمه بالكذب، لورود روايات يرجع سندها إليه، وهي متناقضة أو غير صحيحة، فحكم عليه حكمه القاسي من غير أن يفتن إلى أن كثيراً مما أسند إلى ابن عباس هو مما دس عليه، وليس له دخل فيه، لأنه أضيف إليه فيما بعد لأسباب عديدة سياسية وغيرها لا مجال هنا للبحث فيها. وقد بحث فيها بعض العلماء وأشاروا إلى «سلسلة الكذب»، التي يصلها الرواة الضعفاء بابن عباس، كما بحثوا في الاسرائيليات التي أضيفت إليه؛ وقد أخذها «كيتاني» وغيره على أنها أخبار صحيحة وردت عنه حقاً!

وطريقة هذه الطائفة وتلك من المستشرقين في النقد جعلت بعض المؤرخين الاسلاميين يتهيمون بأساليب أصحابها ويرمون الدانين اليها بتهمة الغرض والقصد السيء. وهم لا يقصدون من ذلك الاعراض البات عن النقد، وعدم تمحيص الروايات وجرحها بل هم ينكرونها لأنهم يرون في هذا النوع من النقد الذي يدعون إليه مخالفة لقواعد النقد وأصول البحث، لأنه تعد قائم على قصد معين، ورأي مقرر، وليس ذلك النقد إلا وسيلة مصطنعة لإثبات ذلك القصد.

والذين يؤخذون المستشرقين على سلوكهم هذا المسلك من النقد، يؤخذون كذلك كل من يحاول من المسلمين كتابة التاريخ متأثراً بعاطفته وهواه، فهم لا يريدون توجيه اللوم إلى المستشرقين وحدهم، لأنهم بعاطفتهم، ثم يتكون من يركب هذا المركب من الشرقيين دون لوم ولا تعنيف.

ومن هؤلاء كان الشيخ محمد الحضري رحمه الله، في صدر محاضراته الأولى التي ألقاها في الجامعة المصرية والمطبوعة بعنوان: «محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية». فقد أنجى باللائمة على المؤرخين المندفعين في كتابة تواريخهم بحكم عواطفهم التي تتحكم فيهم، فيجعلون «كل ما ليس بحسن حسناً، ويجهدون في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه

غضاضة ، حتى ما أدي منها الى سقوط فاعله وخيئته ، وعاطفة الكراهة تدعو الى ضد ذلك ، فتجعل الحسن قبيحاً ، وتستبطن من الخير شرأ ، ولم بخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلا نفر قليل جداً . « الى أن قال : « فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرست تاريخ أمم إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها ، فليس علينا من تبعه ذلك الخطأ شيء . وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه ، وإن كانت أصابت المحجة ، فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم ؛ لذلك يحتاج دارس التاريخ الى سعة صدر يحتمل كل ما يرد على تاريخ قومه من نقد ، حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض » (١)

ويجب علينا أن نعترف أن هنالك سلطاناً آخر يخضع المؤرخ في كثير من الأحيان اليه ، هو سلطان الرأي العام . فالمؤرخ مضطر بحكم مقامه بين مواطنيه أن يراعي شعورهم وإلا عرض نفسه للمكروه من قول أو أذى ، ولهذا يضطر أن يمر بالقضايا الحساسة مرأ خفيفاً ، أو دون نقد ولا إبداء رأي .

ومادة المؤرخ وعلمه من الموارد التي تتوفر لديه ، والوثائق التي تكون قد تكدست بين يديه . ولما كان موضوع هذا الجزء هو تاريخ أيام الرسالة ، فقد وجب علينا البحث عن الوثائق التي تتصل بتلك الأيام ، والموارد التي يرجع تاريخها الى أيام الرسول أولاً ، لنستمد منها علمنا بأحوال العرب في عهد الرسالة . ولنقف منها على كيفية انتشار الاسلام .

وقد أجهد المؤرخون أنفسهم في البحث عن نصوص مكتوبة تعود الى القرنين السادس والسابع الميلاديين ، فلم يعثروا على نص مدون بأية لغة له علاقة بسيرة الرسول وبكيفية انتشار الاسلام في زمنه . وكل ما وصل الينا هو مما يعود عهده الى ما بعد انتقال النبي الى الرفيق الأعلى . فهو إذن من النوع المتأخر .

حتى أرض اليمن ، وهي أرض كريمة سمحة أغنت المؤرخين بألاف من الكتابات ، بخلت علينا هذه المرة بخلاً شديداً ، فلم تتكرم علينا بنص عن هذا العهد ،

(١) الحفري : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ، الجزء الاول « الطبعة السابعة »

ص ٣ وما بعدها .

أو عن العهد الذي يلي عهد استيلاء الحبشة على اليمن . فكان عهد احتلال الحبش لتلك البلاد ، هو آخر عهد ، تفضل فأكرمنا بعدد من الكتابات .

أما مكة والمدينة ، وطنا الاسلام ؛ فقد لاذا ويا للأسف بالصمت وما زالتا عليه ، مع وجود الكتابة فيهما في أيام الرسول ، ووقوع حوادث الاسلام فيهما ، وكتابة واحدة من ذلك العهد ، يعدها المؤرخ ثروة قيمة . وایس لنا تجاه هذا الوضع إلا الانتظار ، فاعل الأيام تجود على عشاق التاريخ بنص مدون أو نصوص مدونة تعود الى أيام الرسول . حتى القراطيس والألواح التي دون كتاب الوحي عليها آيات الله ، لم يبق منها شيء ، مع أهميتها وقديسيتها . أما نسخة القرآن الكريم التي كانت لدى حفصة بنت الخليفة عمر ابن الخطاب ، أو نسخة عثمان وبقية النسخ التي أمر بتوزيعها على الأمصار فلم يبق منها شيء كذلك . ولم يبق كذلك أي أثر لنسخ المصاحف الأخرى التي كان الصحابة قد كتبوها لأنفسهم . ومنها نسخ كتبت في أيام الرسول وأما ما يقال عن وجود نسخة أو نسخ مكنونة بخط الامام علي أو نسخة عثمان ، فكلام يحتاج الى دليل مقنع ، والى حجة دامغة تقوم على أساس من الاقناع والبرهان .

وليس في يد أحد هذا اليوم أصل من أصول كتب الرسول الى الملوك والرؤساء والى القبائل والعمال الذين بعثهم الى اليمن أو الأماكن الأخرى ، ولا نملك كذلك أصلاً لكتابة من الكتابات المدونة في أيام النبي أو خلفائه ؛ وهو أمر يبعث الأسف حقاً . ولو كان للناس في ذلك الزمن علم بقيمة ما كان لديهم ، وبأهميته بالقياس الى من سيأتي بعدهم ، لحافظوا عليه ولا شك ، ولساعدوا في وصوله الينا سالمًا . واذا اردنا لومهم على تساهل ظهور منهم ؛ فعلينا لوم أنفسنا أولاً ، فانتنا ونحن في القرن العشرين لم نزل في جهل عميق أصيل في ادراك قيم الوثائق والسجلات ، فأضعنا بذلك وثائق خطيرة من تاريخنا القديم والحديث ، وأنلقنا أثمن الآثار والمخلفات ، ومزقنا كثيراً من القرارات الخطيرة عمداً وعن غرض ، وسيأتي يوم ولا شك يجد فيه الناس أنفسهم في هذا الوضع المؤسف الذي نتحدث عنه . فما الذي سيقوله عنا أولئك الخلف حينما نكون في الناهبين الهالكين . أما أنا ، فأعطيهم الحق مقدماً في كل ما سيقولونه عنا ، وما سيكتبونه لمن سيأتي بعدهم من الناس الواعين .

وكل ما وصل إلينا عن أيام الرسالة ، مكتوب بالعربية التي نزل بها الوحي ،
أي بعربية القرآن الكريم ، ولم يصل إلى علمي عثور أحد على مورد عربي مكتوب بلهجة
عربية أخرى غير هذه اللهجة التي يطلق العلماء عليها « العربية الفصحى » وأقدم
ما وصل إلينا بالعربية الفصحى . يعود عهدُه إلى أيام العباسيين . وليس فيه مؤلف
مكتوب في عهد الأمويين .

وقد فقدت أصول كل ما ألف في العهد الأموي ، وفي جملة ذلك ما ألف في سيرة
الرسول . ولم يبق منها غير اقتباسات ونقف ؛ تجدها في بطون كتب السير والمغازي ،
وفي بطون كتب التواريخ والأدب . وهو بالطبع أمر يؤسف عليه الأسف كله . وكان
الزمان الذي تنكر للأمويين ، فقضى على حكومتهم في الشرق ؛ أراد أن يقضي على كل
ما ألف في ذلك العهد وصنف ، حتى ولو كان في أمور أخرى لا تتصل ببني أمية ؛ فأزاله
من عالم الوجود جملة وتفصيلاً .

أما أيام الرسول ؛ وأيام الخلفاء الراشدين ، فلم يرو أحد أن أحداً قد ألف فيها
أو دون وجمع . وكل ما وصل إلينا هو فيما يخص جمع كتاب الله . وأما ما يخص
حديث رسول الله ، فتكاد تجمع الروايات على أن الناس كانوا يتهيبون تسطيره في كتاب ،
وجمعه في أجزاء ، خوفاً من أن يكون مع كتاب الله كتاب آخر ، كالذي حدث عند
يهود ، وشفقة على المسلمين من أن يتخذوا حديث رسول الله قرآناً ثانياً يقرؤونه ، ثم
يقولون بعد ذلك إنه وحي أوحى إليه ، تنزل به الروح الأمين من عند الخالق
رب العالمين .

ولكن أكل ما ورد في بطون الكتب وما جاءت به الأخبار المحفوظة هو قول منزل
حق لا ريب فيه ولا شك . أنؤمن بما آمن به غيرنا . فنقول إن الصحابة ، لم يؤلف ولم
تدون ولم تجمع ؟ وبين الصحابة والتابعين جماعة كانت تشتري الكتب من بلاد الشام
ومن أماكن أخرى ، وجماعة كانت على حظ عظيم من الحكمة والعلم ، وجماعة كانت
تراجع أحبار يهود ورجال النصارى تسألهم وتجادلهم وتقارعهم الحجج وتدفعهم
الناس فيما هم فيه مختلفون .

قد يقول الناس : نعم ، إن ما جاء في الروايات حق ، وإن ما ذكره القدماء عن إحجام الصحابة والتابعين عن الكتابة والتصنيف والتأليف حق لا ريب فيه ، لا يأتيه الباطل أبداً ، وقد يقولون أكثر من ذلك . أما أنا ، فأقول : أيها الناس ، أنا لا أشارككم رأيكم هذا ، ولكم دينكم ولي دين . ولن يدخل في عقلي توقف أحد من الصحابة أو التابعين عن التأليف والتصنيف والجمع ، ولهم ما يقولونه عنهم من العلم والحكمة والقبليات ، وبينهم أناس أوتوا حظاً من العلم قبل الإسلام ، وقد تعلموا القراءة والكتابة في الجاهلية ، ورووا لقومهم قصص الماضين وأخبار الفرس والروم .

هل يعقل عدم تدوين الصحابة شيئاً ، وقد ابتدأ الوحي بـ « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . » (١) وقوم يبتدئ الوحي عندهم بهذا الابتداء : لا يعقل أبداً أن يتروكوا القلم ويناموا ؛ ثم لا ينشط واحد من بينهم فيكتب أو يدون شيئاً .

نعم ، قد يكون إحجام الصحابة عن جمع حديث رسول الله وتدوينه بسبب ما ذكره الرواة والمؤرخون ، وهو بسبب خشيتهم من ظهور كتاب مع كتاب الله . ولكن ما الذي خشيه الصحابة من تدوين سيرة رسول الله ، أو أحوال الماضين أو أمور أخرى من الأمور التي قد لا تحمل على هذا المحمل والتي تفيد القوم وتنفعهم ؟ قد يكون غلاء القراطيس وارتفاع أسعار مادة الكتابة من بين هذه العوامل التي حالت بينهم وبين التدوين . وهذا سبب معقول مقبول جداً في بيان سبب عدم انتشار الكتابة في ذلك العهد . ولكن هل كان جميع الصحابة من الفقراء المعوزين ؟ لا : لقد كان من بين الصحابة والتابعين أناس لم تكن أحوالهم المالية سيئة ، حتى تحول بينهم وبين التدوين . ومن له شغل وولع بالعلم لا ينشئ عن الاشتغال به مهما كانت أحواله المالية سيئة .

وأنا في هذا المكان لا أريد أن أحمل القارىء على الاعتقاد بأن ذلك العصر الذي تحدث عنه كان عصر تأليف وكتابة ، وأنه كان عصر كتبة ومؤلفين ، فقد كانت

(١) سورة الملئ ، الآية الأولى وما بعدها ، السيرة الحلبية (٢٧٦/١) « باب بدء الوحي صلى الله عليه وسلم » .

لذلك الأيام مشكلاتها وشواغلها، وقد كان للقوم عمل مرهق وواجبات كثيرة ، تحول بينهم وبين التأليف والكتابة ، وكل ما أريد أن أقوله هو أن من غير المعقول تصور خلو ذلك العصر من كتبة ومن مؤلفين ومدونين وجماعين ، ومن أناس انصرفوا الى تدوين أحوال أيامهم على الأقل . وإذا كنا عاجزين أن نأتي بأدلة تؤيد ما نقوله ، فإن عجزنا أن يكون دليلاً على عدم وجود التأليف في ذلك العهد . ثم إننا لم نجهد أنفسنا اجتهاداً في البحث عن آثار ذلك العصر ، ولم نكبد أنفسنا مشقة التنقيب في مظانها وفي مواطنها أو في الأماكن الأخرى فإذا فعلنا وعجزنا وأيسنا ؛ جاز لنا حينئذ اليأس، وساغ لنا قطع الأمل ، وحق لنا بعض الحق القول بعدم اشتغال أحد من نعتيهم بالكتابة . أما وأننا لم نفعل من ذلك شيئاً ، فليس لنا إلا الانتظار ، فقد يكون فيه الفرج ، وقد يأتي منه خير كثير .

والمؤرخ الحصيف الناقد . لا يكتفي في بحثه عن تأريخ عصر الرسالة ، بما اكتفى به أكثر المؤرخين من توجيه جل عنايته الى الناحية السياسية والغزوات ، بل عليه أن يتخطى حدود هذه الناحية إلى نواح أخرى . إلى دراسة أحوال السواد الأعظم من الناس ، وإلى التملّوات الفكرية والاقتصادية والحياة الاجتماعية والدينية والثقافية في ذلك العهد ، وإلى أثر الأفراد البارزين في مجتمع ذلك اليوم . وإلى أثر الاسلام في الحجاز وفي العرب أجمعين .

فليس الاسلام ثورة قامت لقلب نظام ووضع نظم جديد ، وليس الاسلام ديانة صرفة بالمعنى المفهوم عند الغربيين في الزمن الحاضر ، أي مجرد عبادات حدودها الكنيسة والبيت لا يتعداها الى الحياة العامة والسياسة والادارة ، وليس الاسلام ناحية واحدة من نواحي هذه الحياة ؛ ولكن هذه النواحي كلها وغيرها . إنه في نظر أهله ، عبادات ومعاملات ، دين ودنيا ، دين ودولة . لا تفريق فيه بين أي كان من ذلك .

والاسلام ينظم للمسلمين أمورهم الدنيوية ، كما ينظم أمورهم الدينية وواجباتهم تبعاً الخالق ؛ لا يخلو ناحية من نواحي الحياة المعروفة إلا ينظمها على وفق قواعده وأسسها ، ولهذا لزم أن يكتب تأريخه على وفق هذه القواعد والاسس ؛ وأن تدرس كل النواحي التي أحاطت به ؛ وبالحجاز وبجزيرة العرب في الجاهلية وعند ظهور الاسلام .

العربية ، هو تحامل الموارد الأعجمية على الاسلام وتلقيحها بعض الأخبار على الرسول زاعمة أن ما تذكره هو حق واقع ، وهو في الواقع باطل مبني على الجهل والعصية الدينية والسياسية ليس غير .

وقد كتب هذا المذكور عن الاسلام في زمن كانت الاسلام فيه قد قضى على الانبراطورية الساسانية ، واقتطع أغنى أجزاء الانبراطورية البيزنطية وأخصبها وأهمها . وكان النصراني فيه يدخلون أفواجا أفواجا في دين الله ، مما أفزع رجال النصرانية وأذهلها ، حتى صور اليها أن الاسلام سيقضي على دين المسيح ؛ وأنه يتبعه في كل مكان ، وهذا مما جعلهم يحقدون عليه ويرمون النبي والاسلام بالكذب وبالنهم الأخرى لعواطفهم التي تغلبت عليهم ، ولتصورهم أن في هذا النوع من التشيع ابتعادا للنصراني عن التقرب الى الاسلام ، وتنفيذا لهم عن الدخول فيه ؛ وذلك على نمط ما تفعله المذاهب السياسية في هذا اليوم من تشيع بعضها على بعض ، لاعتقادها أن في ذلك كسبا ونجاحا وظفرا .

وعندي أن عدم مبالاة البيزنطيين بالعرب ، واستهغارهم لهم ، كانا من العوامل التي أدت الى عدم اهتمام مؤرخيهم بتدوين تاريخ العرب والمسلمين ؛ وإلى ضياع بلاد الشام ومصر منهم ، نتيجة ذلك الجميل . فسلم يكن العرب في نظر الروم إلا قبائل ضعيفة تابعة ، كل ما تتمكن أن تفعله هو غزو بعضها بعضا ، وغزو حدود الروم والفرس ، ولهذا لم تحفل بها إلا من هذه الناحية ، ولم يتحدث مؤرخوهم عن العرب إلا في المناسبات المتصلة بأمثال هذه الشؤون .

وعلينا أن نعترف أن كتابة التاريخ نفسها لم تكن نشطة في هذه الأيام بين البيزنطيين ، وأن هذا الخمول قد كان له أثره في عدم تدوين شيء عن العرب والاسلام في أيام الرسول وفي أيام خلفائه الراشدين .

كما أن علينا أن نبين أن جل من اشتغل بتدوين هذا التاريخ كانوا من رجال الدين ، وقد أثرت دراستهم الدينية القائمة على العقيدة والایمان في طريقة تدوينهم للتاريخ وتفسيرهم للحوادث . حاولوا جعل التاريخ في خدمة الكنيسة والعقيدة ، ولهذا تضائل النقد ، ونزل الجزم عندهم منزلة الصدارة ، وتضائلت الملاحظات والتأملات

التي عرف بها المؤرخون السابقون ، وأصبح التاريخ مجرد سرد حوادث وتدوين أرقام ووقائع ، جافة عملة في الغالب ، لا رواء فيها ولا حياة . تمثل طبائع كانيها ، الذين تزموا وقسوا على أنفسهم ، وانصرفوا عن الحياة نفسها إلى عالم قاس يقوم على التدوين والتسجيل ، دون نقد ولا مناقشة ولا تعليل .

ومن رجال هذه الطبقة أسقف عاش بمصر وألف بها ، اسمه « يوحنا النقي » John of Nikiu . وقد ولد على ما يظن في أيام فتوح المسلمين لمصر . وكان رئيساً للأديرة في سنة « ٦٩٦ » للميلاد . وقد غاضه ما رآه من إقبال المصريين على الاسلام ، ومعاونتهم للمسلمين على إخوانهم في الدين الروم ، وحنق عليهم لهذا السب . ونرى آثار هذا الحنق في تأريخه المؤلف باليونانية ، المنقول الى الحبشية عن ترجمة عربية ضاع أصلها ، ولم يبق منها إلا قليل . وعن هذه الترجمة الحبشية عملت الترجمة الانكليزية (١) . وللحكم على مبلغ حنق صاحب هذا التأريخ على الاسلام ، وعلى مقدار تأثيره بعاطفته ، لا بد لنا من عرض بعض ما ذكره عنه . وقد نعت الاسلام بـ « The Faith of the beast » . وقال ما معناه عن كيفية إنتشار الاسلام بين المصريين :

« وفي أيامنا هذه ، ارتد كثير من المصريين . ممن كانوا نصارى كذبا ، فهجروا الديانة القويمة ، وتركوا التعميد ، ودخلوا في الاسلام دين أعداء الله ، وقبلوا دين الوحوش : دين محمد ، وتعاونوا مع عباد الأصنام ، وحملوا معهم السلاح ، وحاربوا النصارى .

ومن هؤلاء : « يوحنا الخلقدونى John the chaldeon » من رهبان سيناء . دخل في الاسلام ، وجنح عن الرهبانية ، فحمل السيف ، وتعقب النصارى المؤمنين المخلصين لربنا يسوع المسيح (٢) .

وقد فسر هذا الراهب انتصار الاسلام على النصرانية ، وانزاع البيزنطيين في مصر ، بأنه عقاب من الرب للنصارى ، لابتعادهم عن دينه القويم ، وخرجهم على أوامر الرب (٣) . وهو تفسير طالما نقرؤه في التواريخ المكتوبة على هذا الطراز . ففسرت

The Chronicle of John, Bishop of Nikiu. Translated from Zotenberg's (1) Ethiopic text, by R. H. Charles, 1916.

P. 201.

(2)

P. 203.

(3)

ودراسة على هذا النحو توجب على المؤرخ التوسع والتبسط في مراجعة المظان والموارد . وهو كلما توسع فيها ، كانت إحاطته بأحوال العصر أشمل وأحسن وأعم . والقرآن الكريم ، هو سندنا وملأذنا في معرفتنا بتاريخ الإسلام ، وبأحوال العرب في ذلك العهد . ثم كتب التفسير وأسباب النزول وكل الكتب المؤلفة حول كتاب الله . لشرحه وإيضاحه للناس . ثم الحديث ، حديث رسول الله وعمله ، وكتب السير والمغازي ، والتواريخ من عامة وخاصة .

ويحمل الجشع المؤرخ على التهام مصادر أخرى ، والبحث عن موارد تفيده في زيادة علمه وتعينه على الإحاطة بأحوال العرب المعاصرين للإسلام ، ليس في الحجاز حسب ، بل في أنحاء أخرى من جزيرة العرب وفي خارج الجزيرة أيضاً . فهو يرد الشعر من ناحية ما يخص الحياة العامة ، ويرد كتب الأدب ليرى ماورد فيها مما يخص أحوال القوم في أيام الرسالة . وكتب الأدب في العربية مزيج من أدب وتاريخ ، حتى يصعب عليك أحياناً البت في الفرع الذي يقع الكتاب فيه : أهو في فرع التاريخ ، أم في فرع الأدب . وهو يرد كل ما يخص هذا العصر : وإن كان أسطورة أو مثلاً ، لأن في الذي نقوله تعبيراً عن نفسية العصر واتجاه الناس ، غير أنه لهذا النسق من النعم ، لسبب من الأسباب . فهو إذن ضرب من ضروب الكلام . ونوع من أنواع التعبير عن كوامن النفس .

والأمثلة العربية القديمة والقصص الجاهلي والإسلامي مصدر مهم في معرفة تاريخ الإسلام وفي معرفة الظروف والأحوال التي كانت تسيطر على العرب عند ظهور الإسلام . فيها وفي أمثالها ثروة تاريخية ربما لا يظفر بها المؤرخ في الموارد التاريخية المعروفة المتداولة بين الناس .

ولكل ما تقدم وجب على المؤرخ لتاريخ الإسلام أن يتوسع في موارد جهد إمكانه ، وأن يفتش عن منابع جديدة ليضيف ما يرد فيها إلى هذا الذي نعرفه عن تاريخ الإسلام . حتى يتمكن من تكوين صورة واضحة صحيحة صريحة لهذا التاريخ :

والكلام على كل مورد من هذه الموارد ، نوع من الفضول ، يخرجنا عن حدود عملنا في هذا الكتاب إلى عمل آخر ، يجب أن يكون في حد ذاته في مجلدات ، لكثرة

ما يجب التحدث عنه . فليس لنا ما نصنعه في هذا المكان إلا الاكتفاء بهذا التنويه ، ولا سيما أننا سنذكر أسماء الموارد التي سنأخذ منها في هوامش الصفحات .

وبعد ، فإن مادة تأريخ صدر الاسلام وموارده ، وإن كانت عربية خالصة ، عليها يجب أن يكون اعتماد المؤرخ ورجوعه ، غير أن على المؤرخ أن يرجع الى ما كتبه غير العرب في الاسلام أيضاً ، وإن كانوا قد كفروا به وجحدوه ، فإن الاسلام لم يقتصر على جزيرة العرب وحدها فلم يتعدها ، ولم ينتشر بين العرب وحدهم فلم يغادرهم الى شعب آخر ؛ بل وجه رسالته منذ يومه الأول الى العالم ، وشرع في نشره بين الأمم الأخرى في حياة الرسول ، وتجاوز حدود بلاد العرب في أيام الراشدين ، فظاهر أرض الساسانيين وقضى على الانباطورية ، وفتح أرضين عظيمة واسعة كانت في حكم البيزنطيين . وهذا وجب علينا أن نعرف ما قاله الساسانيون والبيزنطيون والأقباط والسريان والأرمن وكل من احتك أو اصطدم بالاسلام ، وما كتبوه في الاسلام وفي فتوحه وانتشاره وما وعوه وفهموه عنه . إن خيراً كتبوا ، وإن شراً ، ففي النوعين فائدة للمؤرخ والقارىء . وفي الذي كتبوا ولا سيما عن الفتوحات ، بعض امور تفيدنا كثيراً في سد الثلم الكثيرة التي نجدها في كتب المؤرخين الاسلاميين ، لبعد هؤلاء المؤرخين عن المواضع التي وقعت في تلك الفتوح ، ولعدم اهتمامهم في الغالب اهتماماً كلياً بها ، لأنها لم تكن بالنسبة اليهم من الامور التي تستوجب هذا الاهتمام ، بينما هي على جانب كبير من الخطورة بالنسبة لغيرهم ، لوقوعها في ارضهم وفي بلادهم ، ولهذا سارت أخبارهم عنها ذات أهمية في تدوين تأريخ الاسلام .

وعلي قبل أن اتكلم على أي مورد من هذه الموارد أن اعترف للقارىء بأنني لا أستطيع أن أذكر له أسم مورد واحد من الموارد الأعجمية مما يرتقي عهده الى زمن النبي . فليس بين الموارد التاريخية التي وصل علمها اليها مما يرتقي تأريخه الى هذا العهد ، كما أنني لا أستطيع أن أقول له إن في الموارد المؤلفة فيما بعد شيئاً جديداً عن الاسلام في أيام النبي بالنسبة الى القارىء . ولذلك فليس له أن يطمع في أن أتى له بشيء جديد قاله كتبة النصرانية في النبي في هذا العهد وهو لم يرد في الموارد الاسلامية . ولكني أستطيع أن أؤكد له من ناحية أخرى أن في هذه الموارد شيئاً جديداً بالقياس الى قراء الموارد

وقد تعرض : « يوحنا بن بشكاية Johanan bar Penkaye » ، حوالي سنة ٦٨٥ م « في الفصلين الرابع عشر والخامس عشر من تأريخه العام لأموار المسلمين ، والتغير الذي طرأ على العالم بظهور أبناء « هاجر » أي العرب ، واندحار الساسانيين وزوال ملكهم ، بعد أن كانوا يرفعون أنوفهم فوق الأنوف غطرسة وكبرياء .

وقد نسب انتصار المسلمين إلى إرادة الله وقضائه وقدره . فقد أراد الله أن يرغم أنف المملكة المتغترسة الظالمة العاصية لأمره بأن سلط عليها قوماً « حفاة » أكثرهم أشباه عراة ، لا يملكون سلاحاً يقاتلون به ولا قوة ، فاجتاحوا الانبراطورية ، وتغلبوا على أقوى محاربي العالم في أيامهم ، ولم يكن لينتصر « أبناء هاجر » لولا قدرة قادر ، وأمر من الله (١) .

وقد تعرض لنزاع علي ومعاوية ، وأثنى على معاوية كثيراً ، وذكر أنه كان عادلاً قديراً ، انتشر الأمن في زمانه ، وعامل النصارى معاملة طيبة ، ولم يفرق في المعاملة بين رعيته . ووصفه بالكفاية والحزم . ونجد في تأريخه ثناء على المسلمين ، لعدهم ، ولحسن معاملتهم للنصارى ، وإنصافهم لهم (٢) .

وقد تطرق « يعقوب الرهاوي Jakob von Edessa » في كتاباته لأحوال المسلمين وأحوال النصارى في حكمهم . وهومن « المنوفيزييتين Menophysitian » ، أي القائلين بالطبيعة الواحدة . وتفيدنا كتاباته في تشخيص أحوال النصارى في القرن الثامن للهجرة (٣) .

وفي دار كتب الفاتيكان نسخة خطية لكتاب في التاريخ في أربعة أجزاء ، كتب سنة « ٧٧٥ » للميلاد ، في « رهبانية زقنين Kloster von Zuqnin » . وقد تناول الجزء الرابع منه حوادث أيام المؤلف المجهول ، وتعرض فيه لأحوال الاسلام والمسلمين ، وتشكى من الجزية الباهظة التي فرضها الحكام ، ومن الضرائب التي تؤخذ من السكان ، حتى أثقلت كاهلهم ، وأضرت بجميع الناس (٤) .

Dionysius, S. 5, A. Mingana, Sources Syriacques, Leipzig, 1908, (1)

Vol. 1, P. 146. Baumstark, S. 40.

Mingana, P. 1455. Dionysius, S. 8. (2)

Dionysius, S. 8, 16, chronicon Jacobi Edesseni ed., E. w. Brooks. (3)

Geschichte der christlichen Literaturen, S. 52. (4)

وكانت له « ثيموثاوس الكاثوليكوس » Katholikos « Catholikos Timothy Timotheus » ، وهو من النساطرة ، مناظرات دينية في حضرة الخليفة المهدي سنة ٧٨٣ م . وقد كان كما يتبين من كتاباته من الواقفين على أسس الاسلام (١) .
وزار رجل دين آخر الخليفة المهدي ليحبه عن بعض أسئلة كانت قد أشكلت عليه . واسمه « ثيوفيلوس بن توماس الرهاوي » Theophilus Sohn des Thomas « Edessa » وهو من الممارونيين ، وصاح ، مؤلف ، في تاريخ الخليفة والعالم . وقد نقل « الألبانسة والأوديسة » Dion and Odyssee « الى السريانية (٢) .

وقد حوى التاريخ العام له « ثيوفانس Theophanes the Confessor » المتوفى سنة (٨١٧) أو (٨١٨ م) ، أموراً عديدة في التاريخ الاسلامي ، خاصة ما يتعلق منها بصلات العرب مع الروم والفتوحات الاسلامية . والمؤلف من رجال الدين ، ومن المدافعين عن عقيدة تقديس الصور والحاملين على خصومها ، ولدفاعه هذا سجن ونفي ؛ لأن الحكومة وعلى رأسها القيصر ، كانت ترى تحريم الصور . فأمر القيصر « ليون الخامس » بسجنه ونفيه . وقد شغل هذا الرأي البيزنطيين مدة تزيد على مئة عام ، من سنة (٧٢٦) الى سنة (٨٤٢ م) . وكان لعقيدة الاسلام في تحريم التقرب الى الصور وتقديسها أثر كبير في ظهور هذه المشكلة عند البيزنطيين .

ولم يكن « ثيوفانس » من المؤرخين المنصرفين الى التاريخ ، بل كان رجل دين ، اضطره صديق له اسمه « Georgio synkellos » الى التأليف ، حينما أخذ عهداً عليه وهو على فراش الموت أن يتم كتابه في التاريخ الذي شرع في تأليفه ، فلم يكن أمام « ثيوفانس » ، وقد أعطى العهد إلا إنعام الكتاب .

وقد استند هذا التاريخ إلى موارد سابقة . فقدت ، ولم تبق من أكثرها لسوء الحظ بقرية ، كما حوى أموراً لا نجدها في موارد أخرى ، ولا سيما ما يتصل منها بحوادث الستين الواقعة ما بين (٧٦٩) و (٨١٣ م) . ويكاد يكون المورد البيزنطي الأكبر في التاريخ لهذا العهد .

Dionysius, S. S. Woodbrooke, studies Christian documents in Syriac, (1)
Arabie and Gershum, Edited by, A. Mingana, Vol., II, cambridge, 1926.
Dionysius, S. Geschichte der christlichen Litteraturen, S. 52. (2)

الثورة الفرنسية مثلاً في بعض الكتب وظهور نابليون بأنها غضب من الله على الشعب ،
لأنه ابتعد عن الكنيسة ، وخالف أوامر الرب .

وقد فزع رجل دين آخر من انتشار الاسلام ومن دخول النصراني فيه أفواجا
أفواجا ، فكتب بحثاً في اليونانية لارشاد إخوانه في الدين ، ولتعليمهم أمور دينهم ؛
ولرد الشبهات التي تكونت عندهم من انتشار الاسلام في بلاد الشام . وقد حملة عمله
هذا على التعرض للاسلام ، والاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحديث على صحة النصرانية .
وفي الذي ذكره فوائد للمؤرخ ، تيسر له الوقوف على وجهة نظر رؤساء النصرانية في
الاسلام وفي شرح بعض الحوادث التي لم يرد لها ذكر في مؤلفات المؤرخين الاسلاميين .
ويعرف هذا الرجل الذي أتحدث عنه بـ « القديس يوحنا الدمشقي »

■ St. Johannes Damascenus . وقد ولد حوالي سنة ٦٧٥ م ، وتوفي في الرابع من
ديسمبر ٧٤٩ م . وهو من أسرة كانت في أيامها شهيرة معروفة . فكان أبوه في خدمة
الخلفاء الأمويين ، وله منزلة وحظوة عندهم . وكان هو نفسه من المقربين اليهم والمتصلين
بهم ومن الذين يستشيرونهم في مهمات الأمور ، وقد يسرت له ثروة أبيه سبيل التثقف
بثقافة عالية ، فتصلح بالسريرية ، وأتقن اللغة اليونانية حتى صار كاتباً بارعاً فيها مع أنه
لم يكن من أصل يوناني ، ولعله كان من البارعين بالعربية كذلك (١) .

وقد نسب « يوحنا » الاسلام الى الهرطقة « Heresy » ، وادعى أن الرسول أخذ
علمه من رجل من أهل الكتاب ، أو من رجل من الهرطقة الأريوسيين « Arian » .
وهو قول سبق أن زعمته قریش قبله ؛ وأشار الى زعمهم في القرآن الكريم (٢) . وزعم
ايضاً أن الرسول كان قد نظر في التوراة والانجيل ، وأنه تعلم منها وتنبأ

(١) توفي قبل سنة ٧٥٤ م راجع :

Bilderstreit und Arabersturm in Byzanz um das 8. Jahrhundert (717-813)
aus der Weltchronik des Theophanes S. 136, Basilus Studer, Die
Theologische Arbeitsweise des Johannes von Damaskus, 1956, S. 12,
Hieronymus, meyses, Die Bilderlehre des hl. Johannes von Damaskus,
1937.

De Haeresibus, in Migne Patrologia graeca, vol. 94, 1864, the Muslim (2)
world, Vol., XLI, No., 2, April 1931, October, 1934, PP. 392.

« Pseudo-Prophetes » ، كما زعم أن الاسلام إنما انتشر بحد السيف ، لا بالحجج والاقناع . وفي جملة ما قاله : بينهم المسلمون النصارى بمباداة التماثيل المصنوعة من الحجارة والخشب ، مع أنهم هم أنفسهم يقبلون الحجر الأسود ، ويتقربون اليه ، وهم في عملهم هذا لا يختلفون عن النصارى في تقييلهم التماثيل أو الصليب (١) .

ورأى في ظهور الاسلام علامة من علامات الدجال « Anti-Christ » . وقد أثرت بطريقة ظهور الدجال تأثيراً كبيراً في عقلية نصارى بلاد الشام في هذا العهد . وقد ورد في بعض المؤلفات السريانية أن من علامات الدجال انطلاق العرب من يثرب ، وتغلبهم على الروم (٢) .

ويعد « يوحنا الدمشقي » ، عهد الجادة المستشرقين المعروفين بتعاملهم على الاسلام . فأكثر ما يزعموه ويذكرونه عنه ، هو ما كان قد قاله ودونه قبلهم بما يزيد على ألف عام .

وجرأه « يوحنا » هذه على الاسلام ، مع قربها من الخلفاء واشتغاله موظفاً عندهم ، كل ذلك من دلائل تسامح المسلمين ، وعدم إهتمامهم بما يقال عنهم وإن كان غثاً . وقد حوى تاريخ الأسقف « سيبوس » « Bishop Sebeos » ، وهو مؤرخ أرمني الأصل ، على أمور تاريخية مهمة عن الاسلام . ويبتدىء تاريخه بأيام « فيروز Peros » « ٤٨٤م » ، وينتهي بتولي معاوية الحكم سنة ٦٦١م ، وقد حوى حوادث عديدة شهدتها وأدركها المؤرخ بنفسه . ومن هنا كان لتاريخه شأن كبير من هذه الناحية ، ويمتاز تاريخه أيضاً بطريقة عرضه للحوادث ، وسيره على طريقة المؤرخين اليونان والرومان القديمة « الكلاسيكية » في تدوين التاريخ . وفي تاريخه وصف لفتوح العرب لآيران وأرمينية والأرضين التي كانت خاضعة للبيزنطيين ، وكيفية سقوط الانباطورية البيزنطية (٣) .

(١) حضارة الاسلام : تأليف كوستاف فون كرونوم ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، (ص ٦٥ وما بعدها) .

The Muslim world, Vol., XLI, No. 2, April, 1951, P. 88, October, (2)
1934, PP. 22.

Geschichte der Christlichen Literaturen, S. 104, Hastings. (3)
Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol., 8, P. 872..

بلاد الاسلام ، وكان لأصحابها صلة وثيقة برجال الحكم ، ومنزلة محترمة لديهم . وقد كانت لبعضهم مناظرات في أمور الدين مع علماء المسلمين بحضور الخلفاء أو الوزراء ، وهذا غاية في التسامح عند المسلمين .

وتساعدنا مؤلفات من ذكرناهم مساعدة كبيرة في فهم أحوال الفرس والروم ، وفهم مواطن الضعف لديهم ، وفهم صلاتهم بالعرب وأثرهم في جزيرة العرب . وقد كان لهم أثر بارز في سياسة العرب وفي توجيههم في القرنين السادس والسابع للميلاد . وقبل أن نختم كلامنا على المؤلفات الأعجمية ، لا بد لنا من الإشارة الى كتب « الجدل والمناظرات Polemic » المؤلفة في الرد على المسلمين . وهي وإن كانت قد تميزت بالتجاهل على الاسلام ، قد تضمنت أموراً تفيد المؤرخ وتنفعه ، ولا سيما من ناحية علاقة المسلمين بالروم والناصري ، وأموراً أخرى وردت مقتضبة في التواريخ الاسلامية ، أو لم ترد فيها إطلاقاً .

وفي طليعة من ألف في الرد على المسلمين ، يوحنا الدمشقي الذي تحدثت عنه سابقاً ، و « ثيودور أبوقرة » « ٧٤٠-٨٢٠م » أسقف « حران » ، وهو مشهور معروف ، وله صلة بالخلفاء . وكان في جملة ما تطرق إليه نظرية الخلاص التي حاول توضيحها للمسلمين ، وحرية الارادة ، ومشكلة « الطبيعتين » في المسيح . وجدله توريد لأراء يوحنا الدمشقي وقد تطرق أيضاً الى الاسلام والرسول (١) .

ويدل مؤلف الراهب (برثولمايوس الرهاوي Bartholomaïos von Edessa) ، على علم بالاسلام واطلاع على سيرة الرسول . وقد اختلف في زمانه ، فقيل : هو من رجال القرن التاسع للميلاد ، وقيل كان بعد ذلك بقرون قد تصل الى القرن الثالث عشر للميلاد ، لورود مصطلحات لم تظهر إلا بعد القرن التاسع ، مثل ■ Muusoulmanoi ■ بمعنى المسلمون « Muslims » ، وهو مصطلح لم يظهر في اليونانية على مذهب إليه بعض العلماء إلا في القرن الرابع عشر للميلاد ، ومثل « Porakides » .

Bilderstreit, S. 136. Gutterbock, der Islam im lichte der Byzantinische (1) Polemik, 1915.S.15.

« Phlorakides » الذي أطلقه اليونان على فرقة الدراويش ، وأمسال ذلك (١) . وهو يجادل المسلمين بعف ، يدل على مبلغ الحقد الذي كان قد ظهر بين النصارى في ذلك العهد على الاسلام ، والكراهية الشديدة له التي ولدتها الحروب بين الروم والمسلمين وبين النصرانية والاسلام . ويظهر من قوله في رده على المسلمين « لقد قرأت كل كتبكم واكتشفت كل شيء بنفسى » أنه كان قد اطلع على موارد إسلامية ، ولعله كان قد قرأ ترجمة من ترجمات ذلك العهد للقرآن الكريم .

هذا ويظهر أن الفتوحات الاسلامية ، وانتشار الاسلام ، قد أثارا الخوف في نفوس الروم . وجعلوا حكمهم يأمرهم بتأليف الكتب في الرد على الاسلام ، ويشجعون من يؤلف في ذلك . فأمر القيصر المدعو « باسيلوس Basileios » المتوفى سنة (٨٨٦ م) ، أحد الكتاب المدعو « نيكيتاس Niketas » بتأليف كتاب في الرد على المسلمين . وقد تعرض هذا الكتاب لعقيدة الثالوث ، وتحدث عنها طويلاً محاولاً البرهنة على صحتها ، وقارن بين آراء النصارى وما يقابلها في القرآن الكريم . وتدل ترجمته للإيات ، على علم بالاسلام ، واحاطة بالقرآن ، فهو لم يخطئ في الترجمة إلا قليلاً .

والمؤلف رسالتان تحملان اسم القيصر « ميخائيل الثالث Michael III » في الرد على أحد المسلمين « Agarene » (٢) .

وقد استمرت حركة الرد على المسلمين زمناً طويلاً عند الروم . وساهم فيها قيصر من قياصرتهم ، هو القيصر الراهب : « Johannes Kantakuzenos » المتوفى سنة ١٣٨٣ م ، وساهم فيها أناس آخرون يطول الحديث عنهم . ونحن لا يهمنا من كلامهم غير ما يفيدنا من ناحية ما فيه من جديد يتصل بتاريخ العرب والاسلام ، وعلاقة الروم بالمسلمين . وفي أسماء من ذكرنا الكفاية . ولمن أراد المزيد أن يراجع الكتب المؤلفة في الجدل والمناظرات مع المسلمين (٣) .

(١) حضارة الاسلام (ص ٦٨) .

Billers reit, S. 138.

(٢)

Bilderstreit und Arabersturm in Byzanz, Das 8. Jahrhundert

(٣)

« 717-813 » aus der Weltchronik des Theophanes, übersetzt, eingeleitet und erklärt von Leopold Breyer, graz 1957.

ويستأثر هذا التأريخ باحتوائه على جداول تقويمية لسني حكم القياصرة وملوك
 إيران والخلفاء والبابوات وبطاركة القسطنطينية وبطاركة القدس والاسكندرية واماكنها.
 مرتبة أحياناً على وفق التقويم الاسكندري والتقويم الميلادي ، وقد ضبطت فيه المدد
 بالسنين والأشهر والأيام في بعض الأحيان ، ورقمت على طريقة البيزنطيين (١) .
 ويدل ماكتبه « ثيوفانس » في النبي والاسلام أنه كان قد وقف على موارد في تأريخ
 الاسلام ، أو أنه راجع بعض المسلمين ، وربما راجع بعض المسلمين الأسرى الذين
 كانوا في بلاد الروم ، ولكنه مزج ما عرفه بالبنص الذي كان شائعاً يومئذ للاسلام
 والمرسول ، وخلط في بعض الأمور . وهو يجاري يوحنا الدمشقي في آرائه في الاسلام ،
 ويتفق معه . وهذا فان من المفيد جداً موازنة ما ذكره « يوحنا » بما ذكره « ثيوفانس »
 لمعرفة الصلة بين آراء « ثيوفانس » و « يوحنا » المذكور . (٢)

وزادت زيارات « البطريرك ديونيسيوس التلمبري » « التلمخري » Patriarch
 « Dionysius von Tellmahre » للخلفاء والمحكم ، وصلاته بهم ، من معارفه بتاريخ
 المسلمين وأحوالهم . وقد كان يحكم مركزه السامي في الكنيسة البقوية ، إذ كان
 (بطريركاً) لديهم ، على اتصال بكبار رجال الحكم ، ومضطراً الى الترحال والتجوال
 لتفقد أحوال رعيته ، فزار مصر حيث إتصل بحاكمها محمد بن طاهر في سنة « ٨٢٨ م » ،
 وزار بغداد فرأى الخليفة المعتصم في سنة (٨٣٥ م) ، وألف كتاباً في التاريخ الى أيامه ،
 وقد توفي في ٢٢ اغسطس من سنة ٨٤٥ م . ثم أكمل تأريخه الأسقف « يوحنا الداري »
 « Bishop Johannes von Dara » ووصله ، غير أن الزمان عبث به ، وتحكم فيه ،
 فلم يترك منه إلا بقية (٣) .

و « البطريرك » في تأريخه جرى على سنة غيره من المؤرخين النصارى بالنسبة
 الى تأريخ الاسلام . غير أن في تأريخه أموراً مفيدة جداً عن الأمويين والعباسيين

Bilderstreit. S. 16. f.

(١)

Der Islam. Bd. 23 . 1936 . S. 131.

(٢) راجع عن « ثيوفانس »

chronographia, Bd. I, S. 333. ff. (De Boor), Leipzig, 1883.

حضارة الاسلام (ص ٦٦) .

Geschichte der christlichen Litteraturen, S. 53. Rudolf Abramowski. (3)

Dionysius Von Tellmahre. Leipzig, 1940.

وأحوال الخلافة إلى أيام المعتصم ، وهي أيامه أيضاً . وقد تطرق إلى الفتوح الإسلامية وإلى اخراج الروم من بلاد الشام ، وإلى الفتن في أيام عثمان وعلي واختلاف علي ومعاوية ، وإلى فتح جزيرة قبرس والجزر الأخرى التي كانت في أيدي الروم . وأورد أموراً لا نجد لها في إتيواربخت الإسلامية ، وبعد هذه الأماكن عن مسامع المؤرخين المسلمين .

وقد عد مثل غيره من المؤرخين النصارى ، إنتصار المسلمين على الفرس ، بسبب إرادة الله وأمره ، انتقاماً من الفرس ، لخطرستهم ، ولإساءتهم معاملة رعييتهم النصارى وظلمهم لهم (١) .

وجاء في كلام لـ « يولوجيوس القرطبي Eulogius of Cordova » (٨٥٩ م) هذر في حق الرسول والاسلام ، وفي أسباب كراهية الاسلام للكلاب . ولم يبق من تأريخ « الياس بن شنجا Elias bar Schinja » (٩٧٥/٥٠٠ م) ، إلا بقية . وتنتهي حوادث هذا التأريخ سنة (١٠١٨-١٠١٩ م) . والمؤلف مناظرة جرت له في حضرة الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي في سنة ١٠٢٦ م (٢) . وتوجد مقتبسات من تأريخ « الياس » في تأريخ « يشوع أبكر » Jeshua Abger « من معاصري الياس المذكور .

وهناك تواريخ أخرى ، ولكنها متأخرة عن تواريخ من ذكرت . وقد اعتمدت في حوادثها عن صدر الاسلام والأمويين على المتقدمين ، ولهذا لم أجد في ذكرها إلا إطالة لهذا الفصل ، وإضاعة الوقت . فأجلت البحث فيها إلى المكان المناسب ، إلى تأريخ بني العباس أو من بعدهم ، حيث يكون لها مقام وموضع ، إلا إذا ورد في بعض منها ما فيه طرافة وجدة ورواية لم ترد لدى المتقدمين ، فأشير عندئذ إليه وأذكره في مكانه . ونهذا سيكون لتأريخ « ميخائيل الملطى » المتوفى سنة ٩٩٩ م ، وتأريخ ابن العبري المتوفى سنة ١٢٨٦ م وأمثال هذه ، مواضع أخرى .

فأنت ترى عما تقدم أن جل هذه المؤلفات وإن كتبت بلغة أعجمية ، قد ألقت في

Mingana, XI, 7, Dionysius, S. 48.

(1)

Christ., S. 56, Dionysius, S. 14, Fr. Baethgen, Fragmente Syrischer, (2) und Arabischer Historiker, Leipzig, 1884.

ولا يصح في نظري اتخاذ الحاضر مقياساً للماضي، ومراة صاقية له. فالحاضر مهما قيل في مشابهته وفي تماثلته للماضي، لن يكون صورة طبق الأصل له. ومن هنا يخطئ حكم من يحكم على الاسلام قياساً على حالة المسلمين ومظاهره في القرن العشرين. فبين الذي يزاوله المسلمون ويمارسونه في الزمن الحاضر، ما لا يتفق والاسلام الصرف الخالص في عهد الرسول، ويتعارض صراحة مع القرآن. وفيه ما لم يكن معروفاً ولا موجوداً في صدر الاسلام.

ومن رأيي أن يكون المؤرخ كالمصور، يحاول جهد إمكانه، وقدر طاقته وعلمه وصف الشيء الذي يريد أن يحكيه وبدونه وصفاً صادقاً مستمداً من منابع والموارد الأساسية، وأن يبذل أقصى ما لديه من جهد للوصول الى كنه الحادث الذي يبحث فيه، وأن يصل الى روحه وسييه بأن يجعل نفسه كأنه واحد من حضوره وشهوده ومن رجاله. وعندئذ يحكى ما وصل جده وادراكه اليه وما استنتجه له منه.

ويكون ذلك في تاريخ الاسلام بأن يفهم المؤرخ الحادث من منابعه ومجاريه، وأن يتقصاه ويفهم روحه من فهم الاسلام له، وأن يسعى جهد إمكانه للاحاطة بجميع أسبابه وما ورد عنه، وألا يكتفي برواية واحدة وبخير واحد، بل عليه أن يتقصى الأخبار، وأن يبحث عن كل شيء في الخبر يرى أنه سيوصله الى نتيجة أو الى خبر آخر أو أخبار أخرى، وأن يناقش ويفهم ظروف صاحب الخبر ومذهبه وهواه، والعصر الذي نشأ فيه، وإمكانية وقوع ذلك الخبر في مثل ذلك العهد. ثم يحكى ما حصل عليه على أنه لسان معبر عن الحادث لا مساهم فيه ومشارك أو خصم وصاحب رأي وفكرة. إستقرت في رأسه، فهو يريد أن يجد من الأسباب ما يؤيدها ويقويها ليقولها للناس.

ومن هنا نجد بعض المؤرخين والكتاب يرسمون القصد في أدمغتهم ويضعون الأهداف في رؤوسهم قبل الشروع في الكتابة. فإذا كتبوا عمدوا الى ما يروقه من خبر أو أخبار، وما يلائم قصدهم من رواية أو روايات، واستندوا اليه، وبنوا حكمهم على ذلك، وقالوا إن الاسلام كيت وكيت، وأن في صلبه هذه الفكرة، أو تلك، وإنه مع هذا المذهب وضد ذاك، وإنه تنبأ بهذا الرأي وقال به. وكلام كهذا مهما قيل في أغراضه وأهدافه وفي طريقة بحثه، هو في نظري توجيه ودعاية. يراد منه هدف خاص، لا بحث علمي غايته البحث في تاريخ الاسلام حسب.

وقد ظهرت في هذه الأيام عشرات من الكتب في تاريخ الاسلام ، حاول كل مؤلف من هؤلاء صبغ الاسلام بالصبغة التي يريد بها ويحملها ويعتقد بها ، مستشهداً بذلك بخبر أو بأخبار ، مفسراً إياها ، وشارحاً لها على وفق رغبته وهواه . والاسلام في نظري بعيد كل البعد عن هذه الآراء الغريبة . إنه يعالج الأمور والمشكلات بنظرته الخاصة الى الحياة . وقد التجأ أصحاب هذه الكتب الى الخبر الضعيف والأخبار المردودة في اثبات أن ذلك لما ورد في الموضوع الفلاني وفي الموضوع الفلاني ، والواجب في مثل هذه الأحوال الاحاطة بالخبر من جميع وجوه قبل الاستشهاد به . ومن هذا القبيل في نظري تفسير القرآن بالأهواء ، أعني ما يطلقون عليه « الطريقة العصرية » للموافقة بينه وبين العلم الحديث . لكن يأتي الشارح والمفسر أو المؤلف برأي أو بآراء من آراء العلماء « الفيزيائيين » أو « الكيميائيين » أو غيرهم ، ثم يأتي بأية أو حديث فيفسرهما تفسيراً موافقاً لآراء أولئك العلماء ، وهو في الواقع سخف وهراء ، يعرض الاسلام للنقد والجدل . وهذه الآراء العلمية مهما قيل فيها قابلية في كل وقت للتبدل والتغير ، ومعنى هذا أننا سنضطر تبعاً لذلك الى تغيير تفسير الآية أو الآيات وتبديلها على وفق ذلك . ثم إن القرآن كتاب إلهي ، نزل هادياً ونذيراً ، ولم ينزل ليعلم الناس الكيمياء والفيزياء والطب وما الى ذلك من علوم .

هذا ، ولا يزال المؤرخ يلاقي صعوبات جمة في أثناء تدوينه تاريخ الاسلام من ناحية الاستفادة من الموارد والاستعانة بها في تدوين هذا التاريخ ، فعلى المؤرخ أن يقرأ كتباً ضخمة مؤلفة من أجزاء عديدة طبعت طبعاً سقيماً في الغالب ، للعشور على مادة تفيده في تدوين ما يحتاج اليه ، وذلك لعدم وجود فهرس منظمة للكتاب تساعده في وصوله الى غايته ومراده بسهولة ويسر . وقد طبعت أكثر الكتب الأمهات وبإلأسف طبعاً سقيماً خالياً من التحقيق والضبوط والفهارس ، جملة أكثر المؤرخين يجمعون عن الاقدام عليها ، ويتمييزون قراءتها ، فأكثفوا بهذا المطبوع السهل المتداول ، والموارد التاريخية المعروفة ، وطريقة مثل هذه لا يمكن أن تأتي للفارسي بالطبع بشيء جديد . ثم إن أكثر المطبوع ما زال مادة خاماً ، لم تمسه أيدي النقاد ، ولم تتناوله أقلام النقلة المنعمين ، فهم ينتظر المتخصصين الثقات ليقوموا بفرملة هذا الكثير الوارد فيه .

وقد عاش كثير من ذكّرت من المؤرخين للنصارى ومن رجال دينهم في بيأة إسلامية . أو بيأة كانت فيها جماعة من المسلمين ، وكان في إمكانهم الرجوع الى المسلمين للاستفسار منهم عن الاسلام وعن سيرة الرسول ، ولكنهم لم يفعلوا في الغالب إما عمداً وإما جهلاً ، وقد اعترف بعضهم بسداجة علمهم بالاسلام ، وبعدم وقوفهم على موارد دقيقة عنه ، إلا أنهم لم يحاولوا مع ذلك تصحيح علمهم وتحقيق تلك المعارف التي أخذوها من الموارد النصرانية عن الاسلام (١) .

ولم يكن من الممكن في ذلك العهد وفي بيأة كذلك البيأة قيام رجل بتأليف علمي صحيح عن الاسلام ، أو تصحيح أغلاط الكتاب النصارى ومفترياتهم عنه ، إذ كان مثل هذا العمل بمثابة دفاع عن الاسلام وتحد للكنيسة ، ومعارضة صريحة لسياسة الحكومات ، وهو عمل يعاقب عليه الانسان عقاباً صارماً ، عقاب من يتهم بمحاولة تحدي الحكومات أو احداث انقلاب ثوري في نظام حكم دكتاتوري . ثم إن هذا العمل هو ضد الايمان ، ومعظم الكتاب بحكم معيشتهم في مجتمع للكنيسة عليه سلطان ونفوذ ، وبحكم نفوذ الايمان المسيطر عليهم ، مضطرون الى مجازاة الوضع . والى مداراة السلطات ، وإلا عرضوا حياتهم للخطر ، ثم أن بعضهم كانوا يرون في تنفيذ الاسلام والافتراء عليه وأخذ كل ما يقال عنه من سوء ثواباً يشاب الانسان عليه ، وأجراً يتقربون به الى الله ، يرفعهم الى السماء ، وتقديراً عظيماً ينالهم من الكنيسة والمجتمع ، يضعهم في مصاف الممتازين الموهوبين وعباقره الكتاب والعلماء .

هذا ، ولا بد لي هنا من وجوب التنبيه على ضرورة مناقشة الحوادث التاريخية وسيرة الرسول في ضوء القرآن . ومعنى هذا وجوب الرجوع الى كتب التفسير وكتب أسباب النزول في ضبط الحوادث الواردة في كتب السير والتاريخ . ونحن ان فعلنا ذلك ، فانتا سنصون انفسنا كثيراً ولاشك من الوقوع في مغالط تسربت الى أصحاب السير وكتب التاريخ من جراء رواياتهم كل ما قيل من روايات وأخبار ، وتدوينهم له دون مناقشة وتطبيق ومقارنة ، بما ذكره علماء التفسير أو الحديث وما أوردهم . وغيرهم من أسباب وأخبار في نزول أي القرآن الكريم . ولهذا لا بد لنا من أن نرجع

اليوم الى هذه الموارد لسد الثلم وتلافي الأخطاء الواقعة في المراجع الأخرى ، ليكون بحثنا في هذا التاريخ قريباً من الواقع بقدر الاستطاعة .

وبعد ، فإن طريقي في هذا الكتاب هي طريقي نفسي نفسي التي اتبعتها في تاريخ العرب قبل الاسلام : رسم الماضي كما رسخ في ذهني ، واستقر في فهمي ، وثبت في فكري ، مع تقريب وتوضيح له جهد الامكان من غير زيادة عليه أو نقصان منه . وتجنب شديد من ابداء الآراء الشخصية أو اعطاء الاحكام فالتاريخ في رأيي رسم الماضي وتشخيصه وعرضه من غير تحيز أو تعصب ، أو ابداء رأي وحكم ، تاركاً أمر الاحكام الى القراء ، يكتنون آراءهم كما يرون ويشتهون ، وعلى النحو الذي توصل اليه اجتهادهم من قراءتهم للموضوع .

فأما في هذا الكتاب مصور حسب ، أحاول تقديم صورة صافية نقية لتاريخ الاسلام . لا أريد إدخال شيء غريب عليها ، ولا أريد انتقاص شيء منها . ثم إن هذه الصورة التي أريد عرضها للناس ، هي صورة الاسلام في أيامه الأولى ، في أيام الرسول ، أي في أيام صفاته ونقائه . وقبل دخول مواد زائدة عليه ، كدورت صفاءه . وجعلت فيه ما ليس منه .

واكرر شيء عندي أن ينصب المؤرخ نفسه قاضياً يقضي في الحوادث الماضية : يعطي الأحكام ، ويبت فيها ويقول كلمته في الماضين ، وهو يعلم أن التاريخ لا يستند الى بديهيات مسلم بها ، ولا الى أرقام لا يمكن أن يجادل عليها . وأن الحادث يقع في الحاضر ثم نرى الناس مذاهب في تفسيره وفي وصفه وقصه . فإذا كان هذا شأن الحاضر ، فكيف يكون شأن الماضين إذن ؟

ومن هذا القبيل قياس الماضي على الحاضر ، والحكم على الماضي بناء عليه ، ونقد الماضي وما أخذته وفقاً لمقاييس القرن العشرين ومفاهيمه . أو القرن الذي يكون فيه الناقد . وقد قرأنا أحكاماً عديدة من هذا القبيل صدرت في أمور من تاريخ الاسلام ، تدل على أن أصحابها حكموا بدون فقه لروح الزمن الذي وقع فيه الحادث ، وافتوا دون علم بالاسباب الموجبة وبأحوال الزمن يومئذ ، فكانوا في أحكامهم جد مخطئين .

وتصنيف هذه المادة الغزيرة المكونة له . وإذا تم هذا العمل ، سهل على المؤرخ عندئذ عمله ، وصار في إمكانه الاعتماد على المراجع بثقة واطمئنان . ومن تكوين رأي يطمأن إليه ويوثق به .

وما يرد في الكتب التاريخية هو في حكم الحقائق في نظر بعض الناس ، في حكم الأعداد مثلاً في الرياضيات . فكما أن الأعداد هي حقيقة مسلم بها ، كذلك الروايات والأخبار هي حقائق لا يرتقي اليها الشك ولا سيما إذا ما أدهمت بسند الرجحان ، وكانت مما ورد في الكتب المعتمدة المشهورة . وخبر واحد من هذه الأخبار يكون سنداً لدى هؤلاء يبنون حكماً عليه . ومثل هؤلاء وإن لم يكونوا من المؤرخين بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من التاريخ هم كبة على كل حال ومن الكتّاب في التاريخ والقارئ له . أحكامهم مستمدة من العاطفة ، بعيدة عن العلم والعقل . إنهم يقدمون الرواية على الدراية ، والحفظ على المناقشة بالمنطق . ومثل هؤلاء لعمري لا يتأقنون ولا يجادلون . ويلاحظ أن الموارد المتأخرة قد جاءت بأخبار لم ترد في الموارد القديمة . أضافتها إلى ما أخذته من الموارد المتقدمة . وفي أغلب الذي أضافته إغراب وقصص من هذا النوع الذي يسميه العلماء بالاسرائيليات . أو بالقصص الاسرائيلي ، حشر وحشراً ، وروي عن نية طيبة من أولئك الكتاب ، وهو بين واضح يمكن معرفته وكشفه . قراءته لعدم ملائمة طبعه مع روح الاسلام وأحكام القرآن وما ورد فيه عن الرسول . وفي أغلب الروايات التي يتصل سندها بكتب الأخبار ، أو محمد بن كعب القرظي أو النعمان السبائي وهم من مسلمة يهود (١) أو غيرهم من مسلمة أهل الكتاب طابع القصص الاسرائيلي . وفي أغلبه دس على الرسول وعلى الاسلام كما في قصة العرائق وفي أمور أخرى سأحدث عنها في الأماكن المناسبة من هذا الكتاب . ويظهر من دراسة هذا النوع من القصص أن أصحابه كانوا يريدون من روايته ونشره وادخاله بين المسلمين أمراً ، وإن قلوبهم لم تكن مسلمة كآلتهم ، وإنهم كذبوا على التوراة والانجيل أحياناً وذلك على سبيل التودد إلى المسلمين والتقرب اليهم على ما يبدو .

وقد ربط ووصل سند أكثر القصص الاسرائيلي بأبن عباس . وهذا الربط يجب

(١) السيرة الحلبية ، ٢٥٠/١٥ .

أن يكون موضع دراسة خاصة. فما الذي ربط بين هذا القصص وأبن عباس؟ وهل كان ابن عباس راوية حقاً لهذا القصص الاسرائيلي؟ ومن أين جاء به؟ وهل كان ابن عباس من القارئين للعبرانية والسريانية ولكتب اليهود والنصارى؟ والغريب أننا نجد في معظم الأحيان أن رواة هذا القصص الذين ذكروا أنهم سمعوه من فم ابن عباس، وأنهم أخذوه منه، هم من مسلمة يهود، فهل يعقل أخذ هؤلاء قصصهم من ابن عباس؟ إن المعقول أن يكون العكس هو الصحيح. وأنا لا أريد أن أعالج هنا هذه الناحية من البحث. فالمعالجة هنا معناها الخروج عن الموضوع، والدخول في بحث آخر متشعب طويل علاقة له بهذا الكتاب في هذا المكان. ولكني سأحدث على كل حال عن هذه المشكلة في أثناء كلامي على القصص الاسرائيلي وعلى ابن عباس.

ويلاحظ أن معظم هذا القصص المتقدم هو مما يرد في الكتب المتأخرة، أما الكتب الواصلة إلينا من أول عهد المسلمين بالتدوين، فقد كانت تتحاشاه في الغالب، ولا تميل إليه، ولا إلى الخوارق والمعجز. وهو قصص يخالف لما جاء في القرآن الكريم عن الرسول ولحديث الرسول وألروح الاسلام. ولهذا وجب أن يكون اعتماد المؤرخ على هذه الموارد المتقدمة المحترمة في نظر النقاد من أمثال كتب الصحاح في الحديث وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري. وسندنا الأول بالطبع ومرشدنا قبل كل هذه هو القرآن.

قال الامام مالك عن محمد بن اسحاق صاحب السيرة الشهير: « هذا دجال من الدجاجلة، يروي عن اليهود ». وقد قدح فيه مالك، لأنه كان ينكر عليه تتبعه غزوات النبي من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خير وقريظة والنضير وما أشبه ذلك من الغرائب عن أسلافهم. وكان ابن اسحاق يتبع ذلك عنهم، ليعلم ذلك من غير أن يحتج بهم. وكان مالك لا يرى الرواية إلا عن متقن صدوق (١). وإذا كان مالك وأمثاله قد أخذوا ابن اسحاق على أخذه أخبار غزوات النبي لخير وقريظة، فماذا يجب أن يكون موقف المؤرخ من هذا القصص الاسرائيلي البحث الذي أدخله في السيرة أناس قضوا معظم حياتهم أو بعض حياتهم وهم على دين يهود؟

(١) عيون الاثر (١٧/١) .

وعلى المؤرخ اجمالاً أن يكون حذراً جداً تجاه هذا القصص الاسرائيلي خاصة ،
وتجاه الأخبار المتأخرة التي لا نجد لها أثراً في الموارد القديمة . فلا يرد معينا إلا بحذر ،
والأبعد فحص وتدقيق ونقد . وعليه أن يلاحظ دائماً أن المؤرخين والأخباريين
المتأخرين ، لم يكونوا على شاكلة قدماء المؤرخين وأوائلهم في التشدد في قبول الأخبار
وروايتها وادخالها في مؤلفاتهم . وعلى المؤرخ أن يكون يقظاً نشطاً متوقفاً الدهن . فلا
يقبل من الأخبار والروايات إلا ما يتلاءم مع روح القرآن الكريم وأحاديث الرسول
وما هو من أمر الاسلام من نبذ الأساطير والقصص والخرافات . فإذا فعل ذلك جنب
نفسه الأغاليط والمزائق التي وقع فيها نفر من المستشرقين ومن المؤرخين الاسلاميين من
قبلهم يقبولهم كل خبر سمعوه من غير نقد ولا فحص وتمحيص .

وستزعج هذه الطريقة خلقاً من الناس ، لم يتعودوا فهم السيرة النبوية إلا من
التفسير الاسرائيلي والسير المحشوة بالقصص والخوارق ، حتى غلب عندهم على التاريخ .
وليس لهؤلاء من جواب إلا احالتهم على القرآن الكريم . ففيه جوابهم . ولو كانت
رسالة الرسول قصصاً وخوارق على نمط قصص بني اسرائيل . لجاء ذلك في كتاب الله .
وقد نزل الوحي بتأنيب قريش حينما ألحوا على الرسول واسرفوا في إلحاحهم بسطالته
بالمعجزات ، على نمط يهود وبوحي وتعليم من يهود . وأنب اليهود والنصارى لاضفافهم
إلى أنبيائهم أشياء لا تصح نسبتها في دين الاسلام إلا إلى الله .

وبعد ، فأنا لا أريد أن أطيل على القارىء فأجره إلى حديث طويل عن كيفية
كتابة السيرة وعن موارد وأمثال ذلك . لأن ذلك يخرجنا عن صلب الموضوع ،
وسيدفعنا إلى الدخول في صلب عمل المؤرخ في طريقة تدوينه للتاريخ ، وهو خارج
نطاق عملنا وواجبنا في هذا الكتاب . ولهذا أتقل إلى السيرة رأساً . فأبحث فيها فصلاً
فصلاً ، وسأعرض في أثناء ذلك حتماً لكثير من الأمور التي أشرت إليها إشارة موجزة في
هذا الفصل .

الفصل الثاني

مكة المكرمة

لا بد لنا لفهم سيرة الرسول وتأريخ الاسلام من التحدث عن مكة ، ومن التعرض لأحوال سكانها وحالة الناس فيها في ذلك الزمن : زمن ميلاد الرسول ، وإلا كان بحثنا بحثاً ناقصاً عاجزاً عن تفسير كثير من الأمور التي نجدها في الاسلام .

ولسنا نملك مرجعاً نرجع اليه للوقوف على أحوال مكة في هذا العهد الا القرآن الكريم والحديث وكتب التفسير والسير . أما موارد كتابية ونصوص مدونة من أيام الرسول ، فلم يصل منها إلينا شيء حتى الآن . وأما ما قبل ذلك ، فلم يرد فيها عن مكة شيء . لم يرد منها أي شيء عثر عليه في الحجاز ولم يرد عنها أي خبر في المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى . ولهذا لا نعرف من شأن مكة شيئاً ورد في نصوص مكتوبة في أيام الجاهليين .

أما اليونان واللاتين والسريريان وغيرهم ، فلم يشيروا الى اسم موضع اسمه قريب من اسم مكة ، الا « بطلميوس Ptolemy » ، وهو من علماء الفلك والجغرافيا في القرن الثاني للميلاد . فقد أشار ، الى اسم مدينة دعاها « Macorba » ذكرها بعد موضع دعاها « Carna » وهو مكان ذكره بعد « Eathrippa » « Eathrippa » وقبل موضع « Thumata » . وقد ذهب الباحثون في أسماء هذه المواضع الى أن مراد « بطلميوس » من « Macoraba » مدينة (مكة) . كما شرحت ذلك مفصلاً في الفصل

السادس من الجزء الثالث من كتابي (تاريخ العرب قبل الاسلام) في الكلام على العرب وبطلميوس . (١)

أما ما ذهب اليه بعض الباحثين من أن المعبد الشهير الذي ذكره « ديودورس الصقلي » « Diodorus » ، في أرض قبيلة عربية دعاها « Bizomeni » (٢) وقال إنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكة (٣) ، فهو رأى لا يستند الى دليل مقبول معقول . فالوضع الذي يقع المعبد فيه هو موضع بعيد عن مكة بعداً كبيراً ، وهو يقع في « حسمى » في المكان المسمى « رواق » و « غواق » على رأي « موسل » (٤) . وقد كانت في هذه المنطقة وفي المحلات المجاورة لها معابد أخرى كثيرة أشار اليها الكتبة اليونان والرومان ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد وصفها السياح الذين زاروا هذه الأماكن والباق (٥) .

وإذا صح رأينا في أن موضع (Macoraba) هو مكة ، دل ذلك على أنها كانت قد اشتهرت بين العرب في القرن الثاني بعد الميلاد ، وأنها كانت مدينه مقدسه يقصدها الناس من مواضع بعيدة من حضر ومن بادين . وبفضل هذه القدسية والمكأة بلسغ اسمها مسامع هذا العالم الجغرافي اليوناني البعيد . ودل أيضاً على أنها كانت موجودة ومعروفة قبل أيام (بطلميوس) إذ لا يعقل أن يلمع اسمها وتنال هذه الشهرة بصورة مفاجئة بلغت مسامع العالم الساكن في موضع بعيد ، ما لم يكن لها عهد سابق لهذا العهد . ولقظة (مكربة Macoraba) ، لقظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني ، أصلها (مكربة) أي (مقربة) من التقريب . وقد رأينا في أثناء كلامنا على حكومة سبأ القديمة ، أن حكامها كانوا كهاناً ، أي رجال دين ، حكموا الناس باسم آلهتهم . وقد كان الواحد منهم يلقب نفسه بـ (مكرب) أي (مقرب) في لهجتنا . فهو أقرب الناس الى الآلهة ، وهو مقرب الناس الى آلهتهم وهو مقدس لنطقه (١) ص ٣٥٣ وما بعدها .

C. H. oldfather, Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, Book III, 2° XXXI, Booth, The Historical Library of Diodorus the sicilian, P. 105, Gerald de Gury, Rulers of Mecca, London, 1951, P. 12.

«٤» تاريخ العرب قبل الاسلام «٣/٣٥٣»

«٥» المصدر نفسه

باسم الآلهة ، وفي هذا المعنى جاء لفظ (مكربة) ، لأنها مقربة من الآلهة ، وهي تقرب
الناس اليهم ، وهي أيضاً مقدسة و (حرام) ، فاللفظة ليست علماً لمكة ، وإنما هي نعت
لها ، كما في (بيت المقدس) و (القدس) اذ هي نعت لها في الأصل . ثم صارت علماً
للمدينة عندنا .

ونحن لا يعني هنا من تاريخ مكة إلا ما كان له صلة بتاريخ الاسلام وباليام التي
واد فيها الرسول . ، أما ما قبل ذلك فليس له شأن في هذا المكان ولهذا سنطوي
الحديث عنه أسفين ولن يريد العلم به أن يرجع الى الكتب الأخرى ، فقد تكون فيها
فائدة المستزيد .

وقد ورد اسم مكة في القرآن الكريم . ورد بالصورة التي نعرفها (١) وورد
بصورة أخرى لا تختلف عن الأولى إلا في حرف واحد . هو الميم . وهو الحرف الأول
من الاسم ، فحلت الباء في هذه التسمية محل الميم المثبتة في التسمية الأولى ، فوردت
(بكّة) في موضع مكة (٢) وهما في الواقع تسمية واحدة ، وليس هذا الاختلاف
اختلافاً بالمعنى المفهوم ، وإنما هو لهجة من لهجات القبائل ، تضع الباء في مكان الميم ،
فتنطق بالباء بدلاً من الميم . وفي لهجات العرب أمثلة عديدة من هذا القبيل ، وبينها
لهجات العرب الجنوبيين . وهي لهجات نعرفها في الزمن الحاضر ، ونجدها في مختلف
الأماكن من الوطن العربي .

وقد دُعيت مكة بـ (أم القرى) في القرآن الكريم (٣) ودُعيت (قرية)
كذلك « ٤ » . ووردت بها (الطائف) في سورة الزخرف : (وقالوا اولا نزل هذا
القرآن على رجل من القريتين عظيم) « ٥ » ، وقد ذهب علماء التفسير الى أن المراد
بالقريتين : مكة والطائف .

« ١ » الفتح : ٢٤ .

« ٢ » آل عمران ٩٦ ، ثوان بن سعيد الحميري ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من
الكلام « لندن ١٩٥١ » ، الجزء الاول القسم الاول « ص ١١٧ »

« ٣ » الشورى الآية ٧ .

« ٤ » سورة حمد الآية ١٣ .

« ٥ » الزخرف الآية ٣١ .

وقد كان أهل مكة عند ظهور الاسلام يرجعون نسبهم إلى قريش . ومعنى هذا أن غالبية أهلها كانت على هذا النسب حين تنتسب ، جرياً على عرف الناس في ذلك العهد في رجوع نسبهم إلى جد أعلى يفتخرون ويتباهون به . يتساوي في ذلك أهل الوبر وأهل المدر . فأمر مكة إذن في أيدي قريش في القرن السادس للميلاد ، أخذته من جماعة كانت هي المسيطرة عليها قبلها تدعى « خزاعة » ، والذي مكن قريشاً من خزاعة وسلمها مكة ، هو زعيم من زعمائها عرف بالكياسة والسياسة والحذر ، هو « قصي » . وكان قصي زعيماً وتاجراً . جمع مالا كثيراً ، وولى عنايته « البيت الحرام » وثبت حكم قريش في المدينة حتى صار لقومه نفوذ على سائر القبائل ، فقصي هو إذن هو أول من أقام ملك قريش في مكة .

وإذا صح نقل « مينكانا A. Mingana » ما ذكره اللاهوتي السرياني « نرسي Narsai » المتوفي سنة ٤٨٥ الميلاد ، عن غزو قام به « أبناء هاجر » على بيت عربية ، فإن ذلك يكون أول خبر يرد في كتابي قديم عن (قريش) ، ولذلك أهمية تاريخية خاصة ، لأنه يشير إلى وجود قريش في شمال جزيرة العرب في القرن الخامس قبل الميلاد داخله ضمن القبائل العربية الشمالية المعروفة يومئذ عند السريان باسم (أبناء هاجر) وبـ (الاشماعيلين) . وهذا خبر لم نكن نعرفه من قبل . ذكر نرسي أن هذا الغزو كان عنيفاً قاسياً ، وأنه كان في شدته وهوله أقسى من فتك الحيوانات الضارية بالإنسان . وقد ترك ألماً شديداً وخسائر كبيرة في أهل تلك المنطقة . وذكر أن أشد أولئك المهاجمين الهاجرين في القسوة والغلظة هم ، قريش (١) .

وهذه الإشارة تتفق مع روايات الأخباريين وأهل الانساب من ارجاع نسب قريش إلى اسماعيل . وهي تدل على أن قريشاً كانوا بدواً رحلاً في القرن الخامس للميلاد ، وأنهم كانوا يعيشون في بادية الشام مع قبائل أخرى تنتقل في البادية الفسيحة الواسعة بين حدود الروم والساسانيين .

وقد يفيد هذا الخبر في الربط بين تحرك قريش وتنقلها في البادية في هذا العهد

A. Mingana and A. S. Lewis, *Leaves from three Ancient Qurans*, 4th Cambridge, 1914, P. XIII. A. Mingana, *Narsai Homilies et Carmina* 1905, Vol. I, PP. 115.

وبين سكنها واستقرارها فيما بعد في مكة ، وأخذها السلطة من خزاعة في أيام سيدها ورئيسها (قصي) .

وإذا صح ما قاله أهل الأخبار عن خزاعة وقصي وعن استئثار قريش بمكة ، فإن ذلك يعني أن قصياً لم يكن بعيد عهد عن الاسلام ، وأن قريشاً أثرت وربحت وترعمت في وقت لم يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول ، وأن قصياً كان أبرز وأول زعيم فيها ، ولم يذكر الأخباريون زعيماً من قريش قام بمثل الأعمال التي نسبوها إلى قصي .

وقصي من الأسماء الواردة في الكتابات العربية الشمالية . وقد ورد في بعض الكتابات أن كاهناً اسمه : (ملكو بن قصيو) (مالك بن قصي) أقام معبداً في منطقة (حوران) ، وذلك في سنة (٤٧) للميلاد . وورد اسم (روحو بن قصيو) (روح بن قصي) ، وقد أقام معبداً لعبادة (اللات) في (صلخد) كما ورد في بعض الكتابات الصفوية (١) .

والطريف أن قصياً المذكور في هذه النصوص النبطية ، وكذلك أبنائه وحفدته ، كانوا رجال دين مثل قصي قريش . فكانوا سدنة (للات) ، أقاموا لها معبداً ؛ وشيدوا لها بيتاً . واللات من الآلهة العربية الشمالية ، وقد عرفت عبادتها في أعالي الحجاز وبين عرب بلاد الشام منذ عهد طويل قبل الاسلام . ولعلها زحفت من هذه المنطقة إلى الجنوب ، فدخلت أواسط الحجاز وجنوبها حتى صارت من أهم الأصنام المعبودة في مكة وفي الطائف قبل ظهور الاسلام .

وورد في نص شمالي آخر اسم رجل يقال له (قصي تمجلت) (تمجلة) بن كهمت (فعمه) بن ربو بن اودو بن رديف بن نظرو بن عبدو) وذلك لاقامته قيراً لزوجته وحبيبتها رحيلت (رحيلة) في سنة ٣٠٨ من التقويم النبطي (٢) . وورد اسم رجل آخر يقال له (قصي بن سودي) في نص آخر من النصوص النبطية (٣) . ويلاحظ أيضاً أن أسماء أهل مكة والحجاز هي أسماء ترد بكثرة في النصوص

«١» العرب في سورية قبل الاسلام ؛ تأليف رتيه ديوس ١١٥ وما بعدها ؛

Cis, II, 170, 171, 182, Eney, II, P. 1159

Rep. Epi., IV, P. 181, Num. 805, Littmann, Semiti. Inscr.,

P. 90, Lidzbarski, Ephem., II, 258.

Rep. Epi., IV, P. 55, Num. 2117.

العربية الشمالية : النبطية ، والشمودية ، والصفوية ، والمحانية . أما النصوص العربية الجنوبية ، ولا سيما النصوص القديمة منها ، فهي قليلة الوجود فيها . فعبدالله وعبد مناف وعبد اللات وقصي وهاشم وكتب وعمر وأمثالها ، هي من الأسماء التي ترد في النصوص العربية الشمالية ، بينما لا نكاد نجد لها أثراً في نصوص المسند . وعدم ورودها بكثرة في هذه الكتابات ، يحملنا أيضاً على تأييد رأينا في هذا الاتصال الثقافي الذي جمع شمل أهل الحجاز بالعرب الشماليين .

وقد وردت لفظة (قريش) اسماً لرجل عرف بـ (حبسل قريش) . وذلك في نص حضرمي من أيام الملك (العز) ملك حضرموت (١) .

ويلاحظ أن أسماء معظم الأصنام التي كانت في مكة وفي الطائف وأماكن أخرى من الحجاز عند ظهور الاسلام ، هي أسماء أصنام معروفة معبودة قبل الاسلام . بل قبل الميلاد عند العرب الشماليين ، أي العرب الساكنين في العراق وبادية الشام وأعلى نجد وبلاد الشام . وفي هذا التوافق دلالة صريحة على الرابطة الروحية بين عرب الحجاز وعرب بلاد الشام والعراق . وعلى أن صلة أهل الحجاز بالعرب الشماليين كانت أقوى وأمتن منها بالعرب الجنوبيين الذين كانت لهم ثقافة خاصة بهم ، ولا سيما في الأيام البعيدة عن الاسلام ، ميزتهم عن العرب الشماليين وعن عرب نجد والحجاز .

ولم يكن قصي رجل سياسة وزعامة حسب ، بل كان رجل دين كذلك ، ينسب إليه أهل الأخبار جملة أشياء زعموا أنه شرعها لقريش ، فاتبعها ، وصارت من سنن أهل مكة ومذاهبها في الدين (٢) . وقد سبق « قصياً » جملة رؤساء جمعوا مثله بين سياسة الدين وسياسة الدنيا ، وكانت لهم بذلك زعامتان . وقد ذكر أهل الأخبار لبعضهم أثراً في الوثنية ، باستحداثهم أصناماً جديدة ابتدعوها أو جابوها من الخارج من أسواق بلاد الشام خاصة . لوجود التماثيل الجميلة المصنوعة من المرمر فيها ، بعضها من صنع تلك البلاد ، وبعض آخر مستورد من بلاد الروم أو من إيطاليا . وقد كان رؤساء مكة يذهبون الى بلاد الشام للتجارة أو الاستجمام فتقع أعينهم على هذه التحف ، فيجابون منها الى مكة ، يضعونها في البيت ، ويزيدون بذلك في عدد الأصنام ، حتى بلغت (٣٦٠) صنماً عند البعثة على ما يذكره أهل الأخبار .

Rep. Epist. VII, III, P. 323, Number 4693.

« ٢ » « وكان أمر قصي عند قريش ديناً يعملون به ولا يخالفونه . ولما مات دفن بالحبون . فكانوا يزورون قبره ويعظمونه » . البلاذري « ٥٢/١ » .

وقصي في تأريخ مكة ، مثل « تيزيه Thesee » ، أو « رومولوس » وأضرابهما من أثروا تأثيراً خطيراً في حياة بعض المدن القديمة ، فارتبطت أسماءهم بأسماء تلك المدن ، واحتلت قصصهم مكاناً بارزاً في الاساطير المروية عنها (١) . ومن يقرأ أخبار مكة ، ير أن اسم قصي قد غطى أسماء من سبقوه ، حتى ليكاد تأريخ هذه المدينة القديمة التي سبقت قصياً في الوجود ، يتبدى به .

وقد شك بعض المستشرقين في شخصية قصي ، فذهبوا الى أنها أسطورة من الأساطير التي ابتدعتها مخيلة أهل الأخبار وأساطير أهل الأخبار في نظرهم كثيرة عديدة . ولكننا لو دققنا ما روي عنه وقيل فيه ، لوجدنا أنه لا يدعو الى الذهاب هذا المذهب ، فليس فيه تهويل كثير ولا مبالغاة بعيدة ، فكل ما ورد عنه وان جاء بأسلوب أهل الأخبار يدل على أن قصياً كان رجلاً حقاً ، سيطر على شؤون مدينته ، وأوجد لقريش عشيرته كياناً في مكة وفي جوار مكة ، في زمن لم يكن بعيداً عهد عن الاسلام ، ولذلك بقي من ذكره ما علق بذكرة المعاصرين للرسول ، وقد نسي منه شيء ، وذلك حينما بانغ أهل الأخبار ، الذين قاموا بتسجيله حتى وصل اليها بهذا الشكل المدون المكتوب .

ونجد في تأريخ مكة وفي تأريخ غير مكة أسماء رجال أقوياء أصحاب شخصيات قوية مثل قصي ، فرضت ارادتها على الناس فرضاً ، وقامت باعمال مفيدة ، اقتبست بعضها من النظم القائمة في الانباطورية الرومية ، وفي انباطورية الساسانيين . ولكنها لم تنظر ويا للأسف الى الأمور نظرة واسعة شاملة تتجاوز حدود القبيلة وحدود العواطف والمنافع الشخصية ، ولم تكن مبنية على دراسة طبيعة المشكلات وعواملها الأساسية ، وأسسها البعيدة القديمة ، ولم تكن مقرونة بعزم وارادة وفكرة جماعية عامة تنظر الى عرب الجزيرة كلها على أنهم أمة واحدة تجمعهم رابطة الجنس والوطن واللغة ، ولهذا كان تأثيرها في الغالب وقتياً ومحلياً ، ولم نسمع بأمر قام به رجل من أولئك ، ونجح فيه كالأمر الذي قام به الرسول .

وتقع مكة في واد ضيق غير ذي زرع (٢) . وموقعها هذا لا يستهوي الأفتدة

(١) هنري ماسيه ، الاسلام ، ترجمة بهيج شعيان « ص ٤١ » .

(٢) « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » ، سورة ابراهيم :

الآية ٣٧ .

اليه ولا شك ، فسفوح الجبال المشرقة المطلة عليها عابسة لا خضرة فيها ولا تلوج ولا أشجار عالية تكال هاماتها ، وليس فيها شلالات هادرة تتساقط من صخورها ، وكل ما فيها يدل على شدة وشظف وقسوة . ولوقوعها في واد ، ارتفعت حرارتها في الصيف ارتفاعاً يضايق من لم يعتده ، ولم يجلب الناس اليها إلا نشاط أهلها ، نشاط قصي وعبد المطلب من بعده في خدمة « الكعبة » والبيت الحرام ، وفي خدمة من يقصد هذا البيت الذي ضم عدداً كبيراً من الأصنام . يكاد يجمع شمل أصنام أكثر القبائل يومئذ ، حتى صار البيت « بانثيونا » أو متحفاً أو مخزناً تكدست فيه الأوثان من مختلف الأحجام والمواد ، فيها المذهب المهندم المنسق ، وفيها الوثن البدائي ، وفيها الصور المستوردة من الخارج المصنوعة في بلاد الشام من أصل نصراني يمثل القديسين والأولياء والأنبياء والملائكة ، فتحولت في مكة إلى أوثان معبودة اختص كل واحد منها أو كل مجموعة بقبيلة ، إذا جاء أفرادها إلى مكة توجهوا إليها لتحتيتها ولمناجاتها ، ولاكتساب عطفها ورحمتها . ولتكون لها شفعاء عند الله .

وقد كان عدد أصنام مكة عام الفتح ثلاث مئة وستين صنماً وضعت حول الكعبة مرصصة بالرصاص ، وهبل أعظمها ، وهو وجه الكعبة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون . عدا الصور العديدة الكثيرة والتمائيل التي كانت ترين بيت الله الحرام . وقد أزيلت الأصنام ومحيت الصور بأمر الرسول في هذا العام (١) .

ولم تع ذاكرة أهل الأخبار شيئاً من تاريخ الوثنية في مكة على وجه صحيح مضبوط . وقد نسب بعضهم ادخال الأوثان وتغيير دين اسماعيل إلى رجل زعموا أنه « ربيعة » ، وهو عمرو بن لحي أبو خزاعة ، قالوا إنه أول من غير دين اسماعيل ، ونصب هبل في الكعبة ، ودعا العرب إلى عبادة الأصنام . وسبب السائبة ، وبحر البجيرة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي (٢) . ونسب الأخباريون ذلك إلى أشخاص آخرين ، ولم يستمد الأخباريون أخبارهم هذه من أثر قديم جاهلي مكتوب أو من أثر تاريخي مدون ، وإنما أكثر أخبارهم روايات بنيت على السماع والمشافهات .

(١) امتاع الأصنام (٣٨٣/١ وما بعدها) ، جامع الاصول (٢٦٦/٩) .
 (٢) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق هرشفيلد ، (١٩١٠) ، (ص ١١) ،
 أخبار مكة (ص ٧٢ ، ٤٠٢) « تحقيق واستفاد » .

ولا نجد - وبالأسف - في كتب أهل الأخبار وصفاً دقيقاً واضحاً صحيحاً للبيت الحرام في أيام الجاهلين ، بل حتى في أيام الرسول . وخلاصة ما يستخرج منها أن أول من جدد بناء الكعبة بعد إبراهيم هو (قصي) ، وأنه سقفها بخشب الدوم وجريد النخل (١) ، وأن الكعبة كانت الى عهد قصي قائمة في فلاة ، لا يبنى أحد حولها إعظاماً لها . فلما آل اليه أمر مكة ، اختط ساحة حولها عندها حرماً آمناً ، علم معالمها ، ووضع رواسمها وحدودها ، وأباح للناس البناء وراء تلك الحدود ومن ثم انتشر البناء الى هذه المواضع (٢) .

وفي وصف هذه الكتب لبيت الله الحرام قبيل الاسلام ، وفي أيام الرسول غموض واضطراب أيضاً . وخلاصة ما جاء فيها ، أن ببناء الكعبة قبل أن بنتها قريش كان يرضم يابس ليس بمدر تنزوه العناق ، وتوضع الكسوة على الجدر ، ثم تدلى من خارج ، وتربط من أعلى الجدر من بطنها . وكان بابها بالأرض ، ولم يكن لها سقف . وكان في بطنها عن يمين من دخلها جب ، يكون فيه ما يهدى الى الكعبة من مال وحلية ، كهيئة الخزانة . وكانوا قد علقوا قرني كبش في بطنها بالجدر تلقاء من يدخلها . يخلقان وبطيان . اذا طيب البيت . وكان فيها معاليق من حلية كانت تهدي الى الكعبة ، أمثال لجم البهم ، يدخل الخائف فيها يده ، فلا يريبه أحد . وقد أصيبت الكسوة بحريق ، فتضعض البنيان ، ثم تأثر بسيل أضر به ، فهدمته قريش وأعادت بناءه في أيام الرسول . وقد استعملت الحجارة والخشب فيه ، وسقفوه ، ورفعوا الباب ، وكبسوها حتى لاتدخلها السيول ، ولا ترقى إلا سلم ، وبنوها بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة كما تذكر بعض الموارد ، وجعلوا سقف الكعبة مسطحاً وجعلوا فيها ست دعائم في صفين ، في كل صف ثلاث دعائم . وزادت قريش في ارتفاعها فجعلته ثمان عشرة ذراعاً من خارجها من الأرض الى أعلاه ، وكانت قبل ذلك تسع أذرع . وبنوها من أعلاها الى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب . وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً ، والحجارة ستة عشر مدماكاً ، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر ، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي ، يصعد منها الى ظهرها وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها ،

(١) في منزل الوحي (ص ٢٠٨) .

(٢) أحمد السباعي ، تأريخ مكة (ص ١٤) .

وجعلوا في دعائهم صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة إبراهيم ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة . وذكر بعض من أدرك الكعبة قبل عام الفتح أنه رأى في البيت تمثال مريم وعيسى مزوقاً في حجرها عيسى ابنها قائداً مزوقاً . ورأى في البيت أعمدة ست سوارى . وكان تمثال عيسى بن مريم ومريم في العمود الذي يلي الباب . وأعادوا إليها هبل وقرني الكبش ، وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية وبالوصائل (١) .

وفي بعض الروايات ما يفيد أن جدر الكعبة كانت من حجر ، وإنها كانت مسقوفة كالذي ذكرته عن تسقيفها في أيام قصي ، أي عكس ما ورد في الروايات الأخرى التي ذكرت ملخصها فيما ذكرت .

وقد ورد أن قريشاً كانوا يفتحون البيت في الجـاهلية يوم الاثنين والخميس ؛ وكان حجابها يجلسون عند بابه . لا يسمحون لأحد بالدخول إليه بحذاء ، تعظيماً واحتراماً للكعبة ، ويضعون نعالهم تحت الدرجة . وكان أول من خلع الخف والنعل ، فلم يدخلها بهما الوليد بن المغيرة ، اعظماً لها فجرى ذلك سنة (٢) .

ولم تذكر كتب الأخبار - ويا للأسف - أصول تلك الصور . أكانت صوراً مستوردة استوردت من بلاد الشام أو من العراق ؟ أم كانت صوراً محلية ، نقشها رسامون ومصورون كانوا يسكنون مكة على حائط البيت أو على ألواح علقت على الجدران ؟ وربما لا يستبعد أن تكون تلك الصور من مخلفات تلك السفينة اليونانية التي تحطمت عند « الشعبة » في ساحل الحجاز كما تذكر كتب السير والأخبار ، فاشترى أهل مكة بقاياها ونقلوها إلى مكة ، كما استعانوا ببعض من كان فيها لمساعدتهم في بناء الكعبة ، فقد ورد في بعض الأخبار أن تلك السفينة المنكوبة كانت تحمل صوراً ورخاماً وفضيفساء لاستعمالها في كنائس اليمن . فلعل قسماً منه ، وهو القسم الذي خلص من الغرق ، نقل إلى مكة ، وكان نصيبه وضعه في الكعبة .

وقد أزيلت الاصنام والأوثان وصور الأنبياء والملائكة عام الفتح ، أزيلت كلها

(١) أخبار مكة (ص ١٠٤ وما بعدها) .

(٢) أخبار مكة ص (١١٨) .

وطمست معالمها كلها في معظم الروايات الواردة عن عام الفتح ، الا روايات تذكر أن الرسول أمر بثوب ، قبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور ، ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه ، وقال : أحوا جميع الصور ، الا ما تحت يدي ، فبقيت صورة عيسى . وروايات أخرى تذكر أن تمثال عيسى ومريم بقي الى أن هلك في الحريق الذي وقع في أيام ابن الزبير . ورواية تذكر أن امرأة من غسان حجت في حاج العرب ، فلما رأت صورة مريم في الكعبة ، قالت : بأبي وأمي ! إنك لعربية . فأمر رسول الله أن يمحوا تلك الصور ، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم . وروايات أخرى تذكر أن الرسول قد أمر بطمس جميع الصور حتى صورة مريم وعيسى . ولكن الطمس لم يزل الصور تماماً ، فبقي أثر بعضها ، حتى أزيل في زمن الخليفة عمر (١) .

ولم يكتف أهل مكة بالتقرب الى اصنام البيت الحرام وأوثانها وحدها ، بل وضعوا أصناماً في بيوتهم ، تقربوا اليها في الليل والنهار . وقد كان سائر الناس في الحجاز وفي جزيرة العرب يفعلون ذلك ، حتى الأعراب كانوا يحملونها معهم ، فاذا تنقلوا نقلوها معهم . ولما كان عام الفتح ، أمر الرسول أهل مكة بكسر أصنام البيت الحرام وأصنام البيوت . وكان عكرمة بن أبي جهل حين اسلم ، لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش ، الا مشى اليه حتى يكسره . ولم يكن في قريش رجل بمكة إلا وفي بيته صنم ، إما مستورد ، وإما من صنع مكة . وكان في مكة رجل يقال له أبو تجارة ، يعمل الأصنام في الجاهلية ، ويبيعها . وقد كان أهل مكة يطوفون بها في الأسواق ، فيشتريها منهم أهل البدو ، فيخرجون بها الى بيوتهم . وكان صاحب الصنم اذا دخل بيته يمسح الصنم ، واذا خرج يمسحه تبركاً به (٢) .

وليس بي حاجة ، على ما أظن ، الى لفت نظر القارىء الى هذا التضارب الغريب في عبادة قريش ، في هذا التضارب المتمثل في وجود هبل والأصنام الأخرى التي ترمز عن الوثنية مع صور الأنبياء والملائكة التي تمثل النصرانية في قاعة واحدة وفي بيت يعد أقدس مكان على وجه الأرض في نظر المكيين الوثنيين يومئذ . في بيت

(١) أخبار مكة « ص ١١٠ وما بعدها »

(٢) أخبار مكة « ص ٧٨ » .

لم يكن الا غرفة واسعة ، جمعت الوثنية والنصرانية في هذا المحل . وليس هذا التناقض في الواقع إلا صفحة من كتاب يجمع متناقضات عديدة نراها في حياة قريش .

لقد كانت وثنية قريش ، وثنية متطورة ، تقبل كل تطور ، ما دام التطور في حدود الوثنية وإطارها . كانت تتقبل كل صنم أو وثن أو تمثال أو صورة ، تضمها الى الأعداد المقدسة في الكعبة ، وتتقرب اليها لا يهملها أصلها ومصدرها ، ما دامت تقدمه وهبة الى رب البيت ، قدمت اليه على أنها شقيقة تقرب أصحابها من ذلك الرب . فعبادة مكة في هذا العهد عبادة شفعاء ووسطاء ومقربين ، تتمثل في تماثيل وأصنام وصور وأوثان على نحو ما ذكرت .

وفي جزيرة العرب محجات عديدة أخرى ، قصدها الجاهليون للثبرك . والتقرب الى آلهتها . وقد سبق أن تحدثت عنها في أثناء كلامي على الحياة الدينية عند العرب قبل الاسلام ، بعضها كبير قصدها المؤمنون بها المعتقدون بقدسيتهما من مواضع بعيدة ، وحجت اليها قبائل متعددة ، وقد ضمت جملة أصنام وأوثان ، وبعضها صغير اختصت بعبادتها قبيلة واحدة أو مدينة واحدة أو قبائل محدودة . وقد كانت في الحجاز وفي اليمن جملة منها ، أشار اليها الاخباريون . وقد عثر الرحالون والمنقبون على آثار تلك المعابد وبقاياها . ووجدت في انقاض بعضها كتابات ، أمر بتدوينها المؤمنون بأرباب تلك المحجات .

وقد أثارت كثرة هذه الأوثان والصور في مكة ، وتهالك الناس في التقرب اليها ، انتباه بعض المفكرين من أهل مكة ومن القادمين اليها ، ومن المحتمكين بأهل الكتاب ، فتساءلوا عن قيمتها وفائدتها بالنسبة الى الانسان ، وهي حجارة وصور لا تسمع ولا تعي ولا تنفع ولا تضر ؛ صنعها الانسان بنفسه ، واحاطها بهالة التقديس والتعظيم ، حتى جعل لها قوة ، وأضاف اليها مقدرة ، ثم زعم أنها تؤثر وتشفع للانسان عند الله . وقد تنكروا لعبادة قههم هذه ، واجتنبوا تلك الأوثان واعتزلوها ، وأشاروا على قومههم بفساد زعمهم ، وبطلان ما ذهبوا اليه فيها ، برفق واين وسكون ، دون أن يثيروا قومههم عليهم . جرى ذلك في زمن كان الناس فيه في عاصمة الروم يتجادلون ايضاً في شرعية تقديس صور الأنبياء وصور المسيح وأمه والقديسين وغيرها وفي موافقتها لأصول الدين.

جدال هز الانباطورية هزاً عنيفاً فيما بعد ، وأوجد جدلاً فيما بين رجال الكنيسة في حرمة وضع هذه الصور في الكنائس أو إباحتها فصاروا في ذلك شيعتين : شيعة معارضة تعتقد أن ذلك كفر وضلال وإلحاد ، وشيعة تتحمس للصور ولا ترى فيها مخالفة للمعقيدة بل على العكس ترى فيها تذكرة للإنسان تذكره بأولئك الأنبياء والرسل ، وتجعلهم وكأنهم أمامه ، فهي إذن خدمة للدين والإيمان في نظرهم هذا .

ومن يدري ، فقد يكون لهذا الجدل النصراني العنيف على تحريم تقديس الصور أو إباحتها علاقة برأي الأحناف في تقديس أهل مكة للأصنام والأوثان والصور . فقد كان هؤلاء كما ذكر الأخباريون على اطلاع باليهودية والنصرانية ، وكان لهم أو لبعضهم علم بالعبرانية والسريانية . وقد لازم بعضهم رجالاً من الأقباط والقسيسين والرهبان ، فلا يستبعد أن يكونوا قد تأثروا به ، إذ كان الجدل عنيفاً عاماً ، ولم يكن خاصاً بالقسطنطينية أو بقطر واحد من الأقطار الخاضعة للانباطورية البيزنطية . ولا أستبعد وصول هذا الجدل إلى نصارى جزيرة العرب ووقوفهم عليه واشتغالهم به ، وانقسامهم على أنفسهم فيه ، كما انقسم نصارى الانباطورية في هذه القضية إلى شيعتين .

وبعض هؤلاء الراغبين عن ديانة قومهم ، المتكربين للأصنام والأوثان ، كانوا كما تقول الأخبار على علم بالعبرانية والسريانية ، وقد قرأوا كتب أهل الكتاب ، ووقفوا على آرائهم ، لكنهم لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، كما تجنبوا الأعمال المضرة التي كان يقوم بها بعض الجاهليين ، واعتزلوا قومهم ، وصبوا عن دينهم ، وعرفوا بالأحناف . وقد عاشوا في عزلة ، في تأمل وتفكير ، في حالات انفرادية ، إذ لم يكن هؤلاء شيعة وفرقة ولا كان لهم دين له قواعد معينة ثابتة ، وإنما كانوا أفراداً أنكروا عبادة قومهم ، ولم يرتضوا عن أعمالهم ، وكان لكل في الإصلاح رأي ووجهة .

والحديث عن هؤلاء وعن آرائهم وعن النحل والمذاهب الدينية التي كانت عند أهل الحجاز والجاهليين عند ظهور الإسلام ، حديث طويل ، لا يمكن سرده هنا ، وقد تحدثت عنه في كتابي تاريخ العرب قبل الإسلام واليه مرجع من يريد الاستزادة في هذا الموضوع .

وقد اكتفى الأحناف ، على ما يظهر من روايات أهل الأخبار ، بالابتعاد عن المجتمعات وبالفرقة من تقديس الأوثان ، فلم يتقربوا إليها ، اكتفوا بذلك ورضوا بعقيدتهم هذه وباقتناعهم بفساد معتقدات قومهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الجهر بآرائهم والمناداة بها علناً في المحلات العامة ، ظلوا على ذلك الى مماتهم ، ولهذا لم تكن علاقتهم مع قومهم سيئة ولم يصطدموا معهم . بل نظر اليهم نظرة تقدير واحترام ، وكانوا يأتونهم للاستفسار عنهم عن كثير من المعضلات والمشكلات ، لما لهم من اطلاع ووقوف على الكتب والأخبار . ولا أستبعد اشتغالهم بأمور أخرى ، مثل الفاسفة والتطبيب والمنطق وما شابه ذلك من أمور برع بها رجال الدين في ذلك العهد .

وقد اعتكف الرسول كما اعتكف هؤلاء الأحناف ونفر من تقديس قومه للأوثان والصور والأصنام ، ولكنه لم يكتف كما اكتفوا بالافتناع بهضحة رأيه وفساد رأي قومه وكفى . ولو اكتفى بذلك ، كان واحداً مثلهم لا يمتاز عليهم بشيء . بل عاب قومه على فساد عقيدتهم ، وندد بعبادتهم حجارة لا نعي ولا تسمع ، ومن هنا وقع الاصطدام . وثار القوم على الرسول قاصدين قتله أو اسكانه على نحو ما سنرى من بعد . فالرسول كان صاحب فكر ودين ورسالة ، مكلفاً وحيأً بوجوب الدعوة الى الله وإبلاغ رسالته الى العالمين . أما هم ، فكانوا أصحاب فكر ودين وعقيدة ، لهم وحدهم رسالتهم وعقيدتهم ودينهم ، ولمن أراد الدخول في بيأتهم الرحب والسعة . وفي ذلك الطمأنينة على الحياة والأمن والسلامة . فكان ما عندهم في حدودهم وحدود الأصدقاء والأتباع إن كان لهم أتباع وأشباع .

وخدمة « البيت الحرام » هي خدمة كبرى ، وهي شرف عظيم ، تجلب لصاحبها المال والاحترام والتقدير ، كما تجلب له الغنى من الهبات والندور والاطياب التي يحملها المؤمنون الى بيت ربهم ، لاسترضائه وكسب عطفه وودده ورضاه ، ليبارك فيهم وفي أموالهم وماشيئهم وزروعهم . خدمة اختصت بها أسرة من قريش ، توارثتها عن قصي ، وقد تنقلت في أفرادها من الآباء الى الأبناء . تخول صاحبها وأسرته التقدم على سائر الناس والتصدر فيهم . وقد كان حاجب الكعبة عام الفتح عثمان بن طلحة . والحاجب هو سادن البيت ، ويده مفتاح البيت (١) .

(١) امتاع الأصنام » ٣٨٥/١ ، ٣٨٧ ، جامع الأصول ٢٦٧/٩ ، ٣٤٢ .

وقد جلب « البيت الحرام » « باتشيون » مكة ، الرزق والأمن لأهل مكة . جلب لهم الرزق بقدوم الحجاج اليهم لحج البيت والتقرب الى الأصنام في مواسم الحج ، وفي غير هذه المواسم . جاؤوها أفراداً وجماعات . ولكل من القادمين اليها صنم مفضل ووثن يتقرب به الى ربه ، راجياً به المغفرة والرضوان والبركة والعمر الطويل والرزق الوافر له ولأسرته . جاؤوها يحملون معهم نذورهم وهداياهم الى أصنامهم والى سدناتها وخدام البيت ، ومعهم سلعهم وما عندهم من ناتج فائض عن حاجتهم لبيعه في أسواق مكة ، أو لمقايضته بسلع أخرى يحتاجون اليها ، فربح أهل مكة بذلك ، وعاشوا على هذه المناسبات ، وأطعموا من جوع ، وهبأ لهم سبل الاتجار مع الخارج .

وحرم مكة حرم آمن . من دخل فيه كان آمناً ، لا يجوز فيه قتال ولا اعتداء . جلب لأهله وللقادمين اليه الأمن والطمأنينة . وبذل أهل مكة جهودهم في خدمة الزائرين والحجاج ، والمحافظة عليهم ، وضمان كل وسائل الراحة لهم وضمان ذلك هو نفع لهم وخدمة لمصالحهم بالطبع ، لضمان بحج الحجاج والقاصدين اليهم بعدد وافر . وقد جاهدوا واجهدوا أنفسهم في عقد المعاهدات مع القبائل وسادات الأماكن المحيطة بهم ، لضمان الأمن اليهم وللقادمين اليهم . يخبين انفسهم التورط في الحزازات والخلافات القبلية جهداً استطاعتهم ، متخذين طريق الحياد ، والاستعداد المتوسط بين المتخاصمين في حل الخصومات . واحلال السلم . وفي السلم خدمة لمكة . تضمن لهم قدوم الحجاج والمعتمرين . وفي الحروب تعويق لهم ومنع من الوصول اليها . وهذا ما يقطع عنهم التجارة والرزق .

والى رزق قريش من « البيت الحرام » . وحصولها على أمنها أشير في القرآن الكريم في سورة قريش : « لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وأشير الى حرم مكة والى قدسيتهما وأمنها في آية العنكبوت ٦٧ : « أو لم يروا أننا جعلنا حرمأً آمناً ، ويتخطف الناس من حواشم » ، وفي آية القصص ٥٧ : « وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا ، أو لم نمكن لهم حرمأً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء » .

وليس في مكة نهر أو جدول أو عين جارية ، فكل ما فيها بر تستقي منها ، حضرتها بنفسها في هذا الوادي الجاف ، عرفت به « بر زمزم » . تذكر الروايات أن عبدالمطلب انتزحها بعد انسدادها قبله ، فأعانت مكة ، وقدمت لها الماء ، وصارت حقوقها في أولاده جزاء قيامه معهم في إعادة احتفارها . ثم أبار صنار خارج مكة على مسافات منها ، ونقل الماء من هذه الآبار الى مكة أمر شاق مضن ولاسيما في أيام الصيف حيث تشتد حاجة الناس الى الماء . ويتعرض الانسان لحر شديد كوهج النار ، وإلى ظمأ شديد لا يعرفه إلا من أقام في مكان يشبه هذا المكان .

وأما مكة قليلة ، وقد تنجس عنها سنين عدة ، وقد تهرأ أنهاراً فتفتتح أبواب السماء عليها كأفواه القرب ، تنتج سيلاً يجرف ما يعترضه ويلحق الأذى بالناس ، وهي لا تقبل أهل مكة ولا تنفع أرضهم شيئاً ، ولا تنشيء لها خضرة تلتطف من منظر الصخور الجرد في جبالها وأرضها .

فرزمم إذن نعمة كبرى لأهل مكة وللفاعدين إليها . وإلى لأصحابها الذين أتوا اليهم ، ولا عجب إذا عدت وظيفة « السقاية » في مكة من درجات الشرف المحسنة في تساوي الحجابة في المزالة . ولا عجب أيضاً إذا اقترن اسم زمزم بالبيت الحرام . وهذه ماؤها مقدساً ، فلهذه البشر علاقة وصلات بهذا البيت .

وقد أثر موقع مكة وجوها في طباع أهلها ، فغلب على أهلها الجدة والشدّة ، وظهرت عليهم الصرامة والعزم ، وبانت عليهم اليوسة والغلظة . واضطروا الى العودة من يأتيهم حاجاً ، وتقديس كل ما أمكنهم من مساعدة اليوم . طعنهم على العودة اليهم ، وعلى الامتياز منهم ، للتغفيف بذلك عن انجاس كرم الطبيعة عنهم ، وبغلها الشديد عليهم . ولم يكتفوا بذلك ، بل ارتحوا الى مختلف الأنحاء تجاراً أو وسطاء في تجارات غيرهم ، طمعاً في كسب كثير أو قليل ، فكانوا أعظم التمار وأكثرتهم سرقة ونمطاً عند ظهور الاسلام .

وقد تكدر في مكة عدد كبير من الأحايش أي الرقيق الأسود المستورد من إفريقية من الحبشة ومن غيرها . وقد عرف هؤلاء بالأحايش ، لصلة الحبش بجزيرة العرب قبل الاسلام بزمان طويل ، ولحكم الحبش لبقعة كبيرة من الساحل المقابل للبلاد

العرب ، ولكونهم المستوردين لهؤلاء الى أسواق النخاسة في ساحل إفريقيا وفي جزيرة العرب . وقد استعمل هؤلاء في أكثر الحرف الشاقة والأعمال المرهقة ، ونيطت بهم الحراسة ، فكانوا حراساً لكبار التجار يحمون قوافلهم ، ويصدون عنهم غارات الأعراب وقطاع الطرق ، كما كانوا خداماً يخدمون سادات هذه القوافل : يهيئون لهم طعامهم وشرايبهم ، ويعملون في متح الماء من الآبار ، للشرب والسقي ، ويشرفون على رعي الابل والملشية ، الى غير ذلك من الأعمال التي لا تحتاج الى مهارة واختصاص ولا الى ذكاء كبير . أما الأعمال التي تحتاج الى مهارة وذكاء وخبرة ، فقد تولاها أناس استوردوا من الشمال : من العراق ، ومن بلاد الشام ، ومن أوربة أيضاً . أوقعهم حطام في الأسر ، فبيعوا في أسواق النخاسة ، ونقلوا الى جزيرة العرب ، لأداء هذه الاعمال لمشتريهم . فهم في حكم الآلة ، تشتري من مستوردها لتقوم بالعمل الذي خصصت به . وليس لها الا الدهن والوقود والادامة . وهؤلاء استوردوا لأداء الاعمال التي تخصصوا بها وأتقنوها والتي يصعب على الافريقي القيام بها . وناتجه وعمله لغيره لمالكة ، وليس له غير القوة واللباس لادامة عمله وضمان بقائه حياً للاشتغال والانتاج . ونجد بين هؤلاء نفراً أشل اليهم أهل السير والاخبار لعلاقة لهم بسيرة الرسول ، كما سئز ذلك فيما بعد ، وفيهم أناس قبل أنهم من أهل « نينوى » أي من منطقة الموصل ، أناس من الفرس ، وأناس من بلاد الشام ومن الروم .

وحالة الموالي والعبيد حالة مزرية مؤسفة ، ولا سيما حالة من كان منهم في ملك أشخاص قساة القلوب غلاظ الأكباد . فقد كان هم أصحابهم الاستفادة منهم ، وتسخيرهم في الاعمال المرهقة الشاقة من غير تفكير في حالهم وما هم عليه من بؤس وتعاسة وشقاء . اذا مات المملوك كان ما يملكه وما عنده من زوج وأطفال ملكاً للمالك ، باعتبار أن المملوك هو نوع من الملك ، وأن حق الممتلك والملكية حق دائم مستمر متصل غير منقطع مادام للمالك أو ورثته رغبة وحق في المملوك . وهكذا نرى العبودية عبودية دائمة مستمرة تنتقل من الرقيق الى أبنائه ، إلا اذا تنازل من له حق شرعي عنه فحرر رقبته ، ويكون عندئذ في حماية مولاة وفي كنف قبيلته .

ولما كان الوضع على هذا الحال والمتوال أعني وجود قلة غنية جاهلة متحجرة

متحكمة في كثرة فقيرة ضعيفة ، لانرحم فقيراً ولا نعطف على يتيم ، فلا بد أن يكون
هوئى الفقراء والضعفاء في واد آخر في غير مصلحة ساداتهم . ولكن ما الذي كان في إمكان
اولئك صنعه ، وهم طبقة ضعيفة لاحول لها ولا قوة ؟ لم يكن في امكانهم عمل شيء
إلا التضرع الى آلهتهم بأن يفرج عنهم وينقذهم من هذا الوضع السيئ . فليس بعجيب
إذن اقبالهم على الاسلام ، وانخراطهم فيه ، وتأيدهم للرسول ، وتفانيهم في الدفاع عنه .
وفيه حث على انصاف المظلومين ، وإعطاء حقوق اليتامى والمساكين ، وفرض على الأغنياء
في مساعدة الفقراء : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم » ، (١) و « والذين
في أموالهم حق معلوم ، للسانل والمحروم » (٢) .

ونجد في القرآن الكريم حثاً شديداً على مساعدة السائل والمحروم والعطف على
اليتيم وتقريباً وتعنيفاً للذي يفتصب أموال اليتيم ، ويعتدي على مال القصير . ولمن
لا يساعد الفقراء ، وفي هذا التعنيف والتشديد والتقريع دلالة على حالة اجتماعية سيئة
كانت في مكة في ذلك العهد ، هي الحرص على المال والفقر المدقع ، والفقر هو السبب
في ظهور مثل هذه الحالات . وفي سلب حقوق الضعفاء وعدم مساعدة الفقراء . بل حمل
الفقر بعضهم على قتل أولادهم خشية إملاق . وما الواد المذكور في القرآن الكريم
إلا حالة من هذه الحالات . حالات الفقر الملعون الذي كان منتشرأ يومئذ ، « ولا تقتلوا
أولادكم من إملاق . نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها
وما بطن » ، (٣) « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إن
قتلهم كان خطأ كبيراً » ، (٤) « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ
أشده ، وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسؤولاً » ، (٥) « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي
أحسن حتى يبلغ أشده » ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » (٦) .

والفقر والاملاق وانتهاز الفرص للثراء ، كل هذه وأمثالها جعلت الناس

(١) التوبة (الآية ١٠٤) .

(٢) المارج (الآية ٢٤ وما بعدها) .

(٣) الأنعام ، الآية ١٥١ .

(٤) الاسراء ، الآية ٣١ .

(٥) الاسراء ، الآية ٣٤ .

(٦) الأنعام ، الآية ١٥٢ .

يتهمزون القرص الحصول على ربح ومضنم ، دون تفكير في الوسيلة وفي الطريقة . فما دام
الربح هو الغاية فلا تفكير في السبل الموصلة إليه ، والغاية تسوخ الوسيلة . ولهذا نجد
البائس يلجأ الى مختلف الوسائل للحصول على ربح ولو كان يسيراً جداً . يلجأ الى الغش
والتزوير ، ويلجأ الى الميزان فيلعب به . وينقص الكيل ليحصل على فرق يسير لا يساوي
عندي وعندك شيئاً ، إلا انه فرق ملحوظ عند أناس تلك الأيام ، بسبب أحوالهم المزرية
ومستوى معيشتهم المنخفض في ذلك العهد ، نجد صداه في القرآن الكريم في آية :
« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » (١) ، وفي «سورة المطففين» : « ويل للمطففين ،
الذين إذا اكْتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن
أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم . »

هناك آيات أخرى تشير الى هذا الجشع الذي هم الناس في ذلك العهد . وكما
نجد في عهد وتقرير الفاشين الجشعين الظالمين ، وفيها أمر وتعليم للمسلمين المؤمنين
بوجوب تجنب هذا الجشع ، وانصاف الناس ، والتفكير فيهم ، تفكير الانسان في نفسه .
وتروى دلائل على تلك الأوضاع والحالات السيئة التي كانت في ذلك العهد . الفقر ،
والضيق ، والحاجة ، ولأنانية متغلبة على النفوس بسبب ذلك الفقر . والفقر كافر ملءون .
« هذا الفقر أيضاً والشح في العيش والضيق في المكان ، جعل أهل مكة يحسد
بعضهم بعضاً ، ويقتاب بعضهم بعضاً ويلمزه ، فإذا جالس بعضهم مع أصحابه عظموه ،
حتى إذا فارقتهم سلفوه بأسنة جداد وغمزوه . ولو كان لهم شغل يشغلهم وعمل يلهيهم ،
وأعمال دائمة وأرباح وافرة بما لو أنها بالكد والاجتهاد ، لكان الأمر شيئاً آخر ولا شك .
« من هذا نسير ما نجده في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي من تقرير وتعنيف لأفراد
الك المجتمع الجاهلي المتصنف النفاق والحسد والمراوأة .

« صور القرآن الكريم ، غني مكة وغني عهود النبي في أماكن أخرى من الحجاز ،
على همه جمع المال وتكديسه وتكثيره . المال في نظره جاه وشرف وحسب ، يقتخر
به على غيره عن لا يملك مثله مالا ، ويتباهي به وبذريته وأبوابه . وفي الآية : « وقالوا :
نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، وما نحن بمعتدين » (٢) وصف لحالة الغنى الكثير المال .

(١) الأنعام : الآية ١٥٢ .

(٢) سبأ : الآية ٣٥ .

يفتخر على غيره بكثرة ماله وبعدد أولاده ، ووصف لصفه وخيلانه وادعائه أن ماله شقيقه يشفع له حتى من العذاب . وكيف لا يكون شقيقه ومتقذه من العذاب ما دام يرى بعينه أثر سحر ماله في الناس ، وكيف لا يجلب له التقدير والاحترام ويحقق له كل حقوقه ودعاواه ، بينما يرى الضعيف الفقير ، وهو ضعيف مهاناً لا قدر له في مجتمعه ولا شأن له بين أهله وجماعته ، بسبب فقره وضعف حاله . حقه ضائع مهدر ، أن طالب به لم يجد له والياً ولا نصيراً ، على حين يعطى الغني حقه ولا يناله دون جهد وتعب . كل ذلك بسبب ماله وغناه .

وفي سورة الهمزة : « ويل لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخله » وصف آخر لغني ذلك الزمان . أن همه جمع المال وتعدده المال في نظره ، هو الذي يعظم الانسان ويخلده . وجوابه على نظراته هذه الى المال : « كلا ، لينبذن في الحطمة » وما أدراك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم موصدة ، في عمد ممددة . وهذه الآيات الكريمة ، هي زبد الاسلام على هذه النظرة الجاهلية ، وهي نوع من انواع الصراع المهم الذي وقع بين الجاهلية والاسلام يمثل اختلاف المبادئ بين العهدين .

ولم تكن ثروة قريش موزعة توزيعاً عادلاً ، بل كانت مكدسة مكتنزة عند نفر ، احتكر لنفسه المال والثراء ، أما الأكثرون ، فكانوا فقراء ، حتى ذوو قرابة هؤلاء المثرين . كان أغلبهم فقراء ، لا يجدون منهم عوناً . ويجتمع مثل هذا ، لا يمكن أن يتطرق اليه الانسجام وتخامره الألفة والمحبة الصادقة ، مهما ربط بروابط الطاعة والتسليم الى القدر والى العرف والعادة وآداب الآباء والأجداد . وهذا هو الذي جعل الاسلام يحض على مساعدة الجار ورعاية الفقير وايواء اليتيم ونحو ذلك من المشاغل الانسانية الرفيعة ، كما نرى خبره في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول .

وقد كان لهذا البون الشاسع بين « عظماء » أم القرى ، وسوادها الاعظم أثر خطير في الاسلام ، كما كان لهذا السواد أثر كبير في دخولهم في الاسلام ونشره . فقد كان المستضعفون من أكثر الناس اسلاماً ومن أكثرهم التفافاً حول الرسول ، حرصوا على نشر الاسلام والدعوة اليه . وفي دخولهم فيه خلاص لهم من تحكم سادتهم فيهم ،

وفيه ضمان لمستقبلهم وأمن لهم ولحريتهم من هذا المجتمع المتحكم في المستضعفين ،
المستغل لهم لمصالح أرباب البيوتات المتحكمة في الناس . ولم تكن مصلحة الفئة القليلة
الغنية الاستجابة للإسلام ، لما رأته في الاستجابة الى دعوة رجل فقير يتيم من ذلة
ومهانة ، ولذلك سخرت من الرسول ومن الذين استجابوا لدعوته ، وكانوا يستهزؤون
ويضحكون حين يرون الرسول وحوله أولئك المستضعفين .

ومكة وإن كانت مجتمعاً مستقراً حضرياً ، أهله أهل مدر في الغالب ، غير أنها
لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، لأن الحياة فيها كانت مبنية على
أساس العصبية القبلية : المدينة مقسمة الى شعاب ، والشعاب هي وحدات اجتماعية
مستقلة ، تحكمها الاسر ، وبين الاسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ . حاربه الاسلام
وقد بقي مع ذلك متحكماً في النفوس حتى اليوم ، لا في مكة وحدها ، بل في العالم
العربي كله . نزاع بين بني هاشم وبين أمية على الرئاسة في مكة ، ثم على الرئاسة والزعامة
في الاسلام ، أذى الجاهليين ~~ص~~ كما أذى المسلمين (١) . ونزاع بين أسر أخرى على
الزعامة والرئاسات .

لقد حاول بعض رؤسائها ووجوهها التحكم بأمر مكة ، وإعلان نفسه ملكاً عليها .
يحلى رأسه بالتاج شأن الملوك المتوجين ، ولكنه لم يفلح ولم ينجح . حتى ذكر أن بعضهم
التجأ الى الغرابة ، لمساعدتهم بنفوذهم السياسي والمادي والعسكري في تصيب أنفسهم
ملوكاً عليها ، فلم ينجحوا ، كالذي ذكروه عن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد
العزى ، المعروف بـ « البطريق » . من أنه طمع في ملك مكة ، فلما عجز عن ذلك ،
خرج الى قيصر ، فسأله أن يملكه على قريش ، وقال : أحملهم على دينك . فيدخلون في
طاغتك » . ففعل ، وكتب له عهداً وختمه بالذهب . فهابت قريش قيصر ، وهموا أن
يدينوا له ، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة ، فصاح : والناس في الطواف : ان قريشاً
لقاح ! لا تملك ولا تملك ، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى : ألا إن مكة حبي
لقاح . لا تدين لملك ، فانسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان بما جاء له ، ولم يتم له

(١) « . . . قال جعفر : سألت عماراً عنده في أمر علي وعثمان ، فقال : هذه عداوة

قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم . وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم
وكان أبو سفيان محمد بن محمد وحاربه . . . » ، شرح ابن أبي الحديد (٢/٢٢٠ : ٤٠١)

(٣٨٢/٣) .

مراده ، فمات عند ابن جفنة . فانهمت بنو أسد بن جفنة بقتله « (١) وابن جفنة هو عمرو بن جفنة النساني (٢) .

ولم يكن عثمان بن الحويرث أول زعيم جاهلي فتن بالملك وبلقب ملك الحبيب الى النفوس ، حتى حملته ذلك على استجداء هذا اللقب والحصول عليه بأية طريقة كانت ، ولو عن سبيل التودد الى الأقوياء الغرباء والتوسل بهم ، لمساعدتهم في تنصيبهم ملوكاً على قومهم ، ففي كتب الأخبار والتواريخ أسماء نفر كانوا على شاكلته ، فتتهم الملك وأعمالهم الطامع وحملهم ضمف الشخصية وفقر النفس حتى على التوسل الى الساسانيين والروم ، لتنصيبهم على قومهم ومنحهم اللقب الحبيب ، ووضع التاج على رأسهم ، في مقابل وضع أنفسهم وقومهم في خدمة السادة المساعدين أصحاب المنة والفضل .

لقد استمات عثمان بن الحويرث في سبيل الحصول على ملك مكة ، حتى ذكر أنه تنصر وتقرّب بذلك الى الروم ، وحسنت منزلته عندهم . ومن يدري ؟ فاعلمه كان مدفوعاً مأموراً حرضه الروم ودفعوه للحصول على المدينة المقدسة ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على الحجاز والوصول الى اليمن والسيطرة بذلك على العربية الغربية والعربية الجنوبية ، وإخضاع جزيرة العرب بذلك لنفوذهم . جمع القوم ورغبتهم وأنذرهم وحذّروهم بغضب الروم عليهم إن عارضوا مشروعه وقاوموا تنصيبه ملكاً عليهم ، قائلاً لهم : « يا قوم ! إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما نصيبون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم ، وأنا ابن عمكم واحدكم ، وإنما أخذ منكم الجراب من الفرظ والعكة من السم من الأوهاب ، فأجمع ذلك ، ثم أذهب اليه . وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام ، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه ، (٣) . وبعد أفترى تهديداً أشد من هذا التهديد ، وتصميماً على التملك بأية طريقة كانت أقبح من هذا التصميم .

ولعل لقبه « البطريق » الذي عرف عثمان بن الحويرث به ، هو من انفضال اليونان عليه ، اعطوه اياه فعلاً أو قولاً ، لاسترضائه وكسبه . ولا يعقل أن يكون لقباً دينياً له بالطبع . وقد كان الروم يقدّون الألقاب على الرؤساء وسادات القبائل

(١) نسب قريش ، (ص ٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١٤٦/١) .

(٢) المصدر نفسه ، وجهرة ابن حزم (ص ١٩٠) .

(٣) المقادير : البعريات الاسلامية (ص ١٣٠) الروض الانف (١٤٦/١) .

لكسبتهم وشرائهم ، وهي ألقاب اسمية فخرية ، ليست لها بالطبع الدرجة والمنزلة التي يتمتع بها من يحمل هذه الدرجة من الروم .

ولم تكن هناك ألفة ومحبة ، ولا وحدة جامعة بين الناس . فالأنانية والروح القبلية التي هي نفسها أنانية متوسعة ، لم تكن تساعد على ظهور مجتمع متوحد كبير . وكل رئيس كبير يرى أن الرئاسة يجب أن تكون له ، وأن التسليم برئاسة آخر عليه ، معناه مذلة وإهانة . ثم إن التعاون مفقود ، بسبب الوضع المالي السيئ ، ووجود فقر عام . والمجتمع الفقير لا بد أن تعمه الفرقة وأن يظهر فيه الحسد والتطاحن بين الناس في سبيل العيش الضيق والرزق . وقد أشير إلى هذه الظاهرة في القرآن الكريم . وقد ذكرت هذه الآيات المؤمنين بذلك الوضع الذي كانوا فيه ، وحثهم على الوحدة وعدم العودة إلى تلك الحياة الجاهلية : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمة إخواناً » ، (١) « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » ، إنه عزيز حكيم » (٢) .

فعدت الاسلام هذه الوحدة التي قامت مقام الفرقة والتشتت نعمة من نعم الله على المؤمنين ، وطلب من المسلمين الاعتصام بالاسلام وعدم الفرقة فيه ، وأن يذكروا نعمة الله هذه عليهم التي جعلتهم بفضلها إخواناً .

ولم تكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة ، فام يكن فيها ملك له تاج وعرش ، ولا رئيس واحد يحكمها على أنه رئيس جمهورية أو رئيس مدينة ، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً أو حكماً بالتناوب ، ولا حاكم مدني عام أو حاكم عسكري . ولم يتحدث أهل الأخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه ضبط الأمن ، أو مدير له سجن يزرع فيه الخارجين على الأنظمة والقوانين أو ماشابه ذلك من وظائف نجدتها في الحكومات وكل أمرها أنها قرية تتألف من شعاب ، كل شعب لعشيرة ، وأمر كل شعب لرؤسائه هم وحدهم أصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب .

(١) آل عمران : الآية ١٠٣ .

(٢) الأنفال : الآية ٦٣ .

وليس في استطاعة متمرّد مخالفة أحكامهم . وإلا أدبه حبه ، وملّوه أي أشرافه . هؤلاء الرؤساء هم الحكماء الناصحون وهم عقلاء الشعب .

وقد أشير إلى رؤساء مكة في القرآن الكريم في آية الزخرف ٣١ : « وقالوا : لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . ويراد بالقريتين مكة والطائف . وأشير في الآية التالية لها إلى وجود درجات من الناس بعضهم فوق بعض . وفي هذه الآيات شرح الحالة الاجتماعية لأهل مكة والطائف والمواضع الأخرى في ذلك العهد . فرؤساء مكة هم عظماءها وساداتها ، وهم أعلى الناس منزلة ودرجة ومكانة فيها . و « عظماء مكة » أو « عظماء الطائف » هم الطبقة « الأرستقراطية » المتزعمة في الناس ، المعروفة بعنجهيتها وتكبرها وجبروتها وخيلاتها وحسبان نفسها أنها هي الناس . أنتم الزعامة وراثته أو عن مال كسبته ومنافع حصلت عليه .

فالمحكم في مكة إذن حكم لا مركزي ، حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة . تطاع فيها الأحكام ، وتنفذ الأوامر ، لا لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على أهل مكة ، بل لأن الأحكام والأوامر هي أحكام ذوي الوجه والسن والرياسة والشرف . وأحكام هؤلاء مطاعة في عرف أهل مكة وفي عرف غيرهم من أهل جزيرة العرب . حكمت بذلك العادة وجرى عليه العرف ، ولا مخالفة للعرف والعادة . فالعرف قانون أهل الجزيرة حتى اليوم . وانتهاك أحكامهما معناه انتهاك سيادة القانون ، وتمرد على الهيئة والنظام ، وتحقير للحاكمين وإهانة لهم ولأتباعهم ، وليس لأحد الخروج على أوامر سادات القوم وذوي الحسب والشرف والسن والعقل .

وتحدثنا كتب الحديث والسيرة عن مجلس في مكة . كان يجتمع فيه ملأ المدينة ، أي رؤسائها وكبارها ، للتداول في الأمور والمشورة في شؤون السلم والحرب ، وقد عرف مجلسهم هذا بـ « دار الندوة » . وهو مجلس على نمط مجالس الكبار في اليمن ، المسماة بـ « المزود » . يجتمع فيها كبار القوم من ذوي الرأي والحل والعقد ، للتشاور في الأمور ، واتخاذ قرارات ، ويحكمون ويبدون الرأي باعتبارهم سادة قادة ، أما غيرهم من الناس فليس لهم إلا الطاعة والامتثال . ليس لهم رأي في اختيار الرؤساء أي رجال المجالس وإن كان هؤلاء الرؤساء يتكلمون باسمهم ويتحدثون عنهم ، فعضو المجالس في هذا الوضع مثل رئيس القبيلة في تمثيله لها وتحديثه باسمها وإصدار أحكامه في أفرادها .

ومع ذلك ليس لأفراد القبيلة رأي في إختياره وتعيينه ، إنما الرأي هو لما يسمى بالعرف والعادة ورأي الوجهاء وجهاء القبيلة أصحاب الحل والعقد .

وينسب بناء دار الندوة الى « قصي » . بناها لنفسه حوالي سنة (٤٤٠) للميلاد على تقدير بعض المستشرقين . ولكنها ما لبثت أن صارت في أيامه نادياً لقريش ، يقصدها الرؤساء ، ويلجها أصحاب الحاجات والظلمات ، حتى صارت قريش لا تبرم أمراً في حروبها وأمورها إلا بها ، وبها يزوجون من أراد التزويج ، ويلبسون الفتاة درعها دلالة على بلوغها سن الزواج ، ويدفع اللواء الى القادة الذين يعينهم ملاً مكة للدفاع عنها ، فيحمل عنهم رأيهم . شارهم في الحرب . وفي هذه الدار تشاورت قريش فيما تصنع في أمر الرسول حين خافوه ، وعزمت على قتله (١) . وفي هذا الدار اصطف رؤساء قريش في السنة السابعة من الهجرة ، ليشاهدوا الرسول وقد دخل مكة معتمراً (٢) شاهدهم وهم يرتجفون حقداً وبغضاً ، ولا شك ، لما بلغه محمد من عزة في قومه ومنعة (٣)

وقد أوصى قصي بهذه الدار لولده عبدالدار ، فصارت له ، وانتقلت الى ولده ، ولم تنزل فيهم حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم من معاوية بن أبي سفيان ، فجعلها داراً للإمارة بمكة (٤) .

وقانون القوم ودستورهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » (٥) . فهم يحافظون على كل ما وجدوه ، حريصون على ما كل وصل اليهم ، لا يريدون له تغييراً ولا تبديلاً ، مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق . وفي القرآن الكريم آيات أخرى ترينا تمسك نخبة مكة ورجال الملة بحقوقهم وبعاد وراثته من عرف مكنتهم من الملة ، وفي تمسكهم بها محافظة على حقوقهم الموروثة وعلى زعامتهم في الناس .

(١) ابن هشام « ٩٤/٢ » [خبر دار الندوة] ، البلاذري « ٥٢/١ » ، زاد المعاد ، « ٥٢/٢ » ، قال الافشيري في تذكرته : وهي الآن مقام الحنفي ، شرح القاموس « ٣٦٢/١٠ » .

(٢) ابن هشام « ٤٢٤/٣ » ، [عمرة القضاء] .

(٣) Encyc. of Islam, Vol. I, P. 918, caussin de Perceval, Essai, I, 235.

(٤) البلاذري [٥٤/١] .

(٥) الزخرف : الآية ٢٢ وما بعدها .

فملاً مكة أناس محافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً ، سنتهم التعلق بالماضي ، وكره الثورة والخروج على العرف والعادة مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . أما المستبين بالعرف المخالف لسنة الآباء والأجداد ، فيعاقب حتى يعود الى رشده وصوابه ، وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيفما كان ، وبتطرفهم في المحافظة على العرف ، إنما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد ، المحافظة على مصالحها ، استناداً الى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد . « وإذا قيسل لهم اتبعوا ما انزل الله . قالوا بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يتدون ، » (١٥)

ولذلك عجبت وسخرت حين سمعت محمداً يدعو أنه رسول الله ، أنه جاء اليهم والى غيرهم مبشراً وتذكيراً يدعوهم الى دين الله دين الاسلام ، والى الاعتقاد بنبوته ورسالته . وكيف يعقل ظهور رجل يدعو الى دعوة عظيمة مثل هذه الدعوى . من بين طبقة لم ترث المال الكثير . ولا السيادة والعظمة في البلد . ولو كانت الرسالة التي جاء بها الرسول هي من عند رب العالمين صدقاً ، لوجب على رأيهم واعتقادهم نزولها على عظيم عن عظماء مكة أو الطائف على الاقل ، لا على رجل مثل محمد ليس منهم ، فالجوة شرف وسن ومنزلة ومكانة ، والله لا يختار لها إلا من تتوفر فيه هذه الامور ، ويتوفر فيه العقل والنهج والكمال ، ولا يتوفر كل ذلك إلا في السادات والعظماء ، أصحاب البسطة في المال والجسم . ذلك مثلهم في الحياة ، وذلك منطقهم بالنسبة الى القدرة والعقل والعلم .

نعم كان محمد من أسرة ورثت خدمة البيت والحجيج ، ولكنه لم يرث مالا وثروة . كان من « بني هاشم » ولم يكن لبني هاشم مال . كانت لهم مكانة ومنزلة ، ولكنهم لم يملكوا مالا مثل مال « بني عبد شمس » منافسيهم على الزعامة في هذه المدينة الصغيرة ، والمال هو القوة والحكم . ولهذا كان خصومهم ، وهم من بيت واحد بالطبع ومن شجرة واحدة ، أقوى منهم ، وأكثر نفوذاً ، وأبعد سلطاناً في مكة وفي الحجاز . ولهذا أيضاً كانت مقاومة هذا البيت

وأعوانه ومن التف حولهم أشد على الرسول من المقاومة التي لقيها من بني هاشم مع أنهم كانوا المشرفين على البيت الحرام . والرؤساء الروحانيين في ذلك العهد .

وقد جلبت أسفار قريش للتجارة المال لمكة ، جلبت لها الذهب من الروم والفضة من الفرس . وقد اشتهر الروم عند العرب بدنانيرهم المضروبة من الذهب الأبريز ، واشتهر الفرس بدراهمهم المضروبة من الفضة . وعرف أهل بلاد الشام ومصر بـ « أهل الذهب » ، وعرف أهل العراق بـ « أهل الورق » أي الفضة . وكان هدف التاجر في حياته جمع الدنانير والحصول على الذهب وتكديسه . والذهب هو الثروة ورأس المال . وهو الجاه والمكانة في المجتمع .

وحذق تجار مكة بنقد الدنانير والدراهم . ففي النقدين المزيف المغشوش ، والممعو والناقص ، ولهذا جلب تاجر مكة كما جلب سائر تجار ذلك العهد إلى فحص الدنانير والدراهم حين مرورها عليهم . وكانوا يلجؤون إلى الوزن في الغالب خشية النقص في مادة النقد ، ويزنون الدنانير والدراهم إذا بلغت عدة عشرات لسهولة القسط .

ولقلة عدد النقود في العالم إذ ذلك ، صارت أثمانها في التعامل عالية . والمال كملات من الدنانير في جزيرة العرب ، كان يعد من كبار الأغنياء . وقد قدر رأس مال قريش الذي ساهمت به في قافلته التي أرسلتها برئاسة أبي سفيان ، والذي سبب معركة بدر ، بنحو خمسين ألف دينار ، وعدت القافلة من قوافل مكة الكبرى . كان قوامها (٢٥٠٠) بعير ، معها عدد من الأدلاء والحراس يتراوح من مئة رجل إلى ثلاث مئة رجل . ويضاف إليهم عدد آخر من الرجال ينضدون إليهم حين الحاجة لمقاومة « الصعاليك » وقطاع الطرق . وإذا أخذنا بقول الاخباريين القائمين بأن ملاء مكة أو أكثره كان يسهم في هذه القوافل الموسمية الكبرى ، عرفنا إذن قوة هذا المبلغ ونخامته بالنسبة إلى أهل مكة والحجاز ، بل جزيرة العرب في ذلك العهد .

ولم تكن هذه الثروة موزعة توزيعاً عادلاً ، فقد كان أبو أحيحة مثلاً قد أسهم بأكبر نصيب في هذه القافلة ، يقدر بزهاء ثلاثين ألف دينار ، وأسهم رجال آخرون من بني أمية بزهاء عشرة آلاف دينار . ومعنى هذا أن أربعة أخماس رأس مال القافلة كان أموباً . أما ملاء مكة . وفي مقدمتهم الأسيرة الكبيرة الأخرى ، فقد كان كل رأس ماله في

هذه التجارة الخمس الباقي (١). ومن هنا تدرك كيف استأثرت أسر معينة محدودة بالثروة واكتنرتها دون الآخرين.

وهناك أسر أخرى غنية ثرية في مكة، كانت تشاطر أسرة أبي أحيحة الجاه والثراء. فبنو مخزوم كانوا من أثرياء مكة، وكان عبدالله بن جدعان من كبار الأغنياء في أيامه. وقد أسهم بعض تجار مكة بالآلاف من الدنانير في القافلة التي أرسلتها مكة بقيادة أبي سفيان في السنة الثانية من الهجرة، ولم تكن هذه الآلاف كل ثروتهم بالطبع وقد ذكر أن أبا لهب كان قد أقرض العاص بن هشام بن المغيرة أربعة آلاف درهم، فلما أفلس، ولم يتمكن من دفع ما عليه له وللدائنين الآخرين، استأجره أبو لهب، المذهب مع قريش في مكانه إلى بدر على أن يجزي عنه بمشه، وتخلف أبو لهب (٢). وبمعه الطريقة سوي الدين. وهذا مما يحملنا على التفكير أن ثراء بعض تجار مكة كان شيئاً كثيراً. وقد بالغ بعض المستشرقين، فجعل بعض تجار قريش في منازل أصحاب الملايين.

وقد أسهمت نسوة مكة في التجارة، فكانت أم أبي جهل تاجرة تتاجر بالعدس والطيب، وكانت هند زوجة أبي سفيان تاجرة تتاجر مع «كلب» النازلين في بلاد الشام، وكانت خديجة تاجرة معروفة، وترسل الأمانة للتجار على حسابها، وقصة إرسالها الرسول في تجارتها معروفة في السير. ولما عاد أبو سفيان من الشام دون أن تقع أمواله في أيدي المسلمين، كانت نسوة قريش التاجرات في جملة من التف حولها، لمحاسبتها على أرباحهن وما صار من نصيب كل واحدة منهن (٣).

وقد عاش أثرياء مكة ووجهاؤها في بيوت حسنة مريحة، مجهزة ومزخرفة، فرشوها بالبسط والأثاث الحسن، ووضعوا على أبوابها الستور المصورة الموشاة، وحلى بعضهم جدر بيته بالصور والنقوش وبالتماثيل (٤)، واستعملوا الأواني المصنوعة من

Ency. of Islam, III, P. 440.

(١)

(٢) الطبري [٢٧٢/٢] .

Ency. of Islam, III, P. 440.

(٣)

(٤) جامع الأصول « ٤٨/٥ » وما بعدها « ، « الباب السابع في الصور والنقوش والستور، ذم الصوريين » .

الذهب والفضة والثفائس المستوردة من الخارج . أما الأكثرون ، فكانت بيوتها من المدر ، أو من أغصان الشجر ، أو من الشعر والوبر ، أو ماشابه ذلك . وهي بيوت حقيرة صغيرة لاتقي من حر ولا برد ، ذلك لأنها لم تكن تملك شيئاً ، فكانت حالتها مزرية . ووضع مثل هذا ، لابد أن يخلق شيئاً من الجفاء والحسد بين الطبقتين .

ومتع أغنياء مكة أنفسهم بمباهج الحياة المعروفة في ذلك العهد ، ورفهوا أنفسهم بقدر الاستطاعة ، فكانوا يخرجون في الصيف الى الأماكن العالية اللطيفة كالطائف وغيرها من الأماكن الجبلية ، للتخاض من حر مكة وكانوا يخرجون الى « الأقحوانة » عند الميط ، يتحدثون فيها بالعشي ، ويلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطوية « ١ » وينفقون على أفراسهم وعلى المناسبات الاجتماعية الأخرى ، ويأتون بالقيان ، ويشربون الخمر والنبيذ ، يسرفون في ذلك اسرافاً كبيراً . أما الكتلة الكاثرة وسواد المدينة ، ومن يقال لهم خضراء قریش ، أي سوادها « ٢ » فلم تكن تملك شيئاً ، بل كان من الصعب عليها الحصول على خبزها المصنوع من الشعير . لقد كان غنى مكة قاسياً ، غليظ القلب . فظاً ، لا يفكر إلا في نفسه . لا يعطى أحداً حقاً ، ولا يعطف على ضعيف ، ولا يرحم به . كان يأكل أموال اليتيم ومن لا حول له ولا قوة . لا يؤنبه ضمير ولا ينخره ألم ، فطبيعي اذن أن يكره فقراء مكة ومواليها وأصحاب الشعور والوجدان من الأحرار مؤلاً القساة العتاة .

ونجد في مكة طبقة لم تكن ثرية ثراء أولئك المذكورين ، ولكنها كانت ثرية غنية بالنسبة الى السواد الأعظم من السكان . يملك بعضها جملة آلاف من الدنانير أو من الدراهم . فهي من الطبقة الصغيرة الوسط « Petite bourgeoisie » في عرف الزمن الحاضر . وتمثل الموابين أصحاب المال المستغل بأراضه للمحتاجين اليه مقابل ربا كبير يترتب عليه ، وصفار التجار الذين كانوا يتاجرون مع الخارج بأموالهم أو بأموال غيرهم أو بالاستدانة . وأصحاب الأعمال الذين كانوا يستخدمون الأيدي العاملة في الانتاج وفي ادارة حرفهم . أي الحدادة أو التجارة أو استغلال بعض الأعمال خارج مكة « ٣ » والمبيعات أي الحوانيت . ولهؤلاء عدد من الخدم والعبيد ، هم في ملصكتهم وفي ذات

« ١ » الأزرقى [ص ٤٨٦] .

« ٢ » جامع الأصول [٣٤٢/٩] .

« ٣ »

يمينهم ، اشتروهم من أسواق النخاسة لاستخدامهم استخدام الآلة في هذا الزمن ، أي في خدمة صاحب العمل ومن أجل الترفيه عنه .

وليست مكة مدينة منتجة ، تنتج ما يحتاج اليه تاجرها من حاصل زراعي أو منتوج مصنوع ، لفقرها وفقر الوادي الذي تقع فيه . ولهذا كان تاجرها وسيطاً ينقل من اليمن والعربية الجنوبية ما يحتاج اليه أهل بلاد الشام والبحر الأبيض والعراق من سلع ، وينقل من بلاد الشام والعراق ما يحتاج اليه أهل مكة واليمن والعربية الجنوبية وأفريقية من تجارات . ومن هذه التجارة القائمة على الوساطة جمع أرباحه ورأس ماله الذي نماء وزاد فيه بنشاطه وبتشغيله بصورة دائمة مستمرة . جمعه من الفرق الذي حصل عليه من السعرين : سعر شرائه الساعة من مكانها بسعر منخفض ، وسعر بيعها في أسواق محتاجة إليها بسعر مرتفع . وكانت أرباحه منها مفرطة كثيرة ، تبلغ ما في المئتي أكثر الأحيان ، فكان ربح الدينار ديناراً والدرهم درهماً . حصل أهل مكة على هذا الربح من تجارة القافلة التي تزعمها أبو سفيان في السنة الثانية من الهجرة مثلاً ، القافلة التي من أجلها حدثت معركة بدر (١) .

وفي القرآن ذكر لرحلتين : كانتا لقريش في كل عام : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف « لا يلاف قريش ، يلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » (٢) . رحلة الشتاء الى اليمن حيث يكون الجو ملائماً ، ورحلة الصيف الى بلاد الشام . والرحلة عبارة عن قافلة كبيرة يشترك فيها أكثر أهل مكة ، كل بما يتيسر له من مال ، تخرج بحراسة شديدة وبزعامة رجل ذي بأس شديد ، وشخصية قوية تتمكن من السيطرة على الحراس والخدم وتحسن التصرف في الشدائد والملمات . وعلى شخصية زعيم القافلة يكون نجاحها أو إخفاقها ، ونجاح أهل مكة وإخفاقهم بالطبع . وقد رأينا كيف احتال أبو سفيان حينما كان قافلاً بقافلته من بلاد الشام فغير طريقه ، وتخلص بذلك من المسلمين الذين كانوا ينتظرون وصول القافلة من الطريق المألوف للاستيلاء عليها ، ولو تم ذلك ، لكانت خسارة قريش بذلك كبيرة بالطبع .

ولكن تجار قريش لم يكونوا يكتفون بالرحلتين المذكورتين ، بل كانوا يتاجرون في قوافل صغيرة وفي تجارات خاصة . فكان منهم من يذهب الى العراق الى الحيرة والأنبار ، ومنهم من يتجه الى الأسواق في المواسم يشتري ويبيع باسمه وعلى حسابه ، ومنهم من يتاجر مع الحبشة ، ومنهم من يذهب الى اليمن . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشخاص والأسر ، زاروا هذه الأماكن وتاجروا معها ، وكانت لكل من الفريقين صلات بالفريق الآخر ، وعقود ومواثيق مع المشايخ الذين تمر قوافلهم بتلك الأرضين ، كما بينت ذلك في الجزء الثامن من هذا الكتاب : تأريخ العرب قبل الاسلام . وقد تعلم هؤلاء التجار كثيراً من البلاد التي تاجروا معها ، وحملوا منها الطرائف والتجارات النفيسة التي يقل عليها الأغنياء وأهل المال من أهل مكة وغيرهم . ونجد في كتب اللغة أسماء اثار وأدوات ترجع الى أصول أعجمية ، فارسية ويونانية وسريانية وهندية وحبشية ، وهي بالطبع دليل واضح على ذلك الاتصال ، . بعض منه مازال حياً مستعملاً حتى الآن .

ولم يكتف بعض أغنياء مكة بالاتجار والتجارة ، بل وجها أنظارهم شطر الأرض ، فساهموا مع رؤساء الطائف في غرس الشجر مثل الأغانب والفواكه ، وفي تأجير المزارع أو رهنها ، وبذلك زادوا في ثرائهم ، وحصلوا على قوت ثمين يستوردونه لمدينتهم ، يبيعونه لمن به حاجة اليه . واتخذوا الطائف مصيفاً لهم ، يقضون وقتاً طيباً فيه ، ويتخلصون فيه من حر مكة واطى الحرارة المنبعثة من الصخور الجرد المتوهجة . واستغل تجار مكة الأعراب المتصلين بهم والمزارعين ، فأقروضهم المال يربوا فاحش ، أو بشراء حاصل عند نضجه ، وقايضوهم بضاعة ببضاعة ، فربحوا ربحاً حسناً طيباً ، وبسطوا نفوذهم عليهم ، وتقربوا الى سادات القبائل بالهبات والقروض ، للتأثير فيهم وكسب ودهم وحماية قوافلهم عند مرورها بأرضهم . وبذلك وصلت قوافلهم بأمان الى الحيرة والأنبار وتكريت وهيت في العراق ، والى غزة وبصري ومواقع أخرى من بلاد الشام ، وعقدوا اتفاقيات تجارية مع الفرس ومع الفساسنة حلفاء الروم . وهكذا صار تاجر مكة تاجراً عالمياً يقصد الأسواق البعيدة للبيع والشراء ، وعالمياً بالأحوال الاقتصادية في خارج أرضه ، له خبرة ودراية بالأسعار العالمية . ومن يدري؟ فلعل فيهم من

كان يجيد اللغات الأجنبية مثل الفارسية واليونانية والسريانية بحكم مجيئهم الى بلاد يتكلم كثير من سكانها بهذه اللغات ، وبحكم تعاملهم وتعاقدهم معهم . وربما كانوا يتكلمون معهم ويتراسلون مع أقرانهم بلغة من تلك اللغات .

واستغل تاجر مكة حرمة مدينته ووجود البيت الحرام فيها ، فحصن نفسه بتلك الحرمة ، وأمن على حياته وعلى تجارته بفضل رب البيت ، فكان إذا سافر أو قام بتجارة علق بعنقه وبرقاب إبله لحاء من لحاء شجر الحرم ، فأمن بذلك حيث توجه ، (عظماً للحرم ، فإذا رجع ودخل الحرم ، قطع ذلك اللحاء من رقبته ومن رقاب أباعره (١) . وهكذا استغل ثري مكة قدسية مدينته أقصى ما في استطاعته من استغلال ، واستفاد منها أعظم فائدة .

والعظماء أصحاب الجاه والنفوذ والمال والحسب ، هم عقلاء القوم ولسانهم ، مايقولونه جميل ، وما ينطقون به حكمة وقول مطاع . أما السواد ، فانهم ، كما يتبين من القرآن الكريم ، تبع ، لا رأي لهم ولا كلمة ولا قول مسموع ، يتبعون ما يؤمرون به ، ويطيعون ساداتهم وكبراءهم ، لا بسبب قلة عقل فيهم ، وغباوة طبيعية ولدت أصيلة فيهم ، بل بسبب اجتماعي كان نافذاً في ذلك العهد ، نظام وصف أبلغ وصف في هذه الآيات آية الاحزاب ٦٧ : « وقالوا : ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبرائنا ، فأضلونا السبيلا . ربنا آثمهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيراً » ، وآية المؤمن ٤٧ : « فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار » ، وآية سبا ٢٢ : « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمرونا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً » .

والعظمة عندهم هي في الحسب والنسب والمال والجاه . آباء الرجل بضاعته ، ورأس ماله في التباهي والتفاخر في المجتمع : يتخايل بهم على الناس ، ويتفاخر بمفاخرهم على غيره من أهل بلده . فإذا جلس في مجلس تعاضم تعاضم آبائه وأجداده ، وتفخر بهم ، وإذا دخل نادياً ، أجاس في الموضع الذي يلائمه ، أي في المكانة التي يتمتع بها عند الناس بحسب نسبه وحسبه . وإذا تقدم عليه أحد دونه صيتاً وشهرة في الآباء

والأجداد ، ثار وغضب ، عاداً ذلك اهانة له وللأعراف الموروثة المقدسة التي يجب ألا تمس بسوء . وطالما وقعت الخصومات بسبب تفاخر بعض على بعض في الآباء والأجداد والأحساب والأنساب ، حتى صار هذا التفاخر سمة من سمات الجاهلية الممقوتة ، وحتى نهى عنه الاسلام ، وذم المتباهين بأبائهم وبأجدادهم السائرين على سننهم ، المتخذين إياهم قدوة ، كما ورد ذلك في مواضع عديدة من القرآن وفي كتب الحديث (١) .

ولهؤلاء العظماء الكبراء أصحاب الجاه والمكانة والرأي مشية خاصة ، وهياة مصطنعة في المشي ، اصطنعوها لتكون لهم علامة فارقة تميزهم عن بقية عباد الله . واتجعلهم فوقهم حتى في السير والمشي ، فلا يشبهون غيرهم من العامة السواد . فكان أحدهم إذا سار ، شمع بأنفه ، وسار مختلاً متبخترأ ، يجر إزاره بطراً وخيلاء وكبراً وعجباً وتيهاً ، فكانه يتحدى المارة في بلوغهم المقام الذي بلغه . والى هؤلاء المتعجرفين المتكبرين وردت الاشارة في الآية الكريمة في الاسراء (٣٧) : « ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض وان تبلغ الجبال طلولاً » . وفي آية لقمان (١٨) : « ولا تصغر خدك للداس ، ولا تمشي في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور » وفي آية النساء (٣٥) : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » . وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم (٢) ، كما اشير اليهم والى عجرفتهم وغطرستهم في كتب الحديث (٣) .

وكان من سمات هؤلاء المتعجرفين المنطرسين المتباهين بالأحساب والأنساب ، طعن بعضهم بعضاً في الحسب والنسب . فبلد بضاعة رؤسائه التفاخر والتباهي بماضي الأسر وبماضي الآباء والأجداد ، وقدر الانسان فيه بمقدار تفاخره بحسبه ونسبه لا بعمله وفعله ، لا بد أن ينتهي الى تناول أحدهم الآخر وثلب أحدهم نسب الآخر وطعنه فيه . وهو وضع يؤدي الى الغيبة والتفاق والشتم ، ثم اثاره القلاقل والمشكلات . فكان أحدهم يلمز الآخر وينبزه بالألقاب هزواً وسخرية ليظهر نفسه على خصمه ،

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري « ٢٤٧/١١ وما بعدها » .

(٢) راجع فهارست القرآن الكريم فيما يتعلق بهذا الموضوع .

(٣) جامع الاصول [٢٤٤/١١] في الكبر والعجب .

شأن المجتمعات الصغيرة الجاهلة الفقيرة في هذا اليوم . وقد لاحظ الرسول ذلك ،
وعد هذه الحال من خلال الجاهلية وأمورها (١) ونهى عنها . ورد هذا النهي في القرآن
الكريم وورد في الحديث .

ولم ينفرد السادة أشراف مكة عن الطبقة الدنيا من أبناء بلدتهم بالمشية المذكورة
وحدها ، بل تميزوا عنهم بطريقة كلامهم أيضاً ، فكانوا اذا تكلموا ، تكلموا بنبرة خاصة
تشير الى التعظيم والترفع ، وبصوت مرتفع عال يدل على ارتفاع منزلة المتكلم عن
منازل سائر المتكلمين والسامعين . واقناعهم هو برفع الصوت . وقد أشير الى ذلك في
القرآن الكريم كذلك في الآية الكريمة في سورة لقمان (١٨) : « واقصد في مشيك
واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » ،

والسواد الأعظم فقير الحال ، لا يملك شيئاً ، يعيش على حساب الطبقة العالية
والأنثريا ، مقابل خدمته لها وتأدية ما تطلبه منه . وهم طبقة كبيرة واسعة بالنسبة الى
سادات قريش ، فقد كان في ملك بعضهم عدد كبير من الخدم والأرقاء يقومون بخدمتهم
في مقابل اعاشتهم وبقائهم ، وقد كان بعض ساداتهم في غاية الغلظة والقسوة والشدة
عليهم ، فاذا عجز الرقيق وتقدمت به السن ولم يبق في امكانه القيام بعمله كسابق عهده ،
أهمله سيده وتركه وشأنه ، وهذا مما أثر بالطبع في نفس هذه الطبقة ، وجعلها ترجو
من آلهتها الخلاص من هذا الوضع ، لتحسن حالها ، ولتتمكن من تحصيل قوتها
على الأقل .

وهذا الفقر أيضاً هو الذي دفع الفقراء وأصحاب الدخل المتوسط الى الرخص
وراء الميسر والأزلام ومضاربات القمار كما يفعل أمثالهم في الزمن الحاضر ، طمعا في
الكسب والربح ، وأملا في اصلاح الحال ، والى وأد البنات خشية املاق ، وغير ذلك
من عادات تكونت فيهم من فقرهم واملاقهم . وقد أشير الى بعضها في القرآن الكريم
وفي الحديث . ولضررها هذا نزل الأمر بتحريمها في الاسلام .

وبلدة مثل مكة مقدسة ومتاجرة وعاصمة للثقافة والحياة الدينية ولها اتصال
بالخارج ، وبأرقى الأماكن بالنسبة الى ذلك العهد لا بد أن يكون بين سكانها جماعة من

(١) جامع الاصول (٣٤١/١٢) .

المثقفين ومن الباحثين في أمور الدين ومن القراء الكاثين والواقفين على أخبار العالم وعلى الحركة العلمية في الخارج . أما مانجده في كتب أهل الأخبار من أخبار تفيد قلة عدد القراء الكاثين وتفشي الجهل في مكة وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب ، وأمثال ذلك ، فإن الحديث في ذلك يخرجنا عن صلب هذا الموضوع ، ويدخلنا في موضوع لا علاقة رئيسة له بهذا البحث ، على أنني قد تكلمت في هذا بتفصيل وافضة في القسم الثقافي الخاص بالجاهلية من تاريخ العرب قبل الاسلام . ثم إن أخبار الأخباريين هذه لا تتفق مع مانجده في القرآن الكريم من وقوف القوم على أساطير الأولين وعلى أخبار الماضين وعلى أحوال الدنيا في ذلك الزمان ، ومن احاطتهم بالقراءة والكتابة والمعرفة ، بدليل ورود مصطلحات وألفاظ فيه ، لا يمكن وجودها أبداً في لغة قوم ليست لهم علم ومعرفة بالقراءة والكتابة . ولا جماعة من القراء الكتاب . وكيف يمكن ورود ألفاظ ومصطلحات ذوات مدلولات علمية وثقافية في لغة العرب وخاصة في القرآن الكريم وفي معرض مخاطبة قوم ظهر الرسول بينهم وجاء لارشادهم مثل قرطاس وقراطيس وكتاب ومداد وأقلام وصحف و « يقرؤون الكتاب » ، واكتب وتلمي وقراء وتسلمي وتخطه وكتب والحكمة وبعلم والعلم وتعلمون وعلم وعالمون والعلماء ، لو لم يكن لهم علم بمعاني هذه الكلمات وبمدلولاتها وإدراك تام لمعانيها ومرادها ؟ ثم إن في أخبار الأخباريين أخباراً تناقض زعمهم المذكور ، وذلك كما شرحته في مكانه من كلامي على الواحي الثقافية للعرب قبل الاسلام .

ووجد بين الموالي والأجناب المقيمين في المدينة ومكة من كان يحسن الكتابة والقراءة بلغة قومه ، ويقرأ كتبهم . فكانت في المدينة مدارس « مدراس » تفقه فيها اليهود أحكام دينهم ، وتفسر لهم كتبهم ، وتقص عليهم ما ورد في كتب أحبارهم من قصص وتعاليم في أحكام « آية يهود » . وقد بقيت قائمة حتى اجلائهم من الحجاز اجلاء جماعياً في خلافة عمر .

وقد كان هؤلاء يذيعون قصصهم بين أهل المدينة ، ولعلمهم كانوا يقومون بالتبشير في اليهودية أيضاً طمعاً لتكثير عددهم ، وتقوية مركزهم ، بعد أن تمكن عدد منهم من تهويد أناس من العرب في اليمن ، ومن تكوين جالية يهودية قوية فيها . ومن تأسيس حكومة يهودية نكالت بنصاري نجران .

وكان اليهود ، كما تقول كتب الحديث والأخبار ، يقولون بقرب ظهور رجل منهم يعيد اليهم الملك ، وينتقم من أعدائهم ، يخوفون به العرب ، ويرجون أن يكون ذلك اليوم قريباً . وكان اليهود أصحاب ملك ومال ونفوذ في منطقة المدينة الى جنوب فلسطين . ولا بد أن يكون لأهل مكة علم بما كان يقع خارج جزيرة العرب من حوادث ، ولا سيما العراق وبلاد الشام . وكيف لا يكون لهم علم بما كان يجري هناك . وتجارهم كانوا يسرون قوافلهم الى تلك الانحاء للتجارة ، وكانت سفن الحبشة والروم تقصد سواحلهم الغربية والجنوبية للتجارة . وسفن الهند والفرس تقصد السواحل الشرقية . فلا بد أن يقف هؤلاء التجار على ما كانوا يرونه من تطور هناك وعلى ما كان يحدث في تلك الأرضين من أحداث وأن يسمعوها من إخوانهم عرب العراق وعرب الشام أخبار الفرس وأخبار الروم وتطورات الأحداث في العالم . ولا بد أن يسمعوها من أصحاب السفن القادمة اليهم أخبار إفريقية وأخبار الهند والسواحل المقابلة لسواحل العربية الشرقية . وفي تذكير القرآن الكريم قريشاً بقلبة الروم في (سورة الروم) ، دليل على وصول خبر تغلب الفرس على الروم الى قريش ، وإلا لم خاطب القرآن الكريم قريشاً به ، منذراً إياهم بأن انتصار الفرس هذا لن يدوم طويلاً ، وأنه مهما طال فلا بد أن يعود الروم ، فيقلبوا على خصومهم ، ويسترجعوا ما خسروه ، ولذلك فليتدبر رجال قريش ، وليعتبروا بهذا الحادث العالمي الخطير .

ووصف القرآن الكريم الأعراب ، أي البدو سكان البادية ، بالغلظة والقسوة والشدّة وباتهاز الفرص . جاء في الآية : « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء » ، والله سميع عليم » (١) . ووصفوا في آيات أخرى بالنفاق : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » (٢) « وعن حولكم من الأعراب منافقون » (٣) ، كما وصفوا بالانتهازية وبالتربص : « سيقول لك المخلفون من الأعسراب : شغللتنا أموالنا

(١) التوبة : الآية ٩٨ .

(٢) التوبة : الآية ٩٧ .

(٣) التوبة : الآية ١٠٢ .

وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم . قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بوراً » (١) . « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا تتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل : إن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل فسيقولون : بل تحسدونا ، بل كانوا لا يفقهون الا قليلاً » . (٢)

ولوضع الأعراب الصعب في البادية ، وفقرهم وانقسامهم على أنفسهم إلى قبائل وعشائر اضيق سبل المعيشة في الصحارى دخل كبير بالطبع في تكوين هذه العادات في نفوسهم . إنها طبائع لم تخلق فيهم خلقاً ، وإنما نشأت وتكونت فيهم نتيجة لهذه الظروف التي يخلق الأعراب فيها « وبها ينشؤون . فضيق ذات يدهم وفقر أرضهم وقلة خيراتهم ، كل ذلك جعلهم يقظين حذرين ، منتهزين للفرص مع الغالب على المغلوب وراء الغنيمة ، والغنيمة هي الرزق الطيب الوحيد الذي يقع في أيديهم والذي يمكن أن يحصلوا عليه . إنهم حذرون من أهل المدر ، لا يثقون بهم . وهم يحسدونهم بالطبع لما منحتهم الطبيعة من نعم وخيرات ، وقد تعود أهل المدن والقرى استغلالهم والاستفادة منهم . وهم لا يملكون من سلاح يقاومون به أهل المدن إلا سلاح الفارات إن ساعدتهم الظروف وشجعهم عليها ، وإلا فبترصيتهم وبإظهار النفاق لهم . والقنوع بما يحصلون عليه منهم ، وليس لهم من سبيل غير ذلك . وغلظتهم هذه وجفاؤهم وأعرايتهم ، لم تكن خلقاً خلقوا وجبلوا عليه ، وإنما هي حاصل هذه الطبيعة الصحراوية ، وحاصل الانزال بعيداً عن الحضر في البادية ، فشسأ هذا الفرق بين الحضري والبدوي ولولا ذلك لما كان هنالك في .

ولم تشاهد مكة غزواً أو فتحاً ، قام به أجنبي ، إلا غزو الحبش لمحاولة الاتصال

(١) الفتح : الآية ١١ وما بعدها .

(٢) الفتح الآية ١٥ .

بالروم حلفائهم، والسيطرة بذلك على العربية الغربية، أو على جميع جزيرة العرب فيما بعد. ولو تم ذلك، لكان معناه خضوع هذه المنطقة المهمة للسيطرة على أخطر منطقة مائية ذات أهمية في التجارة البحرية لسلطات نصرانية. ومؤدى هذا نزول ضربة قوية مؤثرة على رقاب أعدائهم في العقيدة وفي السياسة الفرس الساسانيين أصحاب المعسكر الشرقي في السياسة الدولية لذلك العهد. وقد منى ذلك الغزو بأخفاق شديد، ليس بسبب وقوف أهل مكة أمامه، وبسبب جيوشهم الجرداء المزودة بالأسلحة الفتاكة التي فتكت بهم وهزمتهم، بل بسبب قيام عامل آخر لم يكن لأهل مكة دخل فيه، هو انتشار وباء خبيث بين الحبش، فتك فيهم، وأهلك أكثرهم واضطر الناجون منه المتعالمين عليه إلى الفرار. وكان ذلك في السنة التي عرفت عند مكة بـ «عام الفيل».

وكان هذا الغزو والخاسر، كان إنذاراً لأهل مكة، بوجود التيقظ والنمؤ، لا لطرده الحبش عن مكة وعن كل مكان من جزيرة العرب، بل لطرده كل غريب عنها، ثم لنشر رسالة عالمية بشر بها رجل من هذه القرية، هي رسالة محمد رسول الله.

لقد حاول الاسكندر الأكبر السيطرة على العربية الغربية، وفي ضمن هذه المنطقة الحجاز، فلم يفلح أسطوله في التمكن من السواحل الجنوبية والتفافه نحو السواحل الغربية، ولو تمكن من ذلك واستولت جيوشه على المواطن البعيدة عن الساحل، لكان لجزيرة العرب تأريخ آخر. وحاول القيصر «أوغسطس» الاستيلاء عليها بعد ذلك، للاتصال بالعربية السعيدة والسيطرة عليها وعلى المحيط الهندي بعد ذلك، ولكنه لم يتمكن كما رأينا، وحاول البرتغاليون الاقتداء بفعل الحبش فلم ينجحوا، وهكذا كتب لمكة ألا تظأها أقدام الغزاة في الجاهلية وفي الاسلام.

وخلاصة ما يمكن أن يقال عن مكة في أيام الرسول أنها كانت مركزاً مهماً في الحجاز، ذا قدسية خاصة، وذا مكانة كبيرة في عالم المال والتجارة في العربية الغربية لذلك العهد، تتحكم فيها مظاهر الجاهلية من التفاخر بالأنساب والأحساب والمال والجاه، وتسيطر عليها نزعة استبداد القوي بالضعيف، وسيطرة الغني على الفقير.

أكتفي بهذا الموجز عن أحوال مكة وسكانها ، لأدخل الى فصل جديد في ميلاد
الرسول ثم في مبثته وهو في الأربعين من عمره . وقد أؤاخذ على اهمالي البحث في
أمور كثيرة كان من الواجب ذكرها عن الجاهليين بتفصيل ، وجوابي أنني ذكرت في
المقدمة أن هذا الكتاب باجزائه هو استمرار وصلة لأجزاء كتابي : « تاريخ العرب
قبل الاسلام » ، وأني لذلك أكتفيت بما ذكرت فيه عن اعادته في هذا الكتاب .
فمن أراد التوسع والتبسط ، فعليه الرجوع الى هذا الكتاب .

الفصل الثالث

من الميلاد الى المبعث

والله اعلم بالصواب هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وهو عبد الله ورسوله ، وبني وبشر مثل سائر البشر . وهو لا يختلف عن البشر إلا في النبوة ونزول الوحي عليه ، فقد ورد في القرآن الكريم : « قل : إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى الي أنما الحكم الله واحد » (١) . وعلى هذه الآية وبوحيا يجب السير في تدوين السيرة النبوية وتأريخها ، ولو سار المؤرخ بموجها وبموجب وحي آيات القرآن الأخرى ، لجنب نفسه الوقوع في المزالق والمآخذ ، وجعل السيرة النبوية سيرة حية : سيرة نبي مرسل بالمعنى الاسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة ، ولو جنب أصحاب السير المتأخرون سيرهم القصص الاسرائيلي الذي أدخل على السيرة وعلى الاسلام ، والذي لا يتفق مع هذه الآية ومع أحكام القرآن ، لأراحوا السيرة وجنبوا الناس الأخذ بهذا القصص الذي بنى عليه بعض المستشرقين كما سنرى أحكاماً وآراء أساءت كثيراً الى الاسلام ، وأرادوا بها التشكيك بصاحب الرسالة وبالمسلمين .

ويعد المؤرخ الأرمني « سبيوس Sebeos » وهو من رجال القرن السابع للميلاد ، من أوائل المؤرخين الذين أشاروا الى الرسول . وقد ذكر أن محمداً كان من « الاسماعيليين » « Ishmaelites » ، وقد أنذر قومه بالعودة الى دين آبائهم « ابراهيم Abraham » ، ووعدهم بالفوز . وعلم هذا المؤرخ بالاسلام قليل جداً (٢) ، وهو لم يشر الى المورد الذي أخذ منه أخبار الرسول والمسلمين ، ولا يستعبد أن يكون أحد المسلمين (٣) ولقطة محمد ، من أصل « حمد » ، ومن هذا الأصل : أحمد وحامد وحماذ

(١) الكهف : الآية ١١١ ، البقي ، كتاب البدء والتاريخ ، (٣١/٤) .

(٢) Chronicle of Sebeos. Petrograd, 1879, P. 104 ff., Ency. of Reli. and Ethn., 8, P. 872.

Ency. of Reli. and Ethn. Vol. 8, P. 872.

(٣)

وحديد وحمد وحديد «نصغير حمد» ومحمود وما شاكل ذلك من أسماء (١)
وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الجاهليين عرفوا بـ «محمد» ، ونصوا على
أسماء سبعة أو أكثر من ذلك عرفوا به (٢) . وورد هذا الاسم في كتابة جاهلية (٣) .
ووردت لفظة : «حمدة» اسم علم للنساء في «كتاب الحميرين» The Syrian Book (٤) ،
« of himyarites » . كما وردت في كتابات عربية جنوبية لفظة «يحمد» في أسماء علمية
مركبة تركيباً اضافياً أو مزجياً (٥) . ولفظة «حمد» اسماً لرجال ولقبيلة في بعض
كتابات الصفيين .

(١) اللسان « ١٢٥ / ٤ » ، الطبري « ١٧٢ / ٢ » .
(٢) ممن سوا بذلك : محمد بن سفيان بن جاشع التميمي ، ومحمد بن عوازة الليثي الكتاني ، ومحمد
بن بلال بن «عقبه بن أحيحة» الجسلاج الأوسي أحد بني جحجي ، ومحمد بن حران بن مالك
الجعفي المعروف بالشويعر ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري أخو بني حارثة ، ومحمد بن خزاعي بن
علقة ، ومحمد بن حرمان بن مالك التميمي ، اللسان « ١٢٥ / ٤ » ، تاج العروس « ٣٣٩ / ٢ » ،
ابن دريد : الاشتقاق (ص ٦ وما بعدها) ، ابن سعد : الطبقات [١ / ١] [ص ١١١] ،
« وذكر بعضهم : أنه لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم يعني محمداً قبله إلا ثلاثة . » ،
السيرة الحلبية « ٩٥ / ١ » ، الخبر « ص ١٣٠ » الروض الانف « ١٠٥ / ١ » وما بعدها ،
أنساب الاشراف ، الجزء الاول « تحقيق الدكتور محمد حميد الله » ، اخراج معهد المخطوطات
بجامعة الدول العربية ودار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ - الصفحة ٥٣٨ - ، « وقد عد بعضهم ممن سمي
بمحمد ستة عشر ، ونظمهم في قوله :

ان الذين سموا باسم محمد	من قبل خير الخلق ضعف ثنائي
ابن البراء جاشع بن ربيعة	ثم ابن مسلم بجمدي حرمان
ليثي التميمي وابن أسامة	سمدي وابن سواة همداني
وابن الجسلاج مع الاسيدي بافتي	ثم الفقيمي هكذا الحراني

قال بعضهم : وفاته آخران لم يذكرهما . وهما : محمد بن الحرث ومحمد بن عمر بن مغفل .
بعض أوله وسكون المعجمة وكسر الفاء ثم لام . ووقع النزاع الكثير والخلاف الشديد في أول من سمي
بذلك الاسم منهم . اقول : وفي شرح الكفاية لابن الهائم ، ويمكن أن يكون من زاد على
أولئك الاربعة أو السبعة ، سمع ذلك من بعضهم ، فاقتدى به في ذلك طمعاً فيها طمع فيه
والذي أدرك الاسلام ممن تسمى باسمه عليه السلام : محمد بن ربيعة ومحمد بن الحرث ومحمد بن مسلمة ،
وادعى بعضهم ان محمد بن مسلمة ولد بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من خمسة عشر سنة .
وقد ذكر ابن الجوزي : ان أول من تسمى في الاسلام بمحمد : محمد بن حاطب . « ، السيرة
الحلبية « ٩٨ / ١ » ، الآثار الباقية للبيروني « ٣٨ / ١ » .

Corpus inscriptionum Semiticarum, Pars IV, t. II, P. 104 (٣)

Shorter, P. 391 (٤)

Rep. Epi Semi, VII, P. 422, VII, 442 (٥)

وأما النص الجاهلي الذي ورد فيه اسم رجل يدعي «محمداً»، فهو شاهد قبر، هذا نصه: «نفس محمد بن ذات وسعت. وليقمعن عثر ذي شترنهو» (١) ومعناه: «قبر محمد بن ذات وسعة» واسعة. وليقمعن «الاله» عثر من «الذي» يزيله. ولقطة «شتر» من الالفاظ الواردة في العبرانية وفي لغة بني إرم (٢). وهي تعني القطع في عربية القرآن الكريم (٣).

وقد عثر على حجر حفرت فيه صورة فلاح يحرق أرضاً، وقد كتب تحت الصورة هذه الجملة: «نصب يحمدا قشفتقن وخرت وخل» (٤). ويظهر من هذه الكتابة أن اسم صاحبها هو «يحمدا»، وأن هذا الاسم كان معروفاً في اليمن قبل الاسلام، وهو اسم قريب من اسم محمد.

وتذكر كتب السير أن عبدالمطلب هو الذي سمي الرسول محمداً، سماه في يوم سابعه، أخذه، فدخل به الكعبة، ثم خرج به الى أمه فدفعه اليها، وفي هذا اليوم علق له على عادة العرب في ذلك العهد (٥). وتذكر أيضاً أن قريشاً قالوا لعبدالمطلب ما سميت ابنك هذا؟ قال: سميت به محمداً. قالوا: ما هذا من أسماء آبائك! قال! أردت أن يحمدا في السموات والأرض» (٦).

و «العقيقة» من العادات التي كان يراعيها الجاهليون حين ولادة مولود لهم. وتكون عادة في اليوم السابع من ميلاد الطفل. وفي هذا اليوم يذبحون الذبيحة التي يسمونها العقيقة ويحلقون شعر الطفل أو بعضه، ويمسحون شعر الطفل الباقي

(١) C - I - S - , IV , II , P 101 , Num. 420

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تاج العروس الجزء الثالث مادة «شتر»، وكذلك بقية معجمات اللغة.

(٤) تأريخ العرب قبل الاسلام «١٩٤/١»

Rep - Ebi - , VII , P - 422 ، VII , P - 442 .

(٥) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد (١٩/١)، الواهب (٢٤١)، الحلبي (٩٤/١ وما بعدها)، الروض الأنف (١٠٦/١ وما بعدها)، سيرة ابن هشام (١٦٦/١ وما بعدها).

(٦) الاشتقاق (٦)، تأريخ الاسلام، الذهبي «١٣/٧ وما بعدها»، تفسير روح المعاني «٧٣/٤».

أو رأسه بدم الحقيقة ، ثم يعلنون عن اسم المولود . وهي من العادات الجاهلية التي أقرها الاسلام (١) .

ومحمد بالاجماع من أسرة تعد من خيرة أسر قريش ، لها الزعامة الدينية في مكة ، ولها مكانة اجتماعية في قومها بسبب توليها البيت الحرام ، ولكنها لم تكن من الأسر الغنية . وقد ظهر فيها رجال كانت لهم رئاسة قومهم ، وذكرت لهم اصلاحات عديدة وأعمال كثيرة في مكة . لها صلة بالبيت الحرام وبالمدينة ، لم يشك في ذلك أحد من المؤرخين (٢) .

وقد ورد اسم النبي في أربع سور من سور القرآن الكريم ، هي : آل عمران ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، وكلها سور مدنية . وقد اتخذ بعض المستشرقين ذلك حجة على الرسول لم يكن يعرف قبل الهجرة بمحمد ، لكن باسم آخر ، فذهب « شبرنكر Sprenger » مثلاً الى أن لفظة « محمد » لم تكن اسم علم الرسول ، وإنما اتخذته بتأثير قراءته للانجيل واتصاله بالنصارى . وقد أيد هذا الرأي مستشرقون آخرون (٣) . حتى ذهب بعضهم الى أن الرسول كان يحسن اليونانية ، وأنه اتخذ اسمه « محمداً » من « بارقليط Parakletos » الواردة في انجيل يوحنا والمترجمة بـ « منحنانا ، منحنانا Manhamana » في الارمية . وذلك كما سنرى بعد قليل . فلما وجد البشارة بظهور « البارقليط » ، أي « المنحنانا » ، يخرج الناس من الجاهالة والضلال الى الصراط المستقيم ، اخذ اللفظة السريانية وتمسك بها فادعى أنه هو « المنحنانا » وصير اللفظة محمداً ، وألقى على لسان الانجيل — كما زعموا — أنه هو الذي بشر به المسيح (٤) .

(١) صحيح البخاري « ٥٩٢/٣ » ، سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : مع الغلام عقيقة ، فأهرقوا عنه دماً ، وأميطوا عنه الأذى » ، التجريد « ١٢٥/١ » .

Wellhausen, Reste, S, 174, Smith, Kinship, P, 152. Shorter, S, 34, Enc. of Reli, and Ethn, VOL, 8, P, 873, (٢)

Sprenger, I, S, 155 ff. Noldeke, I, S, 9, ann. 1, (٣)

Noldeke, I, S, 10, Hartwig - Hirschfeld, Now Researches into (٤)

the Composition and exegesis of the qoran, London, 1902, P, 38
I, 139, Caetani, Annali, I, 151, Bethge, Rahman et Ahmad Bonn, 1876, P, 53,

وقد تطرق « كيتاني » الى الروايات التي أوردها أهل السير والأخبار عن اسم النبي ، وتطرق كذلك الى المواضع التي ورد فيها اسم الرسول (محمد) في القرآن الكريم ، ثم انتهى الى أن من الصعب البت في الاسم الذي أطلق على الرسول يوم ولد وأيام طفولته . وهو في ذلك متابع لـ « شيرنكر » ، الذي يستند الى رواية صاحب السيرة الحلبية . كما سترى فيما بعد . (١)

وقد استند هو وأمثاله من المستشرقين الى السور المدنية المتقدمة والى خبر ورد في كتاب : « انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون » المعروف بـ « السيرة الحلبية » - هذا نصه : « وفي الامتاع : لما مات قثم بن عبدالمطلب قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بثلاث سنين ، وهو ابن تسع سنين ، وجد عليه وجداً شديداً . فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سماه : قثم حتى أخبرته أمه آمنة : أنها رأت في منامها أن تسميه محمداً . فسماه محمداً » (٢) .

والخبر ضعيف . وقد اشار صاحب السيرة الحلبية نفسه الى ضعفه ، وهو لا يوثق به . ولم يعبأ به كبار الرواة ، مما يدل على عدم صحته في نظرهم . أو عدم وقوفهم عليه . واستندوا الى حديث آخر يتصل سنده بابن عباس ، هذا نصه : « إسمي في القرآن أي كالتوراة محمد وفي الانجيل أحمد » (٣) .

وقول مثل هذا ، لا يمكن أن يعتمد به . فقد عرف الرسول بـ « محمد » في جميع أدوار حياته . عرف بها بمكة أي قبل هجرته الى يثرب كما عرف بها بعد هجرته الى المدينة . حتى الجاهليون عرفوه بها ، ودعوه بها في مخاطبتهم وفي هجائهم له ، كما يابعه من دخل في الاسلام بها . ووردت في جميع كتب اليهود والمواثق . وفي كتاب الله وردت علماً ، غير معرف . ولو كانت صفة له ، لعرفت باداة التعريف . ولم يثبت أنها من النعوت المنقولة عن أصل يهودي أو سرياني . (٤)

(١) حسين جاهد : إسلام تأريخي « ٣٥٢/١ » « نوط ١ » استانبول ١٩٢٤ .

(٢) السيرة الحلبية [٩٥/١] ، [باب تسميته صلى الله عليه وسلم محمداً وأحمد] .

(٣) السيرة الحلبية [٩٨/١] .

ونجد في كتاب الصلح الذي عقد بين النبي والمشركين في أمر الهدنة بعد الحديبية، دليلاً واضحاً صريحاً يفند زعم «شبرنكر». ولو كان هناك أدنى شك في اسم النبي، وكان الرسول قد تسمى «محمدأ» في المدينة، لرفض «سهيل بن عمرو» ممثل قريش ومبعوثها قبول هذه التسمية الجديدة، ولدعاه باسمه القديم. فقد اعترض «سهيل» على النبي في استعمال الجمل والمصطلحات الإسلامية، مثل جملة بسم الله الرحمن الرحيم التي اعترض عليها ولم يقبل استعمالها ووافق الرسول على استعمال باسمك اللهم. ثم اعترض على استعمال جملة: «هذا ماصالح عليه محمد رسول الله» بقوله: لو شهدت انك رسول الله لم أقانلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتب: «هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله» (١).

ولم يذكر أحد من الكتبة النصارى القدماء من أمثال: «ثيوفانس البيزنطي» و«القديس يوحنا الدمشقي» وأمثالهما من الكتبة المعروفين بتهمجهم على الاسلام والذين كانوا يتلصصون الأخبار عن الرسول، تسمية من التسميات الوثنية الخالصة من مثل: عبد اللات وعبد مناف وعبد العزى وعبد ود وما شابهها كانت للرسول ولو كان الرسول قد عرف باحداها أو بأمثالها، لآشار إليها ولا شك اولئك المتعصبون على الاسلام، الحاقدون عليه.

وسمي كفار قريش الرسول «مذمماً» أي ضد «محمد»، لغيظ الرسول والمؤمنين به، بما يدل على أن قريشاً كانت تعرف الرسول بهذا الاسم، وقد ورد في الخبر أن الرسول قال: «ألم تروا كيف صرف الله عني لعن قريش وشتهم، يشتمون مذمماً وأنا محمد» (٢).

وليس بضمير النبي أن يكون اسمه محمدأ أو أحمدأ أو قثم أو غير ذلك من أسماء، فكل هذه وأمثالها هي تسميات لم يضعها النبي لنفسه ولم يتدعها من عنده. لقد جاء الى

(١) ابن هشام «٣٣٢/٣».

(٢) «ولما نزلت «تبت يدا أبي لهب»، وذكر الله امرأته أم جميل، قالت: قد هجاني محمد؛ والله لأهجوته، فقالت:

محمدأ «مذمماً» قلينا ودينه أيننا

وأخذت فبرأ لتضربه به وهمت» البلاذري «١٢٢/١»، تفسير روح المعاني «٧٣/٤»، (٢٦٤/٣٠) تفسير الطبري «٥١٤/٢».

هذا العالم ، فدعي بها ، ومحمد وأحمد وقثم وأمثالها كلها من التسميات المعروفة في الجاهلية . وقد دعي وعرف بها قبل الاسلام بالطبع .

وفي كتاب « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والاموال والحفدة والمتاع » للمقريزي : « هو سيد ولد آدم : أبو القاسم ، وأبو ابراهيم ، وأبو قثم ، وأبو الأراذل ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وأحمد ، والمأحي ، والحاشر ، والعاقب ، والمفتي . ونبى الرحمة ، ونبى التوبة ، ونبى الملاحم » (١) . فجعل أبا قثم بعض كناه ، ولم يجعل « قثما » اسم علم له . على أن المؤرخين لم ينسبوا للرسول موالداً باسم قثم ، كما أن الغالبية لم تذكر هذه الكنية في الكنى التي عرف بها .

وفي أثناء حديث البلاذري عن عبدالله بن عبدالمطلب ، أي والد الرسول ، قال : « فأما عبدالله بن عبدالمطلب - ويكنى أبا قثم ، ويقال إنه كان يكنى أبا محمد ، ويقال : كان يكنى أبا أحمد - فولد محمداً رسول الله ونحاتهم أنبيائه » (٢) . فجعل أبا قثم كنية من كنى أبيه . والمعروف عن المؤرخين أن عبدالله لم يتزوج امرأة غير أمته . وأنه لم يعقب ولداً غير الرسول وبه كنى كما نرى من أبي محمد وأبي أحمد . وهما اسما النبي . فهل نعد قثم اسماً من أسماء الرسول ، فنقول إنه اسم الرسول القديم الأول . ولذلك كنى به ، أو نعد أبا قثم مجرد كنية عرف بها عبدالله على طريقة العرب في تسمية الرجال على سبيل التحبيب وإن لم يكن الرجل الذي أطلقت الكنية عليه من المتزوجين كما هو متعارف في بلادنا الآن . وقد عرف بها قبل زواجه الى يفاة . فلما توفي عبدالله وولد الرسول ، أطلق اسم قثم عليه تخليداً لتلك التسمية القديمة ثم مانت هذه التسمية ، بتقلب اسم محمد عليه .

ومن الجائز عندي أن تكون هذه الكنية ، هي التي أوهمت أولئك المؤرخين فجعلتهم يتصورون أن قثم هو اسم حقيقي ، وأنه اسم الرسول الأول . ومن الجائز أيضاً أن يكون هذا الاسم ، اسم ولد لعبد الله ولد من امرأة أخرى تزوجها قبل أمته . غير

(١) تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٤١ [الصفحة ٣] ، ابن الجوزي : المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة وعيون التاريخ والوعظ [ص ٤ وما بعدها] ، بغداد ١٣٤٨ ، بتاريخ الاسلام ، للذهبي (٢٤/١ وما بعدها) .
(٢) أنساب الأشراف [٩٢/١] .

أن هذا الافتراض يصطدم بما يذكره أهل الأخبار وما يجزمون به من أنه لم يتزوج امرأة أخرى غير أمته ، ومن أنه لم يولد له مولود آخر غير الرسول .

ونحن إذ نذكر هذه الافتراضات ، فإنما نذكرها على اعتبار أن ما ذكره هؤلاء المؤرخون هو شيء وارد وخير جائز وقوعه ، وروايات لاداعي بحملنا على تكذيبها ورفضها ، ولكننا لانستطيع على كل حال أن نؤكد لها وأن نشبها « وأن نقول بها » ، لمجرد أنها أخبار وردت في كتب قديمة مشهورة معتبرة ، وإن روايتها أناس طيبون ثقات ، فليس كل ما يروي وما يذكره أهل الأخبار كلاماً صحيحاً مضبوطاً ، وإن ورد في كتب معتبرة محترمة مقدرة ، فقد توفي عبدالله كما تذكر معظم الروايات والرسول في بطن به ، ومعنى هذا أن كنيته بأبي محمد أو أبي أحمد ، أو أبي قثم إنما هي في الواقع كنى أوجدها أهل الأخبار . ووضعوها هم له ، أطلقوها عليه لأن الرسول ابنه ، وهو محمد وأحمد فهو أبو محمد وأبو أحمد ، حتى أبو قثم على فرض الأخذ بالرواية الضعيفة التي ذكرتها إلا إذا عدنا إلى الافتراضات ولجأنا إلى الجادة التي يسلكها بعض الأخباريين ، في الوثوق بالأخبار من غير مناقشة ولا نقد ، فقلنا نعم : إن هذه الكنى صحيحة ، وإن عبدالله عرف بأبي قثم أو بأبي محمد أو بأبي أحمد في حياته ، فلما ولد المولود سمي باسم من هذه الاسماء ، أو باثنين منها أو بثلاثتها ، تخليداً للاسم أو للأسماء الواردة في كنية عبدالله . ومعنى هذا أنه سمي باسم قديم ، ولد قبل ميلاد المولود .

وعلى كل حال ، فقد كان لعبد المطلب ولد اسمه قثم من زوجه صفية بنت جندب وقد هلك صغيراً (١) ، كما كان للعباس بن عبد المطلب ولد عرف بهذا الاسم كذلك وكان فيمن غسل الرسول وولي دفنه (٢) .

وقد ضرب اسم الرسول على هذه الصورة : [MAAMET] في النقود اليونانية اللاتينية التي ضربت للمسلمين قبل استقلال المسلمين بضرب سكتهم وتعريبها . وقد كان ذلك بتكليف من الخلفاء . وقد ضربت الشهاداتتان بالحروف اللاتينية وبلغاة الروم (٣) .

(١) انساب الأنساب « ٩٠ »

(٢) انساب الأشراف « ٤٤٧ ، ٥٣٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧٧ » .

(٣) Josef Von Karabacek. Zur orientalischen alttumskunde. Wien. (٣) 1908, S. 61.

وسمى الرسول به « أحمد » في سورة (الصف) . وهي من السور المدنية وفي الآية : (واذا قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل : اني رسول الله اليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين) (١) .

وأحمد من الأسماء الواردة عند الجاهليين . وقد ذكر أهل اللغة والأخبار أسماء جملة أشخاص عرفوا بأحمد ، منهم : أحمد بن ثمامة بن جدعاء بطن من طيء ، وأحمد بن دومان بن بكيل بطن من همدان ، وأحمد بن زيد بن خدّاش « خدّاش » بطن من السكاسك (٢) .

وقد اتخذ بعض المستشرقين الآية المتقدمة دليلاً على أن الرسول غير في المدينة اسمه (محمدآ) فجعله (أحمد) ، وأنه فعل ذلك بتأثير أهل الكتاب . فالسورة مدنية ، وعدم ورود اسم (أحمد) في السور المكية دليل كما يقولون على أنه لم يكن يعرف به . وأنه إنما سمي نفسه به في المدينة بعد مقدمه إليها ، متأثراً بأراء بعض الشيع من أهل الكتاب ، وأنه - كما يفهم من سياق الآية - كان قد حكي رسول عيسى في بني اسرائيل « بما يدل على أنه حكى رأياً لأهل الكتاب : وجعلوا ذلك دليلاً في إثبات أنه كان يعرف اليونانية كما ذكرت ، وأنه كان وضعه في مكان كلمة « Paraclete , Parakletos » الواردة في انجيل يوحنا (٣) . وذهب بعضهم الى أن بعض المترجمين الجاهليين كانوا قد استخدموا لفظة (أحمد) في ترجمةهم لانجيل يوحنا ، وأن الرسول تعلمها منهم ، فأطلقها لذلك على نفسه . وغريب جداً قولهم ان الرسول سمي نفسه (أحمد) من تلك اللفظة اليونانية « فليس بين اللفظة اليونانية وبين التسمية العربية وهي (أحمد) شبه أو تقارب ، أو معنى ، كما أن الزعم الثاني وهو ترجمة بعض الجاهليين (انجيل يوحنا) الى العربية واستخدمهم لفظة أحمد في موضع اللفظة اليونانية ، هو زعم غريب لا يستند الى خير تأريخي . ولو كان ذلك حقاً لما سكنت عنه المؤرخون العرب أو السريان . ثم ان استعمال هذه اللفظة في تلك الترجمة معناها إفساد للترجمة ، واقتراء عليها ، وهذا ما لا يمكن السكوت عليه أو وقوعه من أحد (٤) .

(١) سورة الصف « ٦١ » الآية ٦ .

(٢) ابن دريد ، الاشتقاق « ٧ » .

(٣) انجيل يوحنا . الاصباح الخامس عشر الآية ، ٣٦ وما بعدها .

Noldeke, s. 9, ann. I.

(٤)

وقد كتب الانجيل المذكور باليونانية ، وترجمت لفظة (Pareletos) في الاصحاح الخامس عشر وفي الآية السادسة والعشرين وفي مواضع اخرى منه ، بلقطة (Comforter) وبـ (Advocate) وبـ (Helper) في الانكليزية (١) . وبـ (المعزى) في العربية (٢) . وأقرب هذه الكلمات الى المعنى الصحيح لفظة (Advocate) المقابلة للفظه (Advocatus) في اللاتينية ، ومعناها في العربية المحامي والمعين والمدافع والصير والمساعد والمواسي (٣) . وقد ترجمت الآية على هذه الصورة في العربية : (ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا اليكم من الأب روح الحق ، الذي من عند الرب ينبثق ، فهو يشهد لي) .

وقد حافظ الأخباريون على الأصل اليوناني للفظه ، ولم يترجموها . فجاء في السيرة الخلية : « وفي الانجيل : إن احببتموني فاحفظوا وصيتي . وأنا أطلب الى ربي ، فيعطيكُم بارقليط . والبارقليط لا يجيئكم مالم أذهب ، فاذا جاء وبخ العالم على الخطيئة . ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه ما يسمع يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب » (٤) . وقد ذكر صاحب السيرة أن البارقليط أو الفارقليط هو الحكيم والرسول (٥) .

وقد أخذت هذه الترجمة من إنجيل يوحنا ، من الاصحاح الرابع عشر ، ففيه : « إن كنتم تحبوني ، فاحفظوا وصاياي . وأنا أطلب من الأب ، فيعطيكُم معزياً باراقلط آخر » (٦) . ومن الاصحاح السادس عشر من الانجيل نفسه ، ففيه : « لكنني أقول لكم الحق . إنه خير لكم أن أنطلق ؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي البارقليط » ، ولكن إن ذهب أرسله إليكم . ومتى جاء ذاك ، يبكت العالم على خطيئته وعلى بر وعلى دينونة . . . وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى جميع الحق ،

Hastings, P. 15.

(١) .

(٢) راجع ترجمة التوراة الاميركانية .

Hastings, P. 15

(٣) .

(٤) السيرة الخلية ، ٢٤٨/١ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) الآية : ١٥ وما بعدها .

لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية : ذلك يمجّدني لأنه يأخذ عما لي ويخبركم » (١) والحديث كما نرى هو عن رجل يأتي من بعد المسيح ، ليكت العالم على الخطيئة ، وليرشدهم إلى الحق .
وقد ذكر المسعودي في كتابه « التنبيه والاشراف » ، أن المانوية تقول بالفارقليط :
الذي وعد به المسيح ، وهو « ماني » عندهم ، وذكر أن ماني نفسه ذكر ذلك في كتابه « الجبل » وفي كتابه المترجم بالشارقان وفي كتاب سفر الأسفار وغيرها من كتبه (٢) .
وذكر ذلك مؤلفون آخرون أيضاً (٣) ولهذه الإشارة شأن خاص في دراسة موضوع (المخلص المنتظر) . ولا أستبعد أخذ بعض العرب هذه الفكرة من القاتلين بظهور الفارقليط .

وذكر بعض الأخباريين أن الرسول هو (المنحمن) في الانجيل ، و (المنحمن) بالسريانية محمد (٤) . وهذه اللفظة هي « منجيم » منحيم Memhoun في العبرانية ، وهي من الصفات التي نعت بها العبرانيون المسيح ، وهي (Consolator) و (Comforter) في اللغة الانكليزية ، أي المسلي والمعزي (٥) وقد وردت في مواضع من التلمود والمدراش . وهي من الألفاظ المعروفة عند ارم فلسطين النصارى (٦) ومن هذا التقارب الملحوظ بين لفظة (منحمن) السريانية المستعملة بدلاً من لفظة (بارقليط) الواردة في انجيل يوحنا باليونانية « ولفظة (محمد) » ، استخرج أولئك المستشرقون رأيهم في أن الرسول أخذ اسمه ودعوى نبوته من ذلك الانجيل .
والذين قالوا إن (المنحمن) بالسريانية هي محمد ، وإنها (البرقليطس) بالرومية (٧) .
قد أخذوا قولهم هذا من مسلمة يهود ومن النصارى في جملة ما أخذوه عن أهل الكتاب .

(١) الآية ٧ وما بعدها إلى ١٧ .

(٢) (ص ١١٧) ، من طبعة الصاوي ، في أثناء كلامه على الطبعة الأولى ، (من ملوك الروم ، وهم الصابثون) .

Noldeke, I. S. 9. f. Engel, Manti, S. 51, 64, 162. f. Eusebius, his. Eccl. (٣) VII, 31.

(٤) « والمنحمن بالسريانية : محمد ، وهو بالرومية : البرقليطس » ، ابن هشام (٢٤٨/١) ، السيرة الحلبية (٢٤٨/١) .

Hastings, P. 15

(٥)

Levy, Neuhebr. Wörterbuch, III, s. 158, Noldeke, s. 9.

(٦)

(٧) عيون الاثر (٦٧، ١)

وهو من هذا القصص الذي نرجو أن يأتي يوم يتدارسه فيه العلماء دراسة علمية عميقة مبنية على النقد والمقابلة مع الأصول اليهودية والنصرانية القديمة ، ليكون في الوسع البت في أمثال هذه الموضوعات فيقوم فيه العلماء بثبيت الموارد على وفق التسلسل التاريخي ، وبمراجعة الروايات والأخبار ونقد سندها ورجالها ، ومقابلة الاسرائيليات والنصرانيات بأصولها الواردة عند اليهود والنصارى . وعندئذ ستكون لدينا دراسة علمية دقيقة ترشدنا الى حقائق من صلات الأديان بعضها ببعض ، نجهلها في هذا اليوم .

وليس لبعض المستشرقين القائلين إن الرسول أخذ اسمه محمداً من لفظة (Hemdath) الواردة في سفر [حجي Hagai] في العهد القديم ، سند ودليل يؤيد هذا الزعم (١) . وتعني هذه الكلمة (المشتى) و (الأمل) ، أي أنها بمعنى له صلة بفكرة الرجل المنتظر (Messiah) . ويرى الباحثون في هذا الزعم أن ذلك مجرد مصادفة ، لأن لفظة محمد من الألفاظ المعروفة عند الجاهليين والواردة في الكتابات الجاهلية ، وليست من الأسماء المجهولة عند العرب قبل الاسلام ، فيقال إن الرسول أخذ اسمه من هذا الموضع من العهد القديم (٢) .

وذكر بعض الأخباريين أن الرسول هو [مشفح] ، و [مشفح] كلمة إيرمية من أصل (شفحا) الفرمية وتعني (الحمد) ، كما في هذه الجملة (شفحا لاها) أي (الحمد لله) (٣) . ويظهر أن أحد السريان أخبر الأخباريين أن لفظة أحمد هي في معنى (مشفح) ، وأنها اسم علم عندهم . ومنه أخذ أولئك الأخباريون قولهم إن (مشفح) من أسماء الرسول .

وذكر صاحب السيرة الحلبية أن الرسول هو أيضاً (حمياطاً) . وقيل [حمطايأ] ، أي بحمي الحرم من الحرام . و [قداميا] أي الأول السابق . و [يندينسد] و [اعيد] ، بمعنى يمنع نار جهنم عن أم . و [طاب طاب] أي طيب . وذكر أن كل هذه الألفاظ هي أسماء في التوراة (٤) .

(١) حجي ، الاصحاح الثاني ، الآية السابعة .

(٢) Eney, of Reli, and Eth, Vol. 8, P. 873.

(٣) تاريخ الخميس (٢٠٦/١) .

Goldziher, in ZDMG., Bd. 32, 374, Noldeke, I. s. 9.

(٤) السيرة الحلبية (٢٤٨/١) .

وذكر أيضاً أنه [منحمننا] كما ذكرت ، و [حنبط] أي يفرق بين الحق والباطل ،
و [البارقليط] ، و [صاحب المدرعة] ، وأنه [راكب الجمل] ، وكل ذلك في
الانجيل (١) .

وكل هذا المروي عن [حمطايا] و [البارقليط] و [مشفح] و [منحمننا] و [شفحنا]
و [حنبط] وأمثاله ، هو من الأخبار التي نقلها الأخباريون عن أهل الكتاب . وهو
يتعارض مع طبيعة رواية السيرة الواردة في أقدم كتب السير والتواريخ ، ولو كان
بحسبنا في موارد السيرة النبوية، لكتبنا في ذلك، ولرجعنا إلى المصادر التي أمدت الأخباريين،
ولكن كتابنا هذا في موضوع آخر لا علاقة له بتقد الموارد والمراجع . وهو يريد السيرة
نفسها ، ولذلك ترك هذا الأمر لغيرنا راجين أن يأتي يوم يتولى فيه باحث من الباحثين
دراسة هذا الموضوع .

وبلاحظ أن بعض الروايات ترجع تسمية النبي [أحمد] إلى يوم ولادته ، فتذكر
أن [أمنة] ألهمت أن تسمى ابنها [أحمد] يوم شعرت بدنو ولادته (٢) . والمعروف
في الروايات المشهورة أنه سمي بـ [محمد] . ثم إن اشتهار النبي بمحمد « ووروده في
مراسلاته مع المشركين والقبائل وفي صحف العقود والصلح والشعر في مكة ثم في
المدينة ، وفي مواضع من القرآن الكريم ، كل ذلك دليل على أن اسم الرسول الأول
هو محمد « وأن التسمية الثانية ، وهي أحمد ، المذكورة في موضع واحد من القرآن
الكريم إنما اشتهر بها بعد التسمية الأولى . بعد مقدمه المدينة ، وهي دور الأولى
في الاستعمال .

وعرف الرسول بكنيته أيضاً ، وهي أبو القاسم ، والغالب ذكرها قبل اسمه ،
فيقال أبو القاسم محمد ، وذلك في باب الاستعانة به في الغالب ، والقاسم هو ابن

(١) السيرة الخلية (٢٤٨/١) .

(٢) طبقات ابن سعد (١٠٤/١) وما بعدها ، « أمرت أمّنة وهي حامل برسول الله

صلى الله عليه وسلم ، أن تسميه أحمد » .

الرسول الأكبر ، وقد توفي في حياته (١) . وهذا الاسم هو من الأسماء الواردة في
الكتابات الجاهلية . وقد ورد في بعض الكتابات الصفوية (٢) .

وليس الرسول اسم علم غير هذين الاسمين الواردين في القرآن الكريم . غير
أن أهل السير والأخبار يذكرون له أسماء أخرى لم ترد في القرآن الكريم ، وإنما هي
في الواقع نعوت وأوصاف له مثل المتوكل والمحيي والناشر والمصائب والمقفي ونبي
التوبة ونبي الرحمة ونبي الملحة والقانع والأمين (٣) .

وقد اشتهر الرسول بـ (المصطفى) كثيراً ، وإذا قيل (ديني المصطفى)
عني به (دين محمد) أي الاسلام . وترد لفظة (المختار) بعد « المصطفى » ، ويراد
به الرسول . وترد اللفظة معرفة بأل . وقد وردت علماً بغير أداة تعريف ، وهي
تسمية الأشخاص . ومن مثال ورود لفظة المصطفى في الشعر ما مدح به الخزين
الكناني طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر .

أبسمك الذي صدق المصطفى وسار مع المصطفى حيث سارا (٤)

والقانع بين الاس ان « طه » و « يس » من أسماء الرسول . ولكن المفسرين
لا يذهبون الى ذلك ، بل هم يرون أنهما من أوائل السور ، وأن حكمهما حكم أوائل
السور . وقد ذهب بعضهم الى ان « طه » يعني « يا رجل » في النبطية . وذهب

(١) [تسوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي ، فاني أنا أبو القاسم] ، [لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي] ،
ابن سعد ، الطبقات الكبرى (١٠٦/١ وما بعدها) . (طبعة بيروت ١٩٥٧) (دار صادر) ،
كتاب نسب قريش ، تأليف أبي عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري ، وتحقيق (عليه)
بروفيسال ، طبع دار المعارف للطباعة والنشر (٢١ ص) .

(٢) جواد علي : تأريخ العرب قبل الإسلام (٢٣٣/٧) .

(٣) « أنا محمد وأحمد والناشر والمحيي والخاتم والقاب » ، « أنا محمد وأحمد والناشر والمقفي
ونبي الرحمة » ، « أنا محمد وأحمد والمقفي والناشر ونبي الرحمة والتوبة والملحة » ، ابن سعد ، الطبقات
الكبرى (١٠٤/١) وما بعدها « ذكر أسماء الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وكنيته » ،
« طبعة بيروت ، دار صادر ١٩٥٧ » ، ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد (٢٠/١) وما بعدها ،
المواهب اللدنية (١٣٣/٣) وما بعدها .
Springer, L. S. 1966.

Encycl. of Rel. and Ethn. vol. 8, p. 872.

(٤) المحبر (ص ١٥٦) .

آخرون إلى أنها سريرية ، وذكر غيرهم أنها بمعنى « يا إنسان » ، وأنها نبطية أو سريانية (١) وذهبوا في تفسير لفظة « يس » هذا المذهب كذلك ، فذكر بعضهم أن حكمها حكم أوائل السور ، وذكر بعض آخر أنها من أسماء الله ، وذكر آخرون أنها بمعنى « يارجل » و « يا إنسان » بالحبشية (٢) .

ويلاحظ أن الروايات التي تفسر اللفظين بـ « يارجل » أو بـ « يا إنسان » ، والتي ترجع أصلهما إلى النبطية أو السريانية أو الحبشية ، ترتفع روايتها إلى « ابن عباس » . ونرى أن أكثر القصص الإسرائيلية ينسب إليه كذلك . ومعظم من يروي هذه الروايات ويرفعها إلى ابن عباس ، هم أشخاص لا يطمأن إليهم ، عرفوا بروايتهم الأخبار الضعيفة والأكاذيب ، واشتهروا بالتدليس .

وكانت قريش تنسب النبي إلى أبي كبشة ، فيقولون : قال ابن أبي كبشة ، وفعل ابن أبي كبشة . ويذكر الأخباريون أنهم إنما دعوه بذلك لأن وهب بن عبد مناف أبا أمة كان يكنى أبا كبشة ، وأن عمرو بن زيد بن لبيد النجاري كان يكنى أبا كبشة كذلك . وعمرو هذا هو جد عبد المطلب . وكان وجز بن غالب بن عامر بن الحارث يكنى بهذه الكنية كذلك ، وهو جد النبي من قبل أمه . وكان الحارث بن عبد العزى بن رفاعه حاضن رسول الله يكنى أبا كبشة كذلك . وامرأته حليلة بنت الحارث (٣) .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أبا كبشة « كان قد استخف بالحرم وأهله ، في فعله فعلها . فكانت قريش تقول للنبي ، صلى الله عليه وسلم : فعل ابن أبي كبشة كذا . يشبهونه إذا خالف دينهم » (٤) . وذكر أن أبا كبشة كان قد عبد الشعري ، وكان أول من عبدها ، ولم تكن قريش تعبدها ، وبذلك خالف قريشاً . (٥) فقالت قريش ذلك المرسول

(١) تفسير الطبري (١٦ / ١٠٢ وما بعدها) : « في طه قولان للفسرين أحدهما . . . ثم قال سعيد بن جبير بلسان القبطية « النبطية » . وقال قتادة : بلسان اليونانية والسريانية . وقال عكرمة بلسان الحبشية . . . » ، تفسير النيسابوري ، المطبوع حاشية على تفسير الطبري (١٦ / ٧٦ وما بعدها) .

(٢) تفسير الطبري (٢٢ / ٩٧ وما بعدها) .

(٣) الخبر (ص ١٢٩) .

(٤) انساب الأشراف (١ / ٩١) ، بلوغ الأدب (٢ / ٢٣٩)

(٥) الصدر نفسه الحاشية .

لما خالفها في عقيدتها ، تذكره بأنه لم يكن أول من خالفها ، وأنه خالفها ، كما سبق أن خالفها ابن أبي كبشة قبله .

ولم يكن أبو كبشة أول من خالف قومه قريشاً في عبادتهم ، وصبا الى عبادة أخرى . فأننا نجد في كتب أهل الأخبار أسماء رجال غضبت على وثن ، فتجنبت ، أو تركت عبادة جملة منها ، كما نجد أناساً يجددون أو ثنائهم فيستوردون أو ثنائاً جديدة ، ويتقربون إليها ، ولا سيما إذا كان ذلك المجدد من الرؤساء والسادات . وقد يكون هذا التجديد لمصالح خاصة من نحو جر مغنم ، وكسب اتباع وأشياع وعبدية يستفاد منهم بما يتقربون به الى الصنم الجديد من قرايين ونذور . ولم يكن من الضروري وضع ذلك الصنم في الكعبة ، بل كانوا يضعونه في مختلف الأماكن وحتى في بيوت الشعر ، التي تنتقل مع الأعراب ، كما فعل العبرانيون يوم كانوا بدوا ينتقلون من مكان الى مكان . فلما ظهر الاسلام ، حطمت أصنام مكة ، كما حطمت أصنام في أماكن عديدة من جزيرة العرب ، كانت معبودة هناك .

أما مولده ، فكان يوم الاثنين التاسع أو الثاني عشر أو السابع عشر من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان . ويوافق شهر ابريل سنة ٥٧١ م (١) ويجعله بعض المستشرقين السنة ٥٧٠ للميلاد (٢) . وروي أن مولده كان لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول (٣) وقبل لعشر ليال مضت من ربيع ، وقيل : لثمان مضت منه . وقيل : لثمان عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : لثمان ليال خلت من شهر رمضان ، وقيل : ولد في صفر ، وقبل في ربيع الآخر ،

(١) المعارف (ص ٦٥) ، ابن سعد (١/١٠٦٢) ، الطبري (٢/١٧٢) ، ابن كثير (٢/٢٥٩) ، الامتاع (٣) ، جوامع السيرة لابن حزم (تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد) ، تهذيب ابن عساكر (١/٢٨٠) ، ابن سيد الناس (١/٢٦) ، تأريخ الذهبي (١/٢١) ، تنقيح الفهوم (٤) . (١) تأريخ الحفري (١/٦٢) .

(٢) sprenger, I, s. 138, shorter, P. 391. H. Lammens, L'age de Mohomet (٢) et la Chronologie de la sura, in Journal asiatique, serie. XI, 1, 171. P. 109, ff.

(٣) ابن هشام (١/١٦٧) ، المغير (ص ٨ وما بعدها) .

وقيل في المحرم ، وقيل : في عاشوراء (١) .

ويظهر من دراسة هذه الروايات المختلفة أن رواية ولادته في يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، كانت هي الرواية الراجحة عند أهل الأخبار والسير في النصف الأول من الهجرة . أما الروايات الأخرى التي ذكرتها فإنها متأخرة عن هذه الرواية ، وقد تعددت بتعدد الرواة ، والموارد التي أخذ منها كتاب السير المتأخرون .

والغالب بين أهل السير أن مولده كان في عام الفيل ، على أن هنالك روايات أخرى تذكر خلاف ذلك . تذكر أن مولده كان بعد الفيل بعشر سنين ، وقيل : ثلاث وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثين سنة : وقيل : بأربعين سنة ، وقيل : بسبعين سنة . وفي بعض الروايات أن مولده كان قبل عام الفيل بعشر سنين . أو خمس عشرة سنة . وقد حاولت بعض الأخبار تعيين اليوم من عام الفيل ، فقالت إنه كان في يوم الفيل ، وفي روايات أخرى أنه كان بعد الفيل بخمسين يوماً ، وقيل بأربعين يوماً ، وقيل بخمسين وخمسين يوماً ، وقيل بشهر واحد (٢) .

وقد اختلف الرواة أيضاً في الوقت الذي ولد فيه ، فقيل : ولد في النهار ، وقيل : في الليل ، كما اختلف في الوقت من النهار أو الليل : هل كان صباحاً أو سحراً ، واختلف أيضاً في اسم اليوم (٣) .

ويرى بعض المستشرقين استناداً الى دراسة كتب السير أن عام الفيل كان قد

(١) الحلية (١/٦٧ وما بعدها) ، أبو عبدالله الزنجاني : تأريخ القرآن (ص ١ وما بعدها) ، المقرئ ، امتاع الاسماع ، (١ / ٣ وما بعدها) (القاهرة ١٩٤١) ؛ البدء والتأريخ (٤ / ١٣١ وما بعدها) ، عبدالباسط الحنفي ، غاية السؤل في سيرة الرسول ، الآستانة (١٣٢٨) ، (٦) ، وسيكون رمزه : غابة .

(٢) الحلية (١ / ٧٠) ، ابن سعد : الطبقات (١ / ١٠٠ وما بعدها) ، « طبعة بيروت » ، والموارد المتقدمة ، اسلام تأريخي (١ / ٢٨١ وما بعدها) ، « ولد بمكة بعد قدوم ابرهة بخمسين ليلة . وكان أول يوم من المحرم ، عام الفيل يوم الجمعة . وقدم الفيل يوم الاحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم ، سنة ثمان مائة واثنين وثمانين للاسكندر الرومي ، وستة عشر ومائتين من تأريخ العرب الذي أوله حجة القدر وسنة أربع وأربعين من ملك انوشروان بن قباد ملك العجم فيما يروى . وكان مولده يوم الاثنين لثاني ليل خلون من ربيع الاول . وقال ابن اسحاق لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول » ، البدء والتأريخ (٤ / ١٣١ وما بعدها) .

(٣) الحلية (١ / ٦٧ وما بعدها) .

وقع قبل السنة ٥٧٠ للميلاد ، وأن أيراد عام الفيل في كتب السير هو من قبيل السهو الذي وقع فيه المؤرخون . ويرون أن السنة ٥٨٠ للميلاد أو ٥٨١ أو ٥٨٢ للميلاد هي أوفق سنة يمكن أن تكون سنة لميلاد الرسول (١) .

ومرد هذا الاختلاف الى العادة التي كانت عند الجاهليين في عدم تسجيلهم تواريخ الميلاد . وهي عادة أكثر الشرقيين حتى الآن . ولم يتقيد الناس في الوقت الحاضر بتسجيل تواريخ الميلاد إلا بسبب القوانين الحديثة لدى الدولة وبسبب التعميد عند النصارى . ثم إن الجاهليين إن أرخو . فانما أرخوا الحوادث العظيمة عندهم فقط كما قالوا علم الفيل مثلاً ، ومن قبله عام الخزان ، ونحو ذلك من غير أن يقيدوه بالشهر واليوم والساعة وهكذا كانوا يؤرخون دائماً حوادثهم الكبار ، الى أن جاء الاسلام ، وتوفرت الداعية على اتخاذ التاريخ الهجري .

ولو كان أبرهة قد سجل حادث سير الحبش على مكة ، لأفادنا بذلك كثيراً ولا شك ، ولأستعظنا به تعيين تاريخ ذلك الغزو على وجه مضبوط أو قريب منه . ولكنه لم يفعل ذلك وبا للأسف ، فلم يترك لنا لا هو ولا غيره كتابة تخص هذا الموضوع . إلا أن هذا لا يعني بالطبع ، قطع كل أمل لنا بالعثور على كتابة ما قد تكون لها صلة بهذا الحادث ، فلا يزال في باطن الأرض عدد عديد من النصوص ينتظر وصول الأيدي اليه لخراجها من عالم الظلمات الى عالم النور ، وقد يكون من بينها ما له صلة مباشرة أو غير مباشرة بهذا الغزو . وقد تجود الأيام علينا بنص يوناني أو حبشي يرد فيه شيء عن حملة أبرهة على مكة ، يكشف القناع عن تلك الحملة الخائبة وعن غاية أبرهة منها وعن العوامل التي دفعته على القيام بها . وسوف يكون لهذا النص أهمية كبيرة ولا شك في تثبيت هذا التاريخ .

أما أبوه ، فهو عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، فهو من قريش . ومن أهل مكة . وقد توفي عبدالله ، والنبي في بطن أمه أو بعد ولادته بسبعة أشهر ، أو بأكثر من ذلك ، توفي بالمدينة ، وكان عائداً من بلاد الشام بتجارة له ، فدفن

فيها عند أخواله بني عدي بن النجار (١) ، في دار عرفت بـ « دار النابغة » (٢) . وقيل في دار من دور بني عدي بن النجار (٣) .

وعبدالله من الأسماء المعروفة عند الجاهليين ، وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الرجال عرفوا بعبدالله (٤) . كما أنه من الأسماء الواردة في الكتابات الجاهلية الشمالية (٥) ، وفي النصوص النبطية (٦) .

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن أبا الرسول لم يكن يعرف بهذا الاسم ، وإنما كان يسمى باسم آخر من الأسماء الوثنية ، وأن الرسول هو الذي سماه « عبدالله » على قاعدته في تحويل الأسماء الجاهلية إلى أسماء إسلامية ، أو أن المسلمين هم الذين سموه بهذا الاسم ، لأنبات أن آباء النبي وأجداده كانوا جميعاً من الموحدين . وورود اسم « عبدالله » في الكتابات الجاهلية كما ذكرت آنفاً حجة كافية في ادحاض هذا الزعم . ثم إن الرسول حينما تفاوض مع قريش وأمر بتدوين العقود معها ومع غيرها ، كان يأمر بتدوين : « محمد بن عبدالله » ، ولو كان اسم أبيه شيئاً آخر ، لأشار المشركون إليه ، واطلبوا منه تدوينه ، ولمانعوا في تدوين هذه التسمية الإسلامية الجديدة التي لا يدينون بها ولا يعترفون ، كما اعترضوا عليه يوم أمر بتدوين : (بسم الله الرحمن الرحيم) في صلح الحديبية ، وأبو إلا كتابة جملة (بسمك اللهم) ، وهي مصطلح الجاهليين في افتتاح الرسائل والعهود .

وقد ذهب المستشرق الإيطالي « كيتاني » إلى أن الرسول ، والده عبدالله ، لم

(١) « ولد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بمكة ، وعاش يتيماً ، اذ مات أبوه وهو عليه السلام لم يكمل له ثلاث سنين » ، جوامع السيرة « ص ٥ » ، الامتاع « ٥ » ، ابن قيم الجوزية زاد المعاد (١٧/١) ، الخلية (٤/١) ، وما بعدها ، الطبري (٩٦٧/١ ، ٩٧٩) ، ابن سعد ، الطبقات (٥٣/١ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (٩٧ وما بعدها) ، اليعقوبي (٨/٢) ، الخلية (٥٩/١) ، سيرة ابن هشام (١٦٠/١ وما بعدها) ، طبعة القاهرة ١٩٣٦ ، غاية (ص ٧) .

(٢) « ويقال إنه دفن في دار النابغة في الدار الصغرى » ، حاشية (٢) على سيرة ابن هشام (١٦٧/١) « طبعة القاهرة ١٩٣٦ » ابن سعد : (٩٩١) ، « طبعة بيروت » ؛ Grey, J. P. 21, Springer, L. S. 115. عيون الاثر في فنون المغازي والشمال والسير ، لابن سيد الناس (القاهرة ١٣٥٦) « ودفن في دار النابغة » (١٦١) .

(٣) عيون الاثر (٢٥١) .

(٤) راجع كتاب الإشتقاق لابن دريد وموارد أخرى .

(٥) Rep. Epi. Semi., III, I, P. 130, Num. 1407.

(٦) Rep. Epi. Semi., III, I, P. 132, Num. 1414.

يكونا من أهل مكة في الأصل ، بل كانا من أهل يثرب ، أي المدينة ، ثم حاول أن يجد مطعماً في النسب ، بإبعاده عن قرش ، وبإبعاد العدنانيين عموماً عن العرب ، وتحدث عن روايات أهل الأخبار في « العرب المستعربة » . والرسول كما هو معروف وكذلك بقية العدنانيين هم من هؤلاء العرب كما يذكر أولئك الرواة . بل ذهب إلى احتمال وجود نسب له بالاسرائيليين . وحيثه في ذلك وجودهم في يثرب ، وكون أهلهم من يثرب . وهذا التجاور والاتصال والسكنى في مكان واحد ، يبعث على استخراجهم ورأيه إلى الالتحام في النسب ، والتزاوج في الرأي والعقائد وما إلى ذلك (١) .

وقد فعلت آراء هذا المستشرق وأمثاله في عقول بعض السذج السفهاء ، فظنوا أن فيها اكتشافات عجيبة غريبة ، وأن فيها التفاتات نبهة لم ينتبه إليها الناس . وإني لأعجب من أولئك الذين يأخذون بنزوات وبترهات بعض الأخباريين ، فيعدونها حجة يبنون أحكاماً وقواعد عليها ، وإذا قلنا كما قالوا إن العدنانيين لم يكونوا عرباً في الأصل ، بل هم عرب استعربوا ، وإن محمداً ليس عربياً ، بل هو أعجمي مستعرب ، ودليل عجمته نبوغه ونبوته ، فهل يكون في المنطق هراء أقبح وأشنع من هذا الهراء ؟

وسواء أكان عبدالله والد الرسول من أهل يثرب أو من أهل مكة ، فإن محمداً لم يولد باجماع الرواة إلا في مكة ، وفيها نشأ وعاش أكثر عمره إلى الهجرة . ولم يرد غير ذلك في أي خبر من الأخبار التي ذكرها الأخباريون .

وغاية « كيتاني » من هذا الزعم ، الغمز والهمز والممز للرسول ، لظهار أن ما جاء به كان يوحى من يهود يثرب وتعلم منهم ، وبدس من عرق يهودي كان في دم الرسول . ولو فطن كمؤرخ لقيم روايات أهل الأخبار ، ووجوب مناقشة الرواية أولاً ، ومناقشة رجالها والأيام التي ظهرت فيها ، وعلم أن ماروي وقيل عن الرسول « وما استند إليه هو مما لا يقف أمام النقد والتعديل والجرح ، وأنه من النوع الذي ظهر متأخراً في بعض كتب السير والأخبار ، ثم لو أدرك أن أكثر ما يرويه أهل الأخبار عن الجاهلية وأيام الرسول الأولى هو مما يجب النظر إليه بحذر وبتبصر ، لكان حكمه ، فيما أرى ، حكماً آخر ، وكان رأيه في أكثر ما كتبه في السيرة مخالفاً لما ذهب إليه .

(١) إسلام تأريخي (١ / ١٣٦ وما بعدها) .

ولكن « كيتاني » ذو رأي وفكرة ، وضع رأيه وكونه في السيرة قبل الشروع في تدوينها . فلما شرع بها ، استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ، ضعيفها وقويها ، وتمسك بها كلها ، ولا سيما ما يلائم رأيه ، لم يبال بالخبر الضعيف ، بل قواه وسنده « وعدة حجة ، وبني حكمه عليه . ومن يدري ؟ فلعله كان يعام بسلاسل الكذب المشهورة المعروفة عند العلماء ، ولكنه عفا عنها ، وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها ؛ لأنه صاحب فكرة يريد اثباتها بأية طريقة كانت وكيف يتمكن من اثباتها وظهارها وتدوينها ، إن ترك تلك الروايات ، وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل ، على أساليب البحث الحديث ، فصار مسلكه في تدوين السيرة مسلك أولئك الذين قبلوا القصص الاسرائيلي من المسلمين ، والقصص الموضوع المتأخر الذي يجافي روح القرآن وعدل الرسول ، لما فيه من إغراق في رواية الخوارق وابتعاد عن حدود العقل ، لظنهم أن ذلك مما يزين السيرة ، ويكسبها رواء ، ويقربها إلى أفهام الناس ، دون أن يفتنوا إلى أن رواية هذا النوع من القصص مضر بالتأريخ ومضر بالحق . والطريقان بالطبع خاطئان مضللان : طريق « كيتاني » و « شبرنكر » قبله ، في قبول كل شيء ، يريان فيه تأييداً لوجهة نظرهما في الغمز واللمز ، لمخالفتهما الاسلام في العقيدة . فاستعانا لذلك بالأخبار الضعيفة التي رواها هذا الفريق من رواة السيرة من الضعفاء والمتروكين . وطريق هذا الفريق الذي استقى من معين أخباره « كيتاني » . وهو فريق ربما دفعته حسن النية والعاطفة الطيبة المناقضة لعاطفة « كيتاني » في الاسلام ، إلى قبول كل رواية فيها اغراق ، كما فعل كتبة اليهودية والنصرانية القدامى في تدوين سير الأنبياء والقديسين والشهداء ، ظناً منهم أن في ذلك ارضاء للاسلام والمرسل متأثرين بأسلوب المذكورين في كتابة أخبار الرسل والأنبياء والشهداء ، ولم يفتنوا إلى أن ذلك يخالف الجوهر الاسلام في الواقع ، وأن ما ذكره ورووه لا ينفع الاسلام ولا يرفع من شأنه . كما أن إهماله لا يضره شيئاً ولا يحط من قدره . ولكنها العاطفة ، عاطفة البغض وعاطفة الحب والعاطفة متى دخلت قلب امرئ ، أبعدته عن العقل والصواب .

ونظر آلى ما نعرفه من وجود الأوبئة في يثرب ، ولا سيما وباء « الملائيا » (حمى يثرب) ، فلا يستبعد أن يكون هذا المرض هو السبب في وفاة عبدالله في المدينة ودفنه هناك .

وتذكر كتب السير أن هاشم بن عبد مناف، جد عبد الله، كان قد خرج في تجارة له ببلاد الشام فلما كان في غزة توفي هناك (١). وكانت غزة من المدن التي يقصدها تجار الحجاز، فيبيعون بها ما عندهم من تجارة، ويشترون منها ما في أسواقها من تجارة بلاد الشام أو ما ورد إليها من مصر أو من حوض البحر المتوسط. وهي من المدن الفلسطينية التي كان يقيم بها العرب قبل الميلاد.

وأما أمه، فأمته بنت وهب. من بني زهرة من بني النجار من مدينة يثرب. تزوجها عبد الله، وهو في الرابعة والعشرين من عمره. خطبها عبد المطلب وابنه عبد الله من أبيها وهب على رواية: أو من عمها أهب على رواية أخرى، لوفاة والدها قبل ذلك، فكانت أمته في كفالة هذا العم (٢).

وكان بنو زهرة من الأسر الشهيرة في المدينة. وكانت تتعاطى التجارة، فتذهب إلى بلاد الشام. وهي تشبه في ذلك بني هاشم بمكة. ولعل التجارة هي التي ربطت أواصر الأسرتين برابط المصاهرة والدم.

وقد ولد الرسول في الدار التي صارت من بعد تعرف ببيت «محمد بن يوسف النقي» أخي الحجاج. وتقع عند الصفا في جوف مكة، على رأي أكثر الرواة، وقيل في «الردم» ردم بني جمح، وقيل: بعسفان. وقيل: بشعب بني هاشم (٣). وكانت الدار التي ولد فيها الرسول أحقيل بن أبي طالب، باعها أولاده بعد وفاته من أخي الحجاج، فادخلها في داره، وسماها البيضاء، لأنها بنيت بالحص، ثم طليت به. فكانت كلها بيضاء، وصارت تعرف بدار ابن يوسف. ويقال: إن عقيلاً هو الذي باعها، وباع معها جملة بيوت من بيوت أخوته. ومن هاجر من بني هاشم، باعها كلها

(١) ابن هشام (١٤٤/١)، الطبري (١٠٨٢/١) «طبعة أوربة»، ابن سعد (٣١١) وما بعدها. Springer, I, S. 139, Encey. of Islam, II, P. 286, Caatani. Annali, I, 109.

(٢) سيرة ابن هشام ١٦٤/١ وما بعدها «طبعة القاهرة ١٩٣٦». طبقات ابن سعد (١٤٠/١) وما بعدها «طبعة بيروت».

(٣) السيرة الخلية «٧٤/١»، الروض الأنف «١٠٧/١»، حاشية «٣» على سيرة ابن هشام «١٦٧/١» «طبعة القاهرة ١٩٣٦».

وقد ولد الرسول في الدار التي صارت من بعد تعرف ببيت « محمد بن يوسف الشقفي » اخي الحجاج . وتقع عند الصفا في جوف مكة على رأي أكثر الرواة ، وقيل في « الردم » ردم بني جمح ، وقيل : بعسفان ، وقيل : بشعب بني هاشم (١) . وكانت الدار التي ولد فيها الرسول لعقيل بن أبي طالب ، باعها أولاده بعد وفاته من أخي الحجاج ، فأدخلها في داره وسماها البيضاء ، لأنها بنيت بالجص ، ثم طليت به فكانت كلها بيضاء ، وصارت تعرف بدار ابن يوسف . ويقال إن عقيلاً هو الذي باعها ، وباع معها جملة بيوت من بيوت اخوته ومن هاجر من بني هاشم ، باعها في حياة الرسول قبل الفتح (٢) . وقد دعاها بعض أهل الأخبار « بدار التبابعة » (٣) .

ويقال : إن الخيزران أم الرشيد اشترت تلك الدار ، وأخرجتها من دار ابن يوسف ، وجعلتها مسجداً . أو أن زبيدة هي التي بنتها مسجداً لما حجت . وقيل : إن الخيزران اشترت دار الأرقم بن الأرقم ، الدار التي كان يأوي إليها الرسول في زمان تسمته بالدعوة ، وكانت تقع أيضاً عند الصفا فبنتها مسجداً (٤) .

وباع عقيل دار خديجة زوج النبي كذلك . وهي الدار التي انتقل إليها الرسول بعد زواجه بخديجة ، وعرفت بدار فاطمة . وقد اشتراها معاوية من عقيل ، أو عن اشتراها

(١) السيرة الحلبية (٧٤/١) ، الروض الأنف (١٠٨/١) ، حاشية (٣) على سيرة ابن هشام (١٦٧/١) « طبعة القاهرة ١٩٣٦ » .

(٢) السيرة الحلبية (٧٤/١) ، وهو في دار محمد بن يوسف اخي الحجاج بن يوسف . كان عقيل بن أبي طالب أخذه حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه وفي غيره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عام حجة الوداع حين قيل له : أين تنزل يا رسول الله ؟ وهل ترك لنا عقيل من ظل ... ، أخبار مكة للآزرق (ص ٤٩٢) (طبعة لايبزك سنة ١٨٥٨) ، ابن سيد الناس (٢٦/١) .

(٣) القاموس (٨/٣) ، رحاة البتانوني (ص ٥٢) ، الآزرق (ص ٤٢٢) « طبعة وستفالد » ، رحاة العياشي (٢٢٥/١) ، إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين (القاهرة ١٩٢٥) (١٨٦/١ وما بعدها) .

(٤) السيرة الحلبية (٧٤/١) ، أخبار مكة (ص ٤٢٢) ، (طبعة لايبزك) ، « في الأرض التي تعرف بابن يوسف بمكة ، فصيرتها الخيزران بنت عطاء امرأة المهدي مسجداً » ، البدء والتأريخ (١٣٢/٤) .

من عقيل ، فحوها إلى مسجد (١) . وفتح فيها باباً من دار أبي سفيان (٢) .

ولم يبق ، ويا للأسف ، شيء من الدار التي ولد فيها الرسول . نعم ، هناك موضع يقع في شعب بنى عامر في أحياء مكة من شرقها ، يقال إنه الموضع الذي ولد فيه الرسول ، أي موضع الدار التي ولد فيها . وقد بنى عليه الملوك والسلاطين أبنية تخليداً للذكرى ذلك المكان (٣) . ولكنه أهمل كما أهمل موضع سائر الأماكن الأثرية الإسلامية في الحجاز بعد استيلاء الوهابيين على الحجاز .

ويقال : إن القابلة التي سقط محمد على يديها . هي « الشفاء » ، أم عبدالرحمن ابن عوف ، وأن أم أيمن كانت دايتة ، فكانت تخدمه وتعتني به ، وإن مرضعته الأولى هي ثوبية (٤) .

وتذكر كتب السير من عادة أسر مكة المعروفة في ذلك العهد أنها كانت ترسل أطفالها إلى مرضعات من القبائل ، لينشؤوا نشأة صحية ، وليتعلموا فصيح اللغة . وكان النبي في جملة من طبقت عليهم هذه العادة ، فدفع إلى « حليلة » من بني سعد بن بكر بنت أبي ذؤيب بن عبدالله بن الحارث . وقد عرف بنو سعد التي تنتمي حليلة اليهم بفصاحة اللسان ، وقد عد لسانهم أحد اللسانة الفصيحة البليغة التي اشتهرت بين العرب (٥)

(١) السيرة الحلبية (٧٤/١) .

(٢) أخبار مكة (ص ٤٢٣) « طبعة لا ييزك » .

(٣) محمد حسين هيكل : في منزل الوحي (الطبعة الثانية) (١٩٥٢) (ص ٢٣٦ وما بعدها) ، مرآة الحرمين (١٨٦/١) وما بعدها .

(٤) السيرة الحلبية (٧٥/١) .

(٥) « ... فعرض عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فجعلت تقول : يتيماً ولا مال له ، وما عشت أمه أن تفعل ؟ فخرج النسوة وخلفنها ، فقالت حليلة لزوجها : ما ترى ؟ قد خرج صواحي وليس بمكة غلام يسترضع إلا هذا الغلام اليتيم ، فلو أنا أخذناه ، فإني أكره أن نرجع إلى بلادنا ولم نأخذ شيئاً . فقال لها زوجها : خذيه عسى الله أن يعمل لنا فيه خيراً ... » ، طبقات ابن سعد (١١١/١) ، الطبري (٩٦٩/١ وما بعدها) ، ابن الأثير (١ / ٣٣٣ وما بعدها) ، تأريخ الخلفاء (٢٥٢ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (١٦٩/١) ، J. Caetani, Annali Dell Islam,

Vol., I, P. 151, & 125.

وقد أرضعت النبي قبل حليلة امرأة أخرى يقال لها ثوية مولاة أبي لهب .
أرضعته أياماً وأرضعت معه أبا سلمة عبدالله بن عبد الأشد المخزومي بلبن ابنها مسروح ،
وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبد المطلب . وقد كان حمزة مسترضعاً في بني سعد بن
بكر عند حليلة ، فكان حمزة رضيع رسول الله من جهة ثوية ومن جهة حليلة (١) .

ولم ينس الرسول مرضعته الأولى « ثوية » ، فكان يسأل عنها ، ويبعث اليها بصلة
وكسوة . بقي يفعل ذلك حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت سنة سبع ، مرجعه من خير ،
فقال : ما فعل ابنها مسروح ؟ فقيل : مات قبلها ، ولم يبق من قرابتها أحد (٢) .

وقد أقام محمد في بني سعد إلى الخامسة من عمره ، ترضعه حليلة ، وتحضنه ابنتها
الشيما . ويظهر أن جو البادية قد أثر تأثيراً كبيراً فيه ، وأن حليلة قد عنيت به عناية
حسنة ، بدليل ما ورد عنه من أنه قال : « أنا أعربكم . أنا قرشي ، واسترضعت في بني
سعد بن بكر » ، ومن أنه كان يحتفي بحليمة ويكرمها ويسبغ عليها الطافه ويذكرها
طول حياته بالخير . وقد من على ابنتها الشيما ، وكانت في جملة من أسر مع بني هوازن
بعد حصار الطائف ، فلما جيء بها إلى الرسول وعرفها ، أكرمها ، وردّها إلى أهلها ،
وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، رعاية لحقها ولحق أمها (٣) .

وقد عهدت حليلة إلى محمد برعاية الغنم ، شأن الأطفال في ذلك العهد . فكان
يخرج مع أخيه من الرضاعة في الرعي ، ثم يعودان إلى بيتهم في المساء . وقد كان الرسول
يتذكر ذلك الزمان ويفتخر به ، كما اشتغل بالرعي بعد عودته إلى مكة ، وكان أجره
قراريط من ذلك ، يدفعها إليه أهل مكة (٤) .

ولم تذكر كتب السير عمر الرسول يوم كان يرعى الغنم لأهل مكة ، كما أنها لم
تشر إلى المدة التي بقي فيها راعياً . ولكن بعض الروايات تذكر أنه كان فتي في ذلك
العهد ، وأنه كان يرعى مع جماعة من أقرانه الفتيان في « أجباد » ، وأنه كان يبيع

(١) ابن قيم الجوزية (١٩/١) ، طبقات ابن سعد (١ / ١٠٨ وما بعدها) «طبعة بيروت» .

(٢) طبقات ابن سعد (١ / ١٠٨ وما بعدها) .

(٣) سيرة ابن هشام (١٧٠ / ١ وما بعدها ١٧٦) ، محمد حسين هيكل : حياة محمد (ص ١١٢)

(الطبعة السادسة سنة ١٩٥٦) .

(٤) الروض الأنف (١١٢/١) ، السيرة الحلبية (٢ / ١٤٩ وما بعدها) .

هناك مع غنمه لايعود الى داره لئلا على عادة الرعاة في ذلك العهد ، يقضي الليل مع غنمه في مواضع الرعي (١) .

هذا وكأن الأقدار كانت على علم بأن أم النبي لن تعيش طويلاً ، ولهذا جاءت بالطفل وهو في الخامسة من البادية الى أمه ، ليعيش معها زهاء السنة ، فيذوق حنان الأم ويشهد عطفها عليه بعد أن حرم رعاية الأب . وكأنها كانت تريد أن يشهد وفاتها وجنازتها بعد أن حرمته رؤية وجه أبيه وجنازته .

أرادت أمنة زيارة أهلها لعرض غلامها عليهم ، وكانت قد وعدت أهلها مراراً بزيارتهم ، وذهبت به وبأم أيمن جاريتها التي خلفها لها زوجها عبدالله . وبقيت وبقي ابنها معها شهراً في أهلها ، ثم قررت العودة الى مكة . وعادت بابنها وبقاريتها ، ولكن القدر كان لها بالمرصاد ، فلما كانت بـ « الأبواء » ، وهي في طريقها الى مكة ، مرضت مرضاً قضى عليها فدفنت هناك (٢) .

وقد بقي الألم من وفاة الأم كامناً في نفس الرسول ، لقد كان ألماً شديداً جداً . فلما « مر بالأبواء في عمرة الحديبية ، قال : إن الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه ، فأتاه وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه » (٣) . ولا يعتد المؤرخون بالروايتين القائلتين إن قبر أمنة كان في « دار رابغة » بمكة ، أو في الحجون بشعب أبي ذؤيب (٤) . « شعب أبي دب » (٥) .

وعادت أم أيمن بمحمد الى جده عبدالمطلب وقد شهد في هذه المرة بأم عينيه نهاية أمه ، والمكان الذي دفنت فيه . عاد وقد شهد في زيارته هذه ليثرب الموضع الذي

(١) عيون الأثر (١/١٤٤) .

(٢) الطبري (١٩٨٠) ، ابن الأثير (١/٣٤٠) ، تاريخ الخلفاء (١/٢٥٩) ، البلدان (١/١٠٠) ، الروض الأنف (١/١١٣) ، سيرة ابن هشام (١/١١٧) ، اسلام تاريخي (١/٣٦٥ وما بعدها) ، غاية (ص ٧) ، البدء والتاريخ (٤/١٣٣) .

Life, P. 73, Annali, I, P. 156, & 131.

(٣) السيرة الحلبية (١/١٢٥) .

(٤) السيرة الحلبية (١/١٢٥ وما بعدها) ، « قال ابن سعد : وهذا غلط ، وليس قبرها بمكة ، وقبرها بالأبواء » ، طبقات ابن سعد (١/١١٧) « طبعة بيروت » .

(٥) « وشعب أبي دب الذي يعمل فيه الجزارون بمكة ، بالمعلاة . وابو دب رجل من بني سؤدة بن عامر ، سكنه قسبي به » ، أخبار مكة (ص ٣٣) « طبعة لايزك » .

توفي فيه أبوه ، والقبر الذي ضمه . عاد يقيم الأوبن وهو في سن أحوج ما يكون فيه إلى الأم والأب . لقد أثر هذا اليتيم فيه كثيراً ، وبقيت ذكراه عالقة في ذاكرته أبداً . وقد أدرك أهميته في حياة الإنسان وما يحدثه من أثر في نفوس من يوقعهم حظه به ، ويتجلى ذلك في هذه الآية : « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجد ضالاً فهدى » (١) ، وفي الآيات الأخرى التي تحض على إنصاف اليتامى ، ومساعدتهم والترفيه عنهم ، وفي كثير من الحديث .

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاه محمد في المدينة ، فقد بقيت ذكراها باقية في ذاكرته . فلما عاد إلى يثرب ، تذكر المواضع التي كان يلعب فيها والأماكن التي كان يسلي نفسه بها ، تذكر الدار التي أقامت أمه بها ، وتذكر « أنيسة » وهي طفلة من أهل يثرب كانت تلمب معه ، وأطفال الحي الذين كانوا يقضون وقتهم معه (٢) . « فلما نظر إلى أطم بني عدي بن النجار عرفه وقال : كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالي نظير طائر كان يقع عليه . ونظر إلى الدار فقال : ههنا نزلت بي أمي وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبدالمطلب وأحسنتم العوم في بئر بني عدي بن النجار » (٣) .

وكانت أم أيمن هي كل ما تبقى له من إرثه من والده ومن أمه . لقد كانت امرأة حبشية « ورثها من أبيه . وهي قد عمرت على ما يظهر طويلاً ، إذ أدركت وفاة الرسول . وتذكر الأخبار أنها حزنت على وفاته وبكت ، وأن أبا بكر وعمر دخلا عليها وهي على هذه الحالة ، فقالا لها : يا أم أيمن « ما يبكيك ؟ فما عند الله خير لرسوله ! وقد كانت داية الرسول . وزوجها من زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة » (٤) .

وحزن عبدالمطلب حزناً عظيماً ولا شك على ما أصاب عزيزه « محمداً » من مكروه ، وأخذ يريه كل ضروب الشفقة والعطف والحنان للتخفيف عن آلامه وأحزانه . يأخذه معه ، ويجلسه في مجلسه في ظل الكعبة ، ويرعاه كل رعاية ؛ فكأنه وهو جده الطاعن في السن ، أراد أن يكون في موضع الوالد والأم .

(١) الضحى : الآية ٦ وما بعدها .

(٢) ابن سعد (١/١١٦) طبعة ١٩٥٧ ، Sprenger, I, S. 115 .

(٣) طبقات ابن سعد (١/١٦٦) طبعة ١٩٥١ .

(٤) ابن قيم الجوزية (١/١٩) .

قال أحد الأشخاص : « حجبت في الجاهلية ، فإذا أنا بشيخ مربوع يطوف بالبيت ، وهو يقول :

رد علي راضي محمدأ واصطنعني البرده عندي يدا
فقلت : من هذا الشيخ ؟ قالوا : عبدالمطلب بن هاشم . قلت : ما شأنه ؟ قالوا :
ضل إبل له ، فخرج في طلبها بني ابنه : محمد بن عبدالله ، وقد أبطأ عليه ، فقد أخذه
ما ترى . قال : فما برحت حتى رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو غلام ، وجاء
بالإبل . فسمعت عبدالمطلب يقول له : يا بني ، لقد جزعت عليك جزعاً ، لا يفارقني
بعده حتى أموت » (١) .

وشاءت الأقدار أيضاً أن تزيد في آلام النبي ، وفي أحزانه . فما كاد يبلغ الثامنة
من عمره حتى فجع ب وفاة جده وهو على أبواب الثمانين من عمره (٢) . وكانت هذه
الوفاة صدمة عنيفة عليه لم تقل عن الصدمة التي أصيب بها ب وفاة أمه . لقد كان عبدالمطلب
على شيخوخته وتقدمه في السن يرعى محمدأ رعاية الوالد القوي القدير ، وكان البقية
الباقية من والده عليه . فلما توفي ، شيعه مع المشيعين إلى قبره ، باكياً سائراً خلف
سريره المحمول عليه إلى موضع قبره بالحجون . وظل يذكر جده طوال عمره ، ويترحم
عليه (٣) .

والحجون من مقابر مكة القديمة الجاهلية ، وفيها قبر قصي زعيم قريش ، وغيره
من رؤساء مكة . وقد كان أهل مكة يزورون قبر قصي ويمظلونه (٤) وربما فعلوا
ذلك مع قبور رؤسآ آخرين .

هذا ونحن لانعرف من أمر عبدالمطلب إلا القليل ، وكل ما نعرفه عنه أنه ابن هاشم ، وأن

(١) البلاذري (٨٢/١) ، عيون الاثر (٣٨/١) .

(٢) « فتوفي عبدالمطلب بعد الفيل بثاني سنين » ، الطبري (١٩٤/١) ، « ذكر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه » ، سيرة ابن هشام (١٧٨/١) وما بعدها ، « اسلام تاريخي
(٣٦٩/١ وما بعدها) ، ابن الاثير (٣٤٠/٢) .

(٣) السيرة الحلبية (١٣٤/١) ، « ومات عبدالمطلب فدفن بالحجون ، وهو يومئذ ابن الثماني ،
وثلاثين سنة ، ويقال : ابن مائة وعشر سنين » ، طبقات ابن سعد (٢١٩/١) « طيبة يروت » ،
« ومات وله من العمر مائة وعشر سنين » ، غاية (ص ٧) ، البلاذري (٨٤/١) .

(٤) البلاذري (٥٢/١) ، الأزرق (ص ٤٨٢) « طيبة وسننجد » .

اسمه شيبه ؛ وان كنيته ابو الحارث . وأما أمه فاسمها « سلمى » ، وهي من بني النجار ، أي من « يثرب » ، وأن والده كان من أصحاب التجارات : خرج متاجراً ، وتوفي في طريقه فيتم « شيبه » وكفله خاله « المطلب » ، ورعاه وحماه ، حتى عرف به ، ونسب اليه ، ف قيل : عبدالمطلب . وتذكر الموارد أن عبدالمطلب كان وسيماً ذكياً ذا شخصية وقابليات ، وأنه تمكن بعد مجيئه الى مكة من تزعم قومه ومن كسب احترامهم وتقديرهم ، فكان يجلس في صدر المجلس في البيت ، وأنه حفر بئر زمزم ، وتولى سقاية الحاج ، وأنه كان شيخ مكة في أثناء حملة أبرهة على مكة ، كما كان مبعوث القوم اليه (١) .

ونسب اليعقوبي اصلاحات دينية الى عبدالمطلب ، أقرها الاسلام (٢) . وقد ذكر بعض الأخباريين أنه كان أول من تحنث بحراء ، وكان اذا أهل هلال رمضان دخل بحراء ، فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر ، ويطعم المساكين . وكان يعظم الظلم بمكة ، ويكثر الطواف بالبيت (٣) .

وعبدالمطلب على منزلته في قومه . ومكانته بينهم ، لم يكن غنياً ذا مال . وأسرته لم تكن أسرة ثروة وغنى . بل كان غناها غنى اجتماعياً ، أي مكانة محترمة بين أهل مكة ، اصلتها بالبيت . وعلى هذا النحو كانت حالة سائر أسرته ، تعيش من وارد البيت ، وتفخر بخدمتها له وللحجاج الوافدين على مكة للتقرب الى الكعبة . وهي منزلة لها قيمة ، ولأصحابها مكانة روحية في المجتمع ، وإن لم يكن صاحبها من أصحاب الثروة والمال .

وللأخباريين قصص عن سبب تسمية « عبدالمطلب » بهذا الاسم ، هو من القصص المألوف الذي ألفنا قراءته في الكتب القديمة عند وقوع الأخباريين في حرج ووقوفهم حيارى أمام مشكلة لا يعرفون من أصلها شيئاً . فيلجؤون الى الابتكار والخيال لايجاد شكل من الأجوبة تحل على زعمهم تلك المشكلات ، فلا يتعرضون لنسبتهم الى الجهل والافلاس في الوقوف على أخبار الماضين .

(١) الطبري (٩٣٧/١) ، ابن هشام (٣٣١) .

Shorter P. 7 ff, Sprenger, III, P. Celiv. Causin de Perceval, Essai Vol. I. P. 239, Muir, The Life, I. P. Celi. Caetani I. P. 110, ff.

Shorter, P. 7. f.

(٢) اليعقوب (٨/٢) وما بعدها .

(٣) البلاذري (٨٤/٢) .

وعبدالمطلب في رأيي مثل الأسماء الأخرى ، قريش وقصي وعبدالمالك (١) وعبد شمس وسعد الله وعبدالله ومحمد ومسلم ويحمد وأمثالها ، أسماء عربية شمالية قديمة . وقد وردت في نصوص نبطية . فهي ليست من الأسماء التي عرفت قبيل الاسلام كما ذهب الى ذلك أهل الأخبار .

وبمناسبة الحديث عن هذه الأسماء أقول : إن أكثر أسماء قريش يرد في الكتابات العربية الشمالية وفي النبطية منها بصورة خاصة ، ولكنها قلما ترد في المسند . ولهذه الظاهرة أهمية كبيرة في دراسة موضوع الفروق بين العرب الشماليين والجنوبيين . كذلك نجد أن معظم أسماء أصنام قريش يرد في النصوص المذكورة ، وقلما يرد في الكتابات العربية الجنوبية ، مما يشير الى وجود تفاوت كبير بين أهل مكة والعرب الجنوبيين ، وتقارب كبير بين قريش والعرب الشماليين . ولهذه الظاهرة أهمية كبيرة في دراسة موضوع الفروق بين العرب الشماليين والجنوبيين .

وانتقل واجب الجد عبدالمطلب الى العم أبي طالب . وكان أبو طالب وعبدالله أخوين لأب وأم ، هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم (٢) ، انتقل اليه هذا الواجب ، وإن لم يكن أكبر أبناء عبدالمطلب . فقد كان « الحارث » شقيقه أكبر منه سناً ، لكنه لم يكن موسراً ، وكان العباس أكبر منه مالاً ، لكنه كان على ماله حريصاً (٣) . أما أبو طالب ، فقد كان يحب النبي حب عبدالمطلب له ، وكان يقدمه على أولاده . ولهذا كانت رعايته وحمايته من حصته ونصيبه .

وأبو طالب هو عبد مناف ، وهو والد علي بن أبي طالب صهر الرسول . ونحن نأسف على أننا لانملك من أخباره شيئاً كثيراً . وكل مانعرفه عنه هو مما له صلة بالرسول . وقد ورد في بعض الأخبار أنه ساد قومه . وقد عاش عشر سنين مابعد البعثة ، الى أن

(١) Rep, Epi. Semi., II, II, P. 181, 895, III, I, P. 123, Num. 1384, III, I, P. 128, Num. 1401, III, I, P. 130, Num. 1407, 132, Num. 1414, VII, 322, Num. 4693, IV, I, 55, 2117, II, II, 181, Num. 895, VII, 184, Num. 4304, VII, 422, 472.

(٢) سيرة ابن هشام (١٨٩/١) .

(٣) ظيقات ابن سعد (١٩٩/١ وما بعدها) ، Life P. ٦٤ ، هيكل (ص ١١٤) .

توفي قبل ثلاث سنوات من الهجرة (١) .

ونجد في كتب السير قصائد تنسب الى أبي طالب زعم أنه قالها ، وشعراً كثيراً اذا قرأه الانسان ، ووقف على أكثر هذا الشعر ، خرج جازماً بأنه من النوع الموضوع المقتعل المحمول عليه .

وذكر أن أبا طالب كان قد تزوج زوجين ، ورزق أربعة أولاد ، هم : طالب وهو أولهم وأكبرهم ، وقد كان في جملة من اشترك في معركة بدر مع المشركين ، ولم يعرف عنه أي شيء بعد بدر . وعقيل وقد ولد بعشر سنين بعد مولد طالب . وجعفر بعد عشر سنين من ميلاد عقيل ، في جملة من هاجر الى الحبشة من مهاجرة الاسلام ، وعلي وقد كان أصغر من جعفر بعشر سنين كذلك . وكانت له ثلاث بنات أو أربع . وأم هؤلاء الأولاد والبنات جميعاً هي : فاطمة بنت أسد بن هاشم .

وأما زوجه الأخرى ، فلم يذكر الأخباريون من نسلها إلا ولداً واحداً دعوه طليقاً ، لم يذكر الأخباريون اسمه ولا اسم ابنه حويرث في جملة المسلمين (٢) .

وكان أبو طالب مثل سائر أهل مكة في زمانه تاجراً ، يقصد بلاد الشام للتجارة . ولما كان محمد في الثانية عشرة من عمره أو أقل من ذلك في رواية (٣) ، خرج عمه التجارة الى بصري سوق التجارة مع البلاد العربية في ذلك الحين ، يقصدها تجار مكة لبيع ما عندهم من بضاعة ، واشراء ما فيها من سلع بلاد الشام وحوض البحر المتوسط ، وأشفق أبو طالب على ابن أخيه أن يصحبه من مشقات السفر وصعوبته عليه وهو في تلك السن ، وأبى محمد إلا مرافقة عمه فيها ، وكان له ما أراد . فخرج معه ووقف على حالة

(١) « توفي أبو طالب النصف من شوال في السنة العاشرة من حين نبي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة . » ، طبقات ابن سعد (١ / ١٢٥) ، نسب قریش (ص ١٧) ، الطبري (١ / ١١٢٣ ، ١١٧٤) ، ابن هشام (١١٥١ ، ١٦٧ وما بعدها) ، ابن حجر ، الإصابة (٤ / ٢١١ وما بعدها) .

Caetani, Annali, I, P. 308, Goldzjher, Mu. Stu., II, S. 107.

Shorter, P. 12, Buhl, Das Leben, S. 115, Noldeke, in ZDMG., lii, S. 27 ff, Ency. of Islam I, P. 108. f.

Sprenger, I, S. 147.

(٢)

(٣) السيرة الحلبية (١٤٠١) ، تراجم ابن أبي عمير ، وهو ابن سبع سنين من الهجرة (ص ٩) .

الناس في خارج بلده، ورأى بصري، ومدين ووادي القرى ومواقع أخرى جميلة ذات زرع وضرع وعيون وآبار لا تقاس بها مكة، ولا أي موضع آخر في الحجاز، وشاهد رهباناً ونصارى يقيمون في تلك الأماكن. وفي بصري أوصي راهب تسميه كتب السير بحيرى أو جرجيس أو سرجيوس أبا طالب بمحمد خيرا، لما وجدته عليه من التباهة والوسامة، ثم عاد به عمه الى مكة (١)

وكانت بصري أبعد مكان رآه الرسول في حياته، وأقصى مكان زاره في بلاد الشام. زارها وقد جلا الساسانيون عنها من عهد غير بعيد، بعد أن أنزلوا بها الخراب والدمار، مثل أذرعات في سنة ٦١٢ أو ٦١٤ للميلاد؛ وإلى صاحبها أرسل الرسول رسولا يفاوضه ويرغبه في الدخول في الاسلام. والظاهر أنه كان حاكماً على بصري، وكانت حاضرة «المقاطعة العربية Provincia Arabiae».

وينظر معظم المستشرقين الى قصة بحيرى على أنها أسطورة وقصة موضوعية. ليس لها أهمية تاريخية بالنسبة الى نبوة الرسول. واتخذها البعض حجة لاثبات أن الرسول كان قد تعلم منه الدين، وأنه كان قد تلقن منه علم يهود والنصرانية، فوضعه في الاسلام.

ويظهر أن أبا طالب لم يكسب من التجارة شيئاً، وأن حظه في السوق لم يكن حظاً حسناً، فلم يربح شيئاً يجعله مرتاحاً في معيشته وهو في آخر أيام حياته. ولهذا عاش عيشة ضئيلة وشدة، مما حمل الرسول وقد كبر وتزوج، على التخفيف عنه ومساعدته. ويلاحظ أن جل بني هاشم، لم يكونوا أغنياء موسرين، مع أنهم كانوا أصحاب تجارة وقافلة، يخرجون الى بلاد الشام للانجار، فيبيعون ويشتررون. ولكنهم لم يجمعوا مع ذلك من تجارتهم هذه ثروة كافية تجعلهم في طبقة أغنياء مكة الموسرين.

ويقال إن قبر أبي طالب، في المقبرة المعروفة اليوم باسم مقبرة المعلدة، وهي في الشمال الشرقي من مكة، وهي مقبرة قديمة. يقال انها من العهد الجاهلي، وهي لا تزال مقبرة لأهل مكة حتى اليوم. وفي هذه المقبرة قبر ينسب الى عبدالمطلب، وقبر آخر

(١) الطبري (١١٢٣/١ وما بعدها) ابن الأثير (٢٧/١ وما بعدها) : سيرة ابن هشام (١٩٠/١ وما بعدها)، طبقات ابن سعد (١٠٩/١ وما بعدها)، Life, P. 79.

ينسب إلى عبد مناف ، وقبر آخر ينسب إلى خديجة . وقد سويت كل هذه القبور وأزيلت معالمها (١) .
وسد الطريق المؤدى إلى هذه القبور الأثرية المهمة . فأدى ذلك وبا للأسف إلى ضياع آثار
ترجع إلى عهود مختلفة ، وإلى ضياع معالم تاريخية مهمة . فقد كانت على هذه القبور وغيرها
أبنية وشواهد تتحدث عن نوع من الرياسة في بناء المقابر ، وقد كانت عليها كتابات تمثل
تطوراً في الخطوط أزيلت كلها بهذه النظرة الشديدة إلى القبور .

ولما كان محمد في الخامسة عشرة من عمره أو في العشرين ، هزت مكة حرب
وقعت في الأشهر الحرم . الأشهر المقدسة التي انفقوا على ألا يكون فيها بغي ولا فساد ،
وأن تكون آمناً وسلاماً ، يستصلح فيها الناس أحوالهم ، ويتعهدون فيها شؤونهم دون
خوف من غادر ولا وجل من مباغته شقي . وقعت تلك الحرب بين كنانة وقيس عيلان ،
بسبب قتل البراض بن قيس الكناني ، لعروة الرحال بن عتبة الهوازني في هذه الأشهر .
قتله من غير أن يهتم بحرمتها وبقدسيته وبمكانتها الدينية عند الجاهليين . قتله ، لأنه
كان قد عرض نفسه على النعمان بن المنذر ليخفر قافلته التي كان يرسلها في كل عام من
الحيرة إلى عكاظ محملة بالتجارة النفيسة لبيعها في تلك السوق ، ولتعود بالجلود وبأنسجة
اليمن المزركشة وبالبيضائع الأخرى إلى الحيرة . وكان الأجر على ذلك على ما يظهر عالياً
مغريباً ، والاسم الذي يناله حارس القافلة من هذه الحفارة كبيراً . وعرض عروة نفسه
على النعمان كذلك ، ليقوم بحماية القافلة وإيصالها سالمة إلى عكاظ ، فاختار النعمان
عروة وقدمه على البراض وهذا ما أغاضه وأزعجه وجعله يحقد عليه ويضمر الشر له ،
فتبعه ، ووثب عليه وعلى قافلة النعمان ؛ وقتل عروة ، واستولى على القافلة دون مبالاة
بحرمة الأيام التي قتله فيها ولا بقديسية الشهر ومنزلته في النفوس . وهذا ما غاظ هوازن
رھط عروة ، وأوقع الحرب بينها وكنانة .

واستمرت الحرب متقاطعة أربع سنوات إلى أن انتهت بصلح . وقد شاهدها
الرسول واشترك فيها أو اشترك في بعضها . وكان عمله يومئذ جمع السهام التي ترسلها
هوازن على قومه ، وتقديمها إلى أعمامه لرمى هوازن بها . ويقال أنه اشترك نفسه برمي

(١) محمد حسين عيكل : في منزل الوحي (الطبعة الثانية) (١٩٥٢) (ص ٢٢٢ وما بعدها) .

السهم فيها ^(١) وعرفت هذه الحرب بحرب الفجار لان العرب فجرت فيها بحربها وخرجت على الحرمه والمقدسات بحربها في تلك الاشهر الحرم (٢) .

وشهد محمد حلف الفضول : شهد في دار عبدالله بن جدعان ، وكان قد أولم وليمة منصرف قريش من الفجار ، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيمم وبنو أسد بن عبد العزى ، فتعاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدي اليه حقه ، وألا يتركوا مظلوماً بمكة من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه (٣) . قاموا بهذا الحلف لاعادة السكينة والطمأنينة الى هذه المدينة المقدسة ، التي تعيش على التجارة وعلى دخلها من مواسم الحج وزيارة البيت والتقرب الى الأصنام والأوثان التي كانت فيها . ولم يكن من مصلحة قريش وبقيّة سكان مكة ، وهم حضر مستقرون ، انتشار الفتن ، وظهور الاعتداء في مدينتهم وحواليها . لقد كانوا يرون العافية في السلامة وفي الاستقرار والطمأنينة وراحة البال ، ولهذا كانوا لا يشتركون في قتال الا اضطراراً ، ودفاعاً عن مال ونفس . وقد كانت أضرار « الفجار » وأمثالها من الحروب شديدة الوقع عليهم ولا شك .

ويذكر أهل الأخبار أن السبب في هذا الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف : عبدالدار ومخزوماً وجمع وسهماً وعدي بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص ، وانتهروه . فلما رأى الزبيدي الشر ، رقى على

(١) الطبري (١ / ١٢٧ وما بعدها) ، ابن الأثير (٣ / ٤٣٩ وما بعدها) ، تاريخ الخميني (١ / ٢٨٨) ، السيرة الحلبية (١ / ٥١) ، سيرة ابن هشام (١ / ١٩٥ وما بعدها) الأغاني (٩ / ٧٤ وما بعدها) ، طبقات ابن سعد (١٦ / ١١٦ وما بعدها) ، « طبعة بيروت » البدء والتاريخ (٤ / ١٣٤ وما بعدها) ، هيك (ص ١٦٦ وما بعدها) .

Life, P. 82, Annali, P. 163, weil, Das Leben Mohammed's nach Mohammed Ibn Ishaq, S. 88.

(٢) « وشهد حرب الفجار الأيام سائرهما إلا نخلة : وكان يتناول عمه - الزبير بن عبدالمطلب النبأ » وكان عمره صلى الله عليه وسلم يومئذ عشرين سنة ؛ وقيل أربع عشرة أو خمسة عشرة سنة ، الامتاع (١ / ٩٥) ، السيرة الحلبية (١ / ٥١) .

(٣) طبقات ابن سعد (١ / ١٦٨ وما بعدها) « طبعة بيروت » ، الطبري (١ / ٤٦٣) .

أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، ونادى بأعلى صوته مستنجداً على عادة الناس في ذلك العهد ، طالباً من آل فهر احقاق حقه والأخذ بناصره ، فقام الزبير بن عبدالمطلب عم النبي ، فدعا القوم الى دار عبدالله بن جدعان ، فكان من اجتماعهم عقد ذلك الحلف (١) .

وورد في روايات أخرى أن العباس عم النبي كان هو الداعي الى ذلك الحلف ، كما ورد أن أبا سفيان كان هو الداعي اليه (٢) .

ويظهر من دراسة الأصول القديمة لروايات حلف الفضول أن الحاجة الى الأمن والاستقرار بعد تلك الحرب هي التي دفعت قبائل من قريش الى الاجتماع في دار عبدالله بن جدعان ، للتفاوض في أمر إحلال الأمن والسلام في مكة ، وحياة أهل مكة على الوافدين اليها من الحجاج والتجار ، وان الذي دعا الى ذلك نفر من قريش ، وأن الذي تزعم الدعوة وتبناها وجمع بين الرؤساء هو عبدالله بن جدعان من أثرياء مكة . أما إقحام اسم الزبير بن عبدالمطلب والعباس وأبي سفيان وغيرهم ، فقد وقع فيما بعد ، لغايات سياسية ودوافع عصبية تمت الى هذه السياسة العنيفة التي كانت بين آل الزبير وآل أبي سفيان وآل العباس . أدخل هذه الأسماء الرواة في أيام بني أمية وفي أيام العباسيين ، لما كان لحلف الفضول من أهمية ومكانة ، ولما في إقحام هذه الأسماء في ذلك الحلف من أهمية في سياسة عالم ذلك الوقت .

ونما محمد وشب وفكر في حياة حرة مستقلة ، وفي إعاشة نفسه ومساعدة عمه بعد أن قارب الخامسة والعشرين من العمر . وجد عمه وقد نهكته السنون ، ونضبت ثروته ، فلم تعد أمواله تكفيه لاعاشته وإعاشة أبنائه ، ورأى في نفسه حاجة الى أسرة ، ولا تكون الأسرة بغير مال . لقد قام منذ صباه برعي الأغنام ، رعى غنم أهله وغنم أهل مكة ، وقام بأعمال أخرى لمساعدة عمه ، ولكن الرعي وهذه المساعدات لن تفيدوه وقد بلغ هذا العمر ، ولهذا كان يفكر في رزق يسوقه الله اليه ، يكون فيه أمناً وطمأنينة له ، وكان ذلك عن طريق البيع والشراء والتجارة على عادة أغلب أهل مكة في ذلك العهد .

(١) السيرة الحلبية « ١٥٦/١ » ، « وأول من دعا اليه الزبير بن عبدالمطلب . . . »
طهقات ابن سعد « ١٢٨/١ » « طبعة بيروت » ، البدء والتاريخ « ٤-١٣٧ » .
(٢) السيرة الحلبية « ١٥٧/١ » .

وقد تكسب محمد بالاشتغال بالبيع والشراء مستقلاً بأعماله أحياناً ، ومشاركاً مع غيره أحياناً أخرى ، فكان يبيع ويشترى بمكة ، أو في أسواق الحجاز وبعض أسواق اليمن مثل سوق حباشة ، وهو موضع بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال ، يقام لمدة ثلاثة أيام من أول شهر رجب في كل عام (١) . تكسب من عمله هذا قبل المبعث وقبل أن يتزوج من خديجة . وقد تاجر الرسول بشراء البز وبيعه ، يشتره من سوق حباشة ، وهي سوق مشهورة ببيع هذه البضاعة ، وبيعه في مكة .

وكان في جملة من شارك محمد في التجارة السائب بن أبي السائب صيفي . تاجر معه قبل النبوة وقبل أن يتجر لخديجة ، وقد بقي حياً الى ما بعد فتح مكة . فلما فتحها الرسول ، جاء السائب اليه وقال : « مرحباً بأخي وشريكي . كان لا يداري ولا يرآني ولا يماري » (٢) . وقيل : إن السائب المذكور هو السائب بن يزيد ، وقيل : إن السائب بن أبي السائب قتل يوم بدر كافراً ، وقيل : إنه كان من المؤلفة قلوبهم ، وقد أعطاه النبي يوم الجمرات من غنائم حنين . وكان حكيم بن حزام في جملة من اشترى من الرسول ، اشترى منه بزاً من بز تهامة بسوق حباشة ، فقدم به مكة (٣) .

وقد عرف الرسول بالأمانة والصدق في المعاملة ، ولكنه لم يكسب من عمله في البيع والشراء مالا يذكر ، ولا ثروة تساعد وتساعد عمه أبا طالب في تمشية أموره . وقد كانت أحواله المالية قد ساءت ، ولم يعد يتمكن من إعالة أهله ، فذكر أهل الاخبار أنه فاتح محمد في يوم من الأيام بهذا الوضع قائلاً له : « يا ابن أخي ، أنا رجل لأمالي وقد اشتد الزمان ، وألحت علينا ودامت سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة . وهذه غير قومك قد حضر خروجهما الى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في غيرانها ، فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع فلو جئتها فوضعت نفسك عليها ، لاسرعت عليك ، وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتي الشام

(١) السيرة الحلبية (١/١٦١) .

(٢) السيرة الحلبية ٦/٦٦٦ ، الامتاع ٩/٦ .

(٣) السيرة الحلبية (١/١٦٢ وما بعدها) ، الامتاع (٨/١) .

وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا تجد لك من ذلك بدأ» (١) فذهب الرسول اليها ،
وتحدث معها ، فوافقت على أن يقوم بتجارتها الى بلاد الشام .

ويفهم من رواية أخرى أن الذي ذهب الى خديجة فكلما في ذلك هو أبو طالب
نفسه ، وأن الرسول كان فوضه بعد ما سمعه من عمه بالذهاب اليها وتحديثها في الموضوع .
فلما ذهب اليها وحديثها ، وافقت في الحال لما سمعته عن محمد من العفة والصدق
والأمانة والاستقامة في المعاملات ، وقام الرسول بعمله خير قيام (٢) .

وورد في رواية أن خديجة هي التي أرسلت الى محمد ، فكلته في موضوع قيامه
بتجارتها ، لما سمعته من رغبته في العمل ، وخروجه مع قافلة قريش التي كانت قد
أزعمت السفر الى بلاد الشام ، وأنها قالت له لما اجتمع بها : « إني دعائي الى البعثة
إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا اعطيك ضعف
ما أعطى رجلاً من قومك » ففعل محمد ، ولقي عمه أبا طالب ، فذكر له ذلك ، فقال :
إن هذا لرزق ساقه الله إليك (٣) .

وكانت خديجة بنت خويلد ، وهي من بني أسد . امرأة ذات شرف في قومها
ومال ، تاجر الرجال في مالها يضاربون لها به بشيء تجعله لهم . وكانت قد
تزوجت مرتين في بني مخزوم ، مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى . وكان يساعدها في تدبير
مالها أبوها خويلد وبعض ذوي قرابتها ومن تثق بهم من الناس . ولثروتها هذه ولشرفها
ومنزلتها في قومها ، طمع فيها الظالمون ، فعرضوا عليها الزواج ، ولكنها رفضت لما
علمته من طمع الرجال في أموال المرأة قبل المرأة . واقتنعت من حياتها بالتجارة تنميها
وتعيش عليها ما بقيت حية حتى يقضي الله فيها أمره (٤) .

(١) السيرة الحلبية (١ / ١٥٨) ، طبقات ابن سعد (١ / ١١٩ وما بعدها) ، ابن سيد
الناس (١ / ٤٨ وما بعدها) .

(٢) سيرة ابن هشام (٦ / ٦٩٧ وما بعدها) ، البدء والتاريخ (٤ / ٦٦٧ وما بعدها) ،
السيرة الحلبية (٦ / ٦٥٨) .

(٣) السيرة الحلبية (٦ / ٦٥٨) ؛ طبقات ابن سعد (٦ / ٦٦٩ وما بعدها) .

(٤) الطبري (٦ / ٦٩) « ذكر تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها » ،
« خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالمزى بن قهي بن كلاب . وأما فاطمة بنت زائدة بن
جندب » ؛ نسب « ص ٦٦ » ؛ طبقات ابن سعد (١ / ٦٦٩ وما بعدها) .

وسر محمد بموافقة خديجة على تكليفها إياه هذا العمل الذي عاد عليه بأول رزق كتبه الله له ، وخرج مع ميسرة غلامها بأموالها وتجارثها الى بلاد الشام . ولما باع كل ما كان قد أرسلته معه ، عاد بيضاعة جديدة ، أمرت خديجة بشرائها لها ، وأعطته أجره . وكانت هذه التجارة السبب الذي وصل بين محمد وخديجة وربط بينهما برابطة الزواج (١) .

وورد في بعض كتب السير أن محمداً قام لخديجة بسفرة أو سافرتين أو أربع سفرات الى اليمن الى سوق حباشة أو الى جرش ، وذلك قبل قيامه بسفرته المشهورة الى بصري ، وأنه استصحب في إحدى سفراته ميسرة غلام خديجة ، وصاحبه في سفرته الى بصري ؛ وتذكر أيضاً أنها دفعت له قلوفاً عن كل سفرة قام بها الى اليمن ، وأربع بكرات عن سفرته الى بلاد الشام (٢) .

وورد أيضاً أنه لم يكن يتجر وحده بمال خديجة ، بل كان له معه شريك (٣) . وربطت هذه التجارة بين النبي وبين خديجة . فتذكر كتب السير أن خديجة لما رأت ما رأته من إخلاص محمد ومن أماته وحسن تصرفه ، مالت اليه ، وفكرت في الزواج منه ، مع انها كانت أكبر سنّاً منه ، كانت في الأربعين من عمرها ، وكان هو في الخامسة والعشرين ، وأعربت عن رغبتها هذه لأختها علي قول ، أو لصديقة لها تدعى نفيسة بنت منية على قول آخر ، وقد قامت نفيسة كما تقول هذه الكتب بوساطة الزواج . أما الذي زوجها ، فكان عمها عمر بن أسد ؛ لأن خويلداً كان قد مات قبل حرب الفجار . وتذكر

(١) ابن سيد الناس (٣٧/١ وما بعدها) .

(٧) « فذلك حين أرسلت خديجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعوه أن يخرج في تجارة الى سوق حباشة ، وبعت معه غلامها ميسرة . فخرجا فابتناعا بزا من بز الجند وغيره مما فيها من التجارة ، ورجعا الى مكة فربعا ربحاً حسناً » ، الامتاع (٨٠/٨) ، السيرة الخلبية (٧٦٧/٧) .

(٧) الروي الاف (١٧/١) ؛ (فلما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغ اشده وليس له مال كبير ، استأجرت خديجة بنت خويلد الى سوق حباشة ، وهو سوق بتهامة ، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يحدث عنها ، ما رأيت من صاحبة لاجير خيراً من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبي ، إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبؤه لنا) ، ابن سيد الناس (٥٠/٧) .

رواية أخرى أن خويلداً كان حياً ، وأنه لم يكن راضياً عن الزواج في بادئ الأمر ، ثم وافق عليه (١) . ولم نشر روايات أخرى الى معارضة خويلد لهذا الزواج (٢) .

وفي الرواية التي تزعم أن خويلداً كان حياً عند زواج النبي بخديجة ما يفيد أنه كان قد امتنع عن تزويج ابنته له ، بسبب فقر محمد ويتمه . فقد جاء في هذه الرواية أن خديجة كانت على علم بأن أبيها يرغب عن أن يزوجه ، « فصنعت له طعاماً ، ودعت أباهما ونفراً من قريش ، فطعموا وشربوا ، فلما سكر أبوها ، قالت له : إن محمد بن عبد الله يخطبني ، فزوجني إياه ، فزوجها ، فخلقتها ، وألبسته ، لأن ذلك ، أي لباس الحلة وجعل الخلق به ، كان عاديهم . إن الأب يفعل به ذلك إذا زوج ابنته . فلما صحا من سكره ، قال : ما هذا ؟ قالت له خديجة : زوجتني من محمد بن عبد الله . قال : أنا أزوج بيتي أبي طالب الا لعمرى ! فقالت له خديجة : ألا تستحي ؟ تريد أن تسفه نفسك عند قريش ، تخبرهم أنك كنت سكران ، فلم تول به حتى رضي » (٣) .

وفي رواية أن حمزة بن عبد المطلب هو الذي دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها منه ، وأنه وافق على ذلك . وذكر أن الرسول أصدقها عشرين بكرة . وفي رواية أخرى أن الذي توسط في هذا الزواج هو ميسرة غلام خديجة ، وقيل : مولاة لها مولدة (٤) . وقد رفض محمد بن عمر الواقدي صاحب « الطبقات » خبر إسكار خديجة أباهما من أجل أن تضمن موافقته على تزوجه بمحمد ، وقال : « فهذا كله عندنا غلط

(١) الطبري (١ / ١٢٧ وما بعدها) ، ابن حجر : الإصابة (٣ / ١٣٠) ، ابن سعد (٨ / ٧ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (١ / ١١٩ وما بعدها ، ٣٥ وما بعدها) ، الأزرقى (ص ٤٦٣) ، سيرة ابن هشام (١ / ١٩٨ وما بعدها) « القاهرة ١٩٣٦ » ، طبقات ابن سعد (١ / ١٣١ وما بعدها) .
Shorter, P. 231 f., Sprenger, I, S. 194.

Caetani, Annali., I, 138. ff., 166, Lammens, Fatima, P. 12 Buhl, Das Leben, S. 118.

(٢) الطبري (٢ / ١٩٧) « ذكر تزويج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خديجة رضي الله عنها » ، البدء والتاريخ (٤ / ١٣٨ وما بعدها) .

(٣) السيرة الحلبية (١ / ١٦٤) ، سيرة ابن هشام (١ / ١٩٨ وما بعدها) .

(٤) السيرة الحلبية (١ / ١٦٤) ، وتجد فيها معظم الروايات الواردة في هذا الباب ، سيرة ابن هشام (١ / ٢٠١) .

ووهل ، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباه خويلد بن أسد مات قبل الفجار ، وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » (١) . وهذا الرأي هو الراجح والصحيح عند أهل الأخبار ، وليس من الممكن ولا من المعقول لجسوه امرأة بمنزلة خديجة في مثل أسرتها الى هذه الطريقة من إكراه أيها على الموافقة على تزويجها من محمد . وقد كانت قد تزوجت من قبل وفي سن لا تؤهل والديها أو أياً كان من ذوي قرابتها للتدخل في شأن من شؤونها ، كما لا تعقل موافقة محمد وعمه أي طالب على اللجوء الى هذه الطريقة التي تنافي آداب الأسر الكريمة (٢) .

وكان تزويج محمد بخديجة بعد مجيئه من الشام بشهرين أو خمسة عشر يوماً (٣) .

وورد أيضاً أن عمر خديجة كان يوم تزوجت خمساً وأربعين ، وقيل ثلاثين ، وقيل : ثمانين وعشرين ، وقيل : خمساً وثلاثين ، وقيل : خمساً وعشرين (٤) . ولكن الأشهر والأعرف عند أهل السير هو ما ذكرته من أنها كانت في الأربعين .

كما ذكر في بعض الروايات أن عمر الرسول حين تزوج خديجة كان إحدى وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثين ، وقيل : سبعاً وثلاثين (٥) .

وكان زوج خديجة الأول أبو هالة بن زرارة التميمي ، وكان اسمه هنداً ومات في الجاهلية ، وقد ولدت له خديجة ولداً سماه هنداً كذلك ، وهو من الصحابة الذين شهدوا بدرأ ، وقيل : أحداً . وهو صاحب خبر صفة الرسول . وقد قتل مع علي في يوم الجمل . وقيل : مات في الطاعون بالبصرة . وولدت له خديجة هالة بن أبي هالة ، وله صحبة أيضاً .

(١) طبقات ابن سعد (١ / ١٣٣) ، ابن سيد الناس (١ / ٥٠) .

(٢) « وقد رد هذا القول بأن أباه توفي قبل الفجار » ، الامتاع (١ / ١١) .

(٣) السيرة الحلبية (١ / ١٦٦) .

(٤) السيرة الحلبية (١ / ١٦٧) ، اسد الغابة (٥ / ٣٥) .

(٥) سيرة ابن هشام (١ / ١٩٨) ، حاشية رقم ٣ ، « طبعة القاهرة ١٩٣٦ » .

وبعد أن مات أبو هالة عن خديجة ، تزوجها عتيق بن عائد «عابد» المخزومي ،
وقد رزقت بتاً منه هي هند . وقد أسلمت وصحبت (١) . وهي أم محمد بن
صيفي المخزومي (٢) .

وقد ولد لمحمد من خديجة جملة أولاد وبنات ، هم : القاسم ، وبه كان يكنى
لأنه أكبر أولاده ، وقد مات طفلاً . وقيل : عاش إلى أن ركب الدابة وسار على النجبة .
ثم زينب ، وقيل : هي أسن من القاسم . ثم رقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة . وقيل في كل
واحدة منهن إنها أسن من أختيها . وروي أن رقية أسن الثلاث ، وأم كلثوم أصغرهن .
ثم ولد له عبدالله . وقد اختلف في وقت ولادته ، فقيل : ولد بعد النبوة . وقيل : بل
قبلها ، وقيل : إنه «الطيب» ، وقيل : إنه «الطاهر» . وقيل : بل هو غيرهما .
ويرى بعض أهل الأخبار أنهما لقبان له (٣) .

(١) السيرة الحلبية (١ / ١٦٧) ، سيرة ابن هشام (١ / ١٩٨) «حاشية رقم ٤١» ،
«وكانت خديجة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت أبي هالة بن زرارة ... كل ذلك ذكره
الزبير . وهذا عكس ما نقله أبو عمرو عن الزبير ، فإن أبا عمر «نقل عن الزبير أنها كانت عند
أبي هالة أولاً ثم بعده عند عتيق . ونقل أبو نعيم عن الزبير ، فقدم عتيقاً على أبي هالة ، وأما
الذي رويناه في نسب قریش للزبير : قال : وكانت يعني خديجة قبل النبي صلى الله عليه وسلم عند
عتيق بن عائد بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، فولدت له جارية . وهلك عنها عتيق فتزوجها أبو
هالة . . . وبعض الناس يقول : أبو هالة قبل عتيق . . . » اسد الغابة (٥ / ٣٤) وما بعدها .

(٢) السيرة الحلبية (١ / ١٦٧) ، «تزوجت خديجة بنت خويلد بن أسد قبل رسول الله صلى
الله عليه وسلم رجلين . الأول منها : عتيق بن عايد بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، فولدت له
جارية ، وهي أم محمد بن صيفي المخزومي ، ثم خلف على خديجة بعد عتيق بن عايد ، أبو هالة
التميمي ، وهو من بني أسيد بن عمرو . فولدت له هند بن هند . وكذا وقع في هذه الرواية عتيق
بن عايد . والصواب عابد بالباء . قاله الزبير . وسمى الجارية التي ولد لها منه هنداً . وأسم أبي هالة :
هند بن زرارة بن النباش بن غذي بن خبيب بن صرد بن سلامة بن جروة بن أسيد بن عمرو بن
تميم فإروينا عن الدولابي » ، ابن سيد الناس (١ / ٥٠) وما بعدها .

(٣) ابن قيم الجوزية : زاد الماد (١ / ٢٥) ، نسب (ص ٢١) ، «فأما القاسم والطاهر
والطيب ، فهلكوا في الجاهلية» ، الطبري (٢ / ١٩٧) «ذكر تزويج النبي ، صلى الله عليه
وسلم ، خديجة رضي الله عنها» ، الروض الأنف (١ / ١٢٣) ، سيرة ابن هشام (١ / ٢٠٢) ،
طبقات ابن سعد (١ / ١٣٣) وما بعدها ، ابن سيد الناس (٢ / ٢٨٨) وما بعدها ، البدء
والتاريخ (٤ / ١٣٩) .

وانتقل الرسول بعد زواجه بخديجة الى بيتها ، وقد عرف في الاسلام بمنزل خديجة . وكان معاوية قد اشتراه ، فجعله مسجداً يصلي فيه الناس . وكان على باب البيت عن يسار من يدخل البيت حجر كان الرسول يجلس تحته يستتر به من الرمي إذا جاءه من دار أبي لهب ودار عدي بن حمراء الثقفي خلف دار ابن اعلقمة . والحجر ذراع وشبر في ذراع (١) . وتقع الدار في المناطق الراقية من مكة . ولم يكن يعكر صفوه منها غير جبرته الذين أخذوا يؤذونه بعد جهر النبي الدعوة الى الاسلام (٢) . لقد أسعد هذا الزواج الرسول وأراحه ، وعاش الزوجان عيشة هائلة : ترعاه خديجة وتهيء له كل وسائل الراحة ، مما يسر له التفكير في الخالق وفي الكون وفي حالة الناس في أيامه ، وما كانوا عليه من ضلال في الدين ، ومن فوضى في الحياة في مختلف نواحيها . يجالس مختلف الطبقات « ولا سيما الطبقات الضعيفة الفقيرة ، وذوي الفاقة والحاجات ، وهم الأكثرية والغالبية العظمى ، يسمع منهم « ويرى سوء حالهم ، وقد خبر هو نفسه حالة الانسان حين يكون يتيماً « وحين يولد فقيراً . ومن هنا نجد مصدر عطفه على اليتامى والفقراء ودفاعه عنهم دفاعاً لم يرد مثله في أي دين من الأديان .

كانت المدة التي قضاها الرسول مع خديجة من أحلى أيام الرسول ، ظلت ذكرها عالقة بذهنه ، فلم ينسها ، حتى انتقل الى الرفيق الأعلى . أخلصت خديجة له ، وأمنعت في خدمته ، وأحبته ، فكيف لا يتذكرها بعد وفاتها ؟ ومن دلائل حبه لها وتعلقه بها أنه لم يتزوج امرأة أخرى في حياتها ، ولم يفكر في امرأة سواها وأنه ظل يذكرها بعد وفاتها ويترحم عليها . روي عن عائشة أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوماً من الأيام ، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها ! فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ، ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت

(١) الطبري (٢ / ١٩٧ وما بعدها) « ذكر تزويج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خديجة رضي الله عنها » .

إذ كفر الناس ، وصدقني إذ كذبتني الناس ، وواستني في مالها ، إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئة أبداً . . . (١) .

وكان محمد في الخامسة والثلاثين من العمر ، أو في الخامسة والعشرين يوم أعادت قريش بناء الكعبة لتصدع حدث في جدرانها على أثر سيل عظيم . وهو الذي وضع الحجر الأسود في مكانه في احتفال كبير مهيب (٢) .

وقد ورد في بعض الروايات أن الرسول كان غلاماً حيث هدمت الكعبة ، فكان ينقل الحجارة مع الناقلين (٣) ، أي أنه كان دون العمر المذكور .

هيات خديجة لزوجها كل أسباب الراحة ، وشعر الرسول بالسعادة والراحة ، له زوج صالحة ، وله بيت ساقه الله إليه ، وله مال من زوجه هذه يكفيه . ثم إنه رجل قانع لا يميل الى متاع الدنيا ، ولا يرغب في التعميم ، لولا حادث كدر صفوه - وأثر فيه كثيراً كما أثر في خديجة أيضاً ، هو وفاة ابنهما البكر القاسم ، مات قبل المبعث ، ثم وفاة ابنهما الآخر عبدالله قبل النبوة على رواية . وقد كانا الولدين الوحيدين اللذين رزقهما النبي من خديجة . ولما نعرفه من أهمية الولد عند العرب ، ندرك مبلغ حزن الرسول وخديجة على الحادثين ، ومقدار تأثرهما به .

والغريب أن الولد الثالث الذي رزقه الرسول من سريته مارية القبطية ، وهو إبراهيم الذي ولد له بالمدينة سنة ثمان من الهجرة ، لم يعيش أيضاً ، إذ توفي وهو طفل قبل الفطام (٤) ، وحرّم محمد بوفاته كل ولد ذكر .

(١) أسد الغابة (٥ / ٤٣٨ وما بعدها) .

(٢) خبر هدم الكعبة وإعادة بنائها واختلاف قريش في ذلك في تاريخ الطبري (٢ / ١٩٨) ، ابن هشام (١ / ٢٠٤ وما بعدها) ، ابن سعد (١ / ١٤٥ وما بعدها) ، الروض الأوف (١ / ١٢٧) ، الخلية (١ / ١٧٢) ، ابن سيد الناس (١ / ٥٢) .

(٣) أخبار مكة (ص ١٢٤) .

(٤) السيرة الحلبية (٢٥ / ٢٠) ، نسب (ص ٢١) .

ولم تتحدث كتب السير عن تجارة الرسول قبيل نزول الوحي عليه ، ولم تتحدث عن قيامه برحلات تجارية الى خارج مكة كذلك في هذا الوقت . وليس في هذه الكتب أي خبر يفيد ذهاب الرسول الى الحبشة وعبوره البحر الاحمر أو ركوبه البحر . لا قبل هذه الايام ولا بعدها . والظاهر أن تغلب حب الخلوة عليه قبيل نزول الوحي قد حمله على الاكتفاء بما قد جمعه هو وبما جمعته خديجة من تجارتها ، فلم يذهب الى الأسواق البعيدة النائية ، ولا الى الأسواق المحلية يقضي وقته فيها على عادة التجار ، بل اكتفى بتجارة خفيفة ، وربما اكتفى بالاشراف على ادارة أموال زوجته أيضاً . وبذلك هيا نفسه للتفكير في الخالق وفي الكون وفي التفكير في أحوال قومه وفيما كانوا عليه . ولو انصرف الى التجارة وتعاون مع زوجته خديجة في تنمية ثروتها والمضاربة بأموالها ، لصار له شأن يذكر بين التجار ، ولصار له مال وثراء ، ولم يذكر احد أنه حاز على هذه الثروة أو انه طمع فيها ولا سعى وراء المال والثراء ، لا قبل نزول الوحي عليه ولا بعد نزوله .

وقد كان بين من أسلم وآمن بالله نفر كانت ثروتهم تفوق ما كان عند الرسول وتريد عليها أضعافاً مضاعفة ، فساعدوا الرسول بأموالهم في إبلاغ الناس رسالته وفي مساعدة الفقراء وفي تحرير الرقاب ، لم يبالوا بما بذلوه من جهد سابق في تحصيلها ولا من نصب في جمعها ، ولم يفكروا في ضياعها وفي خروجها منهم ، ذلك لاعتقادهم بعد دخولهم في الإسلام أن الثروة عرض ، وأن الايمان جوهر أئمن من المال ومن متاع هذه الدنيا الفانية ، فجادوا بما جمعوه ، وتباروا به في نشر الاسلام .

وقد كانت قريش جماعة تجارة ، أفرادها تجار ، ويجتمعها مجتمع تجارة ومال ، حتى الكعبة وما يتعلق بها جعلتها مكسباً وتجارة تستغلها . عملت كل ما في إمكانها لتبئة جميع وسائل الراحة لمن يقصد مكة للحج في المواسم وللطواف في غير المواسم المقررة . ولهذا نجد القرآن الكريم يخاطبهم بلقنتهم التي يفهمونها ، وبالمصطلحات التي كانوا يستعملونها ، فقد وردت فيه مصطلحات يفرط التاجر في استعمالها في حياته التجارية ، مثل : تجارة ، وخسرت ، وخسر ، وبيع ، وربا ، ويقرض ، وقرضاً حسناً ، ورحلة

الشتاء ، ورحلة الصيف ، ورزق ، وقسط ، ووزن ، وقسطاس ، وقسمة ، وأمثال ذلك وردت في آيات يفهمها التاجر ويدركها بكل سهولة .

لم يكن في طبع محمد وسجيته ميل الى لهو وعبت ، فلم يقع له ما يقع فيه لداته من ارتياد مجالس الأنس والطرب . وقد كان ينفر من الغناء والموسيقى ، فلم يحضر حتى مجالس الطرب التي تقام في الأفراح وتحييها القيان ، ويغنى فيها المغنون . ذكر أنه أراد مرة أن يسمر بمكة كما يسمر الفتيان ، وكان بأعلى مكة يرعى الغنم ، فقال لفتى من قريش كان معه : أبصر لي غنمي ، حتى أسمر هذه الليلة كما يسمر الفتيان ، فوافق . وجاء الى مكة ، فلما بلغ أدنى دار من دور مكة ، سمع غناء وصوت دفوف ومزامير ، وكان فيها عرس ، فلما بذلك الغناء وبذلك الصوت ، حتى غلبه الناس ، فنام ولم يوقظه إلا مس الشمس له . وأراد مرة أخرى أن يسمر ، ولكنه لم يفعل أكثر مما فعله هذه المرة . وذكر أن الرسول قال : « والله ، ما هممت بغيرهما بسوء مما يعملها أهل الجاهلية ، حتى أكرمني الله عز وجل بشيئته » (١) .

ولم يكن يميل الى مخالطة الناس كثيراً . ولا الاجتماع بأقرانه طويلاً : لشغفه بالوحدة وجنوحه الى الخلوة ، حتى أعياد قومه لم يكن يرغب في حضورها وشهودها . وطالما حثه عمه أبو طالب وعماته على مشاركته قومه أفراحهم في أعيادهم ، ولكنه كان يجد مشقة وصعوبة في الاستجابة لطلبهم ويعتذر اليهم عن حضورها . ذكر عن « أم أيمن » أنها قالت : كان بوانة صنماً تحضره قريش وتعظمه وتنسك له وتحلق عنده وتعكف عليه يوماً الى الليل في كل سنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ، ويكلم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يحضر ذلك العيد معهم ، فأبى ذلك . قالت : حين رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب ، وجعلان يقرن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ؛ ويقولن : ما تريد - يا محمد - أن تحضر لقومك عيداً ، ولا تكثر لهم جمعاً ؟ فلم يزالوا به ، حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع مرعوباً فرعاً ، فقلنا : ما دهالك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لمم . فقلنا : ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان ، وكان فيك من خصال الخير ما كان ، فما الذي

(١) عبون الأثر (١ / ٤٤) وما بعدها .

رأيت ؟ قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل ، يصيح بي : ورائك يا محمد ، لا تمسه ! قالت : فما عاد الى عيد لهم ، حتى تنبأ « (١) .

ووصف الرسول أحد من رآه وشاهده بالكلمات الآتية : « ولم أر منه ولا ضحكا ، ولا جاهلية ، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون » (٢) . وكذلك كان وصف الآخرين من شاهدوه منطبقاً على هذا الوصف : تأمل وتفكير ، وهمدوء ، وميل الى الانزواء والابتعاد عن الأعمال التي يقوم بها لداته من هم في عمره ، وهجر الجاهلية الجاهلين تام . انصرف الرسول بعد زواجه الى التفكير في خلق السماوات والأرض وفي الخالق

وفي أحوال قومه ، لقد تغلب هذا التفكير عليه وزاد كلما تقدم في السن ، حتى دفعه الى اعتزال الناس والابتعاد عنهم خارج مكة ، ليكون في خلوته هذه بعيداً عن المزعجات والمضايقات ، منصرفاً الى التفكير انصرافاً تاماً ، وصارت هذه الخلوة أحب شيء اليه (٣) . فطالت ساعاتها واتسع وقتها ، وظل يواظب عليها الى إبلاغ الناس رسالته .

وقد حملته تفكيره هذا في خلق السماوات والأرض وفي أحوال قومه على السهر في الليالي ، ولاسيما في أواخرها متأملاً الخلق « ناظراً الى السماء فاحصاً ما فيها ، ناظراً اليها نظرة تدقيق وإعجاب » باحثاً عن القوة المهيمنة عليها والخالق الذي أوجدها والنظام البديع المسير لها . دأب على ذلك قبل الوحي ، واستمر عليه مضيئاً اليه الصلاة في الاسلام .

لقد كان الرسول يشعر قبل نبوته أن عليه رسالة وواجباً تجاه قومه ، وأن له رأياً يختلف عن رأي قومه في كثير من الأمور . وكان كلما تقدم في السن ازداد شعوره بذلك ، وازداد يقيناً برسالته هذه وبوجوب هداية قومه وارشادهم ، وهذا الشعور هو الذي حملته على التحنث والانزواء عن الناس والابتعاد عن عبادة الأصنام وعدم مشاركة قومه في احتفالاتهم بأعيادهم ، لما لها من علاقة بالوثنية والأوثان .

(١) عيون الأثر (١ / ٤٥) .

(٢) تفسير روح المعاني (٣٠ / ٦٦ وما بعدها) .

(٣) « وحيث اليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب اليه منها » ، طبقات ابن سعد (١ / ١٩٤) « طيبة بيروت » .

هذا كل ما نعرفه عن حياة النبي منذ ولد الى يوم نزل الوحي عليه ، وهو يوم بلوغه الأربعين من عمره ، وهي مدة تساوي ثلثي عمر الرسول . وقد أخذنا كل ذلك من كتب الحديث والأخبار والسير . أما القرآن الكريم ، فلم يتعرض لحياته في هذه المدة إلا ما ورد في سورة الضحى :

« والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، والآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيماً فأوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ؟ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث . »

وكل ما ورد في هذه الموارد هو روايات شفوية بنيت على الرؤية والسماع . وطبيعة هذا النوع من الرواية ، تجعل من الصعب على الرواة المحافظة على ما سمعوه وأخذوه ، ولا سيما في الأمور التي تحتاج الى ضبط في مثل الأيام والأشهر والسنين . ولهذا نجد في السير والتواريخ اختلافاً بين الرواة يظهر على الأكثر في ضبط الأيام والأشهر والسنين . وسنرى أمثلة عديدة من ذلك في الفصول الآتية . وما كان يقع ذلك ، ولا شك ، لو أن تلك الروايات دونت في أيام الرسول ، أو الأيام القريبة منه .

ومرد الاختلاف الذي رأيناه في ضبط الأيام والسنين الى عدم تدوين تواريخ الميلاد في ذلك العهد ، والى عدم اهتمام الانسان بضبط أيام طفولته وشبابه في الغالب ، ولجوء الأخباريين الى أشخاص عديدين في معرفة أخبار الرسول . وقد أخذ هؤلاء علمهم شفاهاً ورواية ، ومن أناس متعددين رجالاً ونساء ، ولهذا تعددت الروايات واختلقت الأقوال في موضوع التواريخ بصورة خاصة ، وقلما تتمكن الذاكرة من ضبطها ضبطاً تاماً . ثم إن حياة الرسول قبل النبوة ، لم تكن ذات صلة بكثير من الناس ، وكانت ذات وتيرة واحدة ، تغلب عليها العزلة والانعزالية والانطواء والتأمل ، وحياة مثل هذه . وفي هذا الدور من حياة الانسان لا يمكن بالطبع أن تعي منها الذاكرة شيئاً كثيراً .

وأما ما بعد ذلك ، فسيرة الرسول واضحة مفصلة ، ثبتها القرآن الكريم ، وثبتها الصحابة الذين لازموا الرسول وشهدوا معه الأحداث والمواقع ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يلزامونه فلا يفارقونه في غالب الأحيان . وسيرة الرسول في هذا العهد هي مبدأ

تأريخ الاسلام ، وتأريخ نشوئه ، وهي في دورين بالطبع دور مكة ، ثم دور يثرب مدينة الرسول بعد هجرته ومشواه الأخير .

وسيرة الرسول هذه على ايجازها واختصارها ، أوضح وأصح صورة وردت عن حياة رسول من الرسل ونبي من الأنبياء . وردت في القرآن الكريم ، على خلاف مانجده في الكتب السماوية وفي الكتب المقدسة الأخرى . سيرة انسان ولد إنساناً كما يولد سائر الناس ، وعاش مثل غيره ■ ومات كما يموت الآخرون .

الفصل الرابع

محمد رسول الله

تعد السنة الأربعون ، أو حوالي هذه السنة من حياة محمد ، سنة مهمة جداً في تاريخ العرب والاسلام والعالم . ففي هذه السنة نزل الوحي عليه ، مبلغاً إياه بأنه رسول الله رب العالمين الى العالم أجمعين ، وأن عليه إبلاغ رسالته للناس ونشر دعوته بينهم (١) . وتصادف هذه السنة سنة ٦١٠ تقريباً الميلاد .

وقد كان ذلك في ملك كسرى أبرويز ، وعلى الحيرة إياس بن قبيصة الطائي (٢) . وبعد المسلمون السنة الأربعين من حياة الانسان سنة الكمال والنضج وبلوغ العقل نهايته من الصفاء والوضوح ، وهي سنة النبوة في حياة الأنبياء (٣) .

وما ذكرته عن نزول الوحي عليه ، وهو في الأربعين من العمر ، هو رأي أكثر أهل السير والأخبار . غير أن هنالك روايات أخرى ذكرها الطبري وغيره ، تخالف هذه الرواية المألوفة فهناك خبر يتصل سنده بان عباس ذكر فيه أن الرسول نبي . حين نبي . وهو ابن ثلاث وأربعين سنة (٤) .

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، للحسين بن المبارك الزبيدي ، (١ / ٦٢) « باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم » .

(٢) البلاذري (١ / ١٠٣) وما بعدها .

(٣) « بعثه الله على رأس أربعين ، وهي رأس الكمال . قيل : ولما بعث الرسل . وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع الى السماء ، وله ثلاث وثلاثون سنة : فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه . » ابن قيم الجوزية : زاد المعاد (١ / ١٩) .

(٤) الطبري (٢ / ٣٠١ وما بعدها) « امتاع الأخام (١ / ١٣) » ، تاريخ الاسلام ، الذهبي (١ / ٦٩) .

وأما كيفية ابتداء نزول الوحي عليه ، فكانت على ما نقوله رواية عن عائشة على

هذا النحو :

■ أول ما بدى به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حجب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه . وهو التعب الليلي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك ، فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذني فغطني « فغتنى » حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني « فغتنى » الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فغطني « فغتنى » الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ■ الذي علم بالقلم . فرجع بها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملوني . زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع » (١) . فكان هذا أول الوحي . وكانت هذه الآيات أول القرآن .

ولم تشر روايات عن ابن عباس وعن جابر بن عبد الله وعن غيره إلى نزول شيء من القرآن على الرسول في المرة الأولى التي ظهر فيها جبريل للرسول ، بل تذكر أنه « بينا رسول الله بأجياد إذ رأى ملكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح : يا محمد ، أنا جبريل ، يا محمد ، أنا جبريل . فذعر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من ذلك ، وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء » فرجع سريعاً إلى خديجة ، فأخبرها خبره ، وقال : يا خديجة ، والله ■ ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ولا الكهان ، وإني لأخشى ، أن أكون كاهناً » (٢) . فطمأنته خديجة ، وهدأت من روعه ،

(١) التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح ، للزيدي (١ / ٤) ، « باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، سيرة ابن هشام (١ / ٢٥٢) ، « طبعة البائي » ، الطبري (٢ / ٢٠٣ وما بعدها) ، أخبار مكة (ص ٤٦ وما بعدها) ، « طبعة لايبزك » ، عيون الاثر في فتون المغازي والشمائل والسير ، لابن سيد الناس (١ / ٨٤ وما بعدها) ، القاهرة ١٣٥٦ هـ ، السيرة الحلبية (١ / ٢٧٢) ، تأريخ الاسلام ، للذهبي (١ / ٦٩) .

(٢) طبقات ابن سعد (١ / ٩٤ وما بعدها) ، « طبعة بيروت » .

وشجعته ، ثم ذهبت الى ورقة لتسأله الخبر على نحو ما ورد في بقية الروايات .
وهناك روايات تفيد أن الوحي نزل على الرسول ، وهو نائم في غار حراء (١).
ولكن أكثر أهل الأخبار على أنه كان في يقظة ، لأن الوحي بالنبوة لا يمكن أن يكون
في حالة نوم . ثم إنه لا يختلف في هذه الحالة عن الرؤيا التي تظهر للأشخاص في
أثناء النوم .

والوحي في تعريف العلماء ، هو الكلمة الالهية التي تلقى الى أنبيائه ورسله وأوليائه ،
وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبي في صورة معينة ،
أي بتنزيل ، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله « وإما بالقاء في
الروح ، وإما بالهام ، وإما بتسخير ، وإما برؤيا (٢) . وعقيدة الوحي ، معروفة عند
النصارى وعند اليهود قبلهم . وهو عندهم على درجات أيضاً (٣) . وهو (أوحى Aohy)
في العبرانية والارمية و (وحي Wahaya) في الحبشية (٤) .

والوحي كلام الله ، انزل على رسوله « وهو القرآن الكريم الذي حفظه الرسول
عن جبريل وألقاه الى المسلمين ، فهو كتاب الله . وكذلك اعتقد اليهود أن الوحي هو
كلام يهوه أوحى الى أنبيائه ، فكتبهم هي [كتب يهوه Jahve Zebaoth] (٥) .
وقد كان الجاهليون كما سئزى يعتقدون بالالهام ، وبالتكليم من السماء . فقد
كان الكاهن ملهماً في نظرهم ، يتلقى إلهامه من « تابع » أو « رئي » يلقي اليه الغيب ،
كما كان للشاعر شيطان يوحي اليه القول . واعتقدوا بتكليم السماء للإنسان « فقد ذكر
أن قريشاً كانوا اذا مر بهم النبي « في مجالسهم يشيرون اليه ، ويقولون : غلام بني
عبدالمطلب ، يكلم من السماء » (٦) . وان قالوها هزأ به واستخفافاً .

(١) « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب .
فقرأته ، ثم انتهى ، ثم اعرف عني ، وهبت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً » ،
الطبري (٢ / ٢٠٧) .

(٢) المفردات (من ٥٢٦) ، Nöldeke, I, S. 21, Goldziher, Muh. Stud.,

II, 7. Dictionary of Islam, P. 213. f.

Hastings, P. 383.

(٣)

Handwörterbuch, S. 764, Fraenkel, Aram. Fremdwörter, S. 245.

Nöldeke, I, S. 5.

(٥)

Nöldeke, I, S. I.

(٦) البلاذري (١ / ١١٥) ،

ويرى بعض العلماء أن الوحي حينما نزل على الرسول ، إنما نزل عليه بآدى بدء النبوة فصار نبي قومه ، ثم نزل الوحي عليه في السنة الرابعة من الوحي بالرسالة ، فصار رسولاً الى الناس أجمعين . واستمرت رسالته عشرين سنة أو تسع عشرة سنة ، وتكون بذلك مدة نبوته ورسالته ثلاثاً وعشرين سنة . وهذا الرأي هو رأي العلماء المتأخرين ، وليس في القرآن الكريم وفي كتب الحديث ما يشير اليه .

والذي يظهر من تتبع ورود لفظة « النبي » والألفاظ المتعلقة بها ، ولفظة « الرسول » وما يتعلق بها من ألفاظ ، في القرآن الكريم . أن لفظة « رسول » قد وردت أول مرة في سورة « المزمل » (١) ، وسورة المزمل من السور المكية القديمة التي نزلت في الدور الأول من أدوار نزول الوحي على الرسول . ولفظة الرسول هي وأخواتها في المعنى ، من الألفاظ العربية الأصيلة ، وقد وردت في هذه السورة بفكرة مبعوث ومرسل برسالة الى قوم . أما لفظة « النبي » و « نبي » وما اليها من بقية ألفاظ ، فقد جاءت في سور مكية كذلك . ولكنها لم ترد في السورة المذكورة ولا في السور الأخرى التي نص العلماء على أنها من السور المكية القديمة التي نزلت في السنين الأولى من الوحي ، بل في سور متأخرة عنها . ولهذا قلت : إن الرأي المذكور الذي يذكر أن السنين الأولى الثلاث من نزول الوحي كانت نبوة والسنين الباقية هي رسالة ، هو رأي متأخر قال به علماء متأخرون . قالوا به على ما يظهر بعد توسعهم في العلوم ، ووقوفهم على معنى النبوة عند أهل الكتاب . وتخصص لفظة « نبي » عند اليهود بأبيائهم الذين جاءوا خاصة الى بني اسرائيل . فذهبوا الى هذا التفريق ، لأن النبوة في الاسلام هي أوسع من مراد النبوة في اصطلاح أحبار يهود . فذهبوا من أجل هذا الى أن الوحي حينما نزل « إنما نزل بالنبوة في بآدى الأمر ، ثم بالرسالة بعد توسع الدعوة وشمولها أهل مكة وغير مكة من العرب ثم شمولها العرب والعجم على حد سواء .

وقد كان الرسول نذيراً وبشيراً لقومه ، ولذلك دعي ب « النذير » وب « البشير » في القرآن الكريم ، في سور مكية ومدنية . وقد عبر عن الرسل ب « منذرين » أيضاً وب « مبشرين » ؛ لأن الرسول لم يكن مخوفاً ، ينذر الناس بعذاب أليم ، بل هو مبشر

(١) الآية ١٥ وما بعدها .

لهم أيضاً ، يشرهم بالحق وبما يصالح الانسان . ومن هنا نجد في السور المكية الأولى إنذاراً للمشركين بعذاب أليم ، وبنار لا تترك ولا تذر ، لواحة للبشر ، وذلك لعنادهم ولما قاومتهم الدعوة الى الحق . ونجد فيها تبشيراً للمؤمنين برحمة وبنعيم مقيم . وكلما قاومت قريش الاسلام واشتطت في ايدائها للمسلمين ، اشتد الوحي في انذارها بمصير يشبه مصير ثمود وقوم لوط والعاصين الماضين ، وبعذاب في الآخرة بعد الموت .

وذكر بعض العلماء : أن أول ما نزل من القرآن ، هو « اقرأ » . وبهذا النزول ابتدأت النبوة (١) . ولم ينزل بعد آيات « اقرأ » من الآيات شيء الى ثلاث سنين (٢) . ثم نزلت المدثر ، أو المزل ؛ بعد ثلاث سنين ، فكانت أول ما نزل للرسالة (٣) . وهم يقصدون بذلك عدم نزول شيء من القرآن مدة السنوات الثلاث التي تحدثنا عنها ، أي مدة الاستخفاء . فيجعلون بذلك فترة انقطاع الوحي وفترة الاستخفاء شيئاً واحداً . فلما نزلت المدثر ، استمر الوحي عليه ، يأتيه منجماً طيلة هذه المدة التي تلت النبوة . ومدتها عشرون عاماً .

وقد اختلف في اليوم الذي نزل فيه « جبريل » على الرسول بالوحي ، كما اختلف في ضبط اسم اليوم ، ف قيل : انه كان في ليلة السابع عشر من شهر رمضان . وقيل : رابع عشر منه ، وقيل : لأربع وعشرين ليلة خلت من شهر رمضان ، وقيل : كان ذلك ليلة ثمان من شهر ربيع الأول ، وقيل : إنه ليلة أو يوم السابع والعشرين من شهر رجب (٤) . ثم قيل : إنه السبت ، وقيل : إنه الأحد وقيل : إنه الاثنين ، الى غير ذلك من روايات (٥) .

وإذا جاز وقوع الاختلاف في اليوم ، فانه لا يجوز الاختلاف في الشهر ، ذلك

(١) السيوطي الاتقان (١ / ٤٠) .

(٢) الزنجاني ، تأريخ القرآن (ص ٩) .

(٣) الاتقان (١ / ٤٠) .

(٤) « عن ابن عباس قال : نبي نبيكم ، صلى الله عليه وسلم : يوم الاثنين » ، طبقات ابن سعد (١ / ١٩٣ وما بعدها) « طبة بيروت » ، السيرة الحلبية (١ / ٢٧٢) ،

عيون الاثر (١ / ٨٨) .

(٥) الطبري (٢ / ٢٠٣ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١ / ١٤) .

لأن الاختلاف فيه معناه معارضة صريحة للقرآن الكريم . فقد نص في سورة البقرة عليه في هذه الآية : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقات » (١) . وورد في سورة القدر : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (٢) . وتقع ليلة القدر في شهر رمضان (٣) . ولما كان الوحي قد نزل مع القرآن فيجب أن يكون نزول الوحي في شهر رمضان إذن .

ثم إن أصحاب الأخبار يشيرون إلى أن الرسول كان يتحنث في غار حراء في كل سنة أياماً أو شهراً كاملاً ، وكان ذلك الشهر كما يذكرون هو شهر رمضان يتحنث على عادة المتحنثين من أهل الجاهلية ، أو من أهل قريش . ولما كان الوحي قد نزل عليه في أثناء تحنثه كما يذكر أهل الأخبار ، فيجب أن يكون نزول الوحي عليه اذن في هذا الشهر الذي هو شهر رمضان .

والظاهر أن الذين قالوا أنه نزل في شهر ربيع الأول أو في شهر رجب ، إنما أخذوا قولهم هذا من أحاديث متأخرة ، رويت من دون مناقشة مع تعارضها صراحة مع ما ورد في القرآن عن نزوله في شهر رمضان . وقد نشأ خطوهم هذا فيما أرى من سهو حدث من بحث أهل الأخبار والسير عن وصف كيفية نزول الوحي على الرسول في مكان ، وعن نزول القرآن في موضع آخر ، واقحامهم تلك الاحاديث في فصل نزول الوحي على الرسول .

وأما المكان الذي سمع فيه النبي صوت الوحي ، فكان غاراً في خارج مكة ، على مسافة فرسخين من شمالها ، عرف بـ « غار حراء » . كان النبي يخرج إليه يتحنث . يبقى فيه أياماً لا يرى أحداً ولا يتصل به انسان . وكان خروجه الى هذا الموضع عادة ظهرت له كما يفهم من الأخبار بعد زواجه بخديجة وقبل بلوغه سن الأربعين ونزول الوحي عليه (٤) .

(١) البقرة ، الآية ١٨٥ .

(٢) القدر : الآية ١ .

(٣) ابن هشام (١ / ٢٥٦) .

(٤) السيرة الحلبية (١ / ٢٧١) .

وتذكر بعض الروايات أن الرسول كان يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحشت به قریش في الجاهلية . وكان يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله ذلك ، ثم يرجع الى بيته ، حتى إذا كان الشهر من السنة عاد الى جواره (١) .

ويفهم من هذه الروايات أنه كان يذهب وحده الى الغار ، فلا يأخذ زوجته خديجة معه ۝ لينصرف الى التفكير والتأمل انصرافاً كلياً ، وأنه كان يأخذ معه من الزاد ما يكفيه لتلك المدة ، وكان زاده الكعك والزيت . وقد ينضب ذلك قبل انقضاء الشهر فيترك عندئذ الغار الى بيته ، ليأتي ب زاد جديد يكفيه للمدة الباقية . وكانت هذه الخلوة من أحب الأيام اليه . ينقطع فيها عن الناس وعن اشغال الدنيا . وكان يطعم من يرد الى الغار من الناس (٢) .

وهناك روايات أخرى تفيد أنه كان يأخذ عياله معه أيضاً ، أي خديجة ، إما مع أولاده وإما بدونهم (٣) . وهي روايات تتعارض مع فكرة التحنث والانزواء والخلوة ، ومع ما ذكر من أنه كان يقصد مكة في أيام نقص طعامه ليذهب الى خديجة ليتزود منها بالطعام ۝ ومع الأحاديث التي تذكر صراحة أنه كان وحيداً في الغار وعلى عادته في كل مرة يوم ، ظهر الوحي عليه ، وأنه ذهب عندئذ مذعوراً خائفاً الى خديجة حيث قص الذي حدث له عليها ، فذهبت هي الى ورقة ، فحدثته بالذي كان .

وفي بعض الروايات أن عادة التحنث في غار حراء ، إنما سنها عبدالمطلب جد النبي ، وكان أول من تحنث في هذا المكان شهراً من كل عام . وكان ذلك الشهر هو شهر رمضان . فكان إذا دخل هذا الشهر ، صعد حراء ، وأطعم المساكين . ثم تبعه على ذلك من كان يتأله ويتعبد ، كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيرة (٤) فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر (٥) .

(١) الطبري (٢ / ٢٠٦) ، ابن هشام (١ / ٢٥٠) « طبعة الباني » .

(٢) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٠ وما بعدها) .

(٣) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٢) .

(٤) السيرة الحلبية (١ / ٢٧١) ، « وكان « أي عبدالمطلب » أول من تحنث بحراء » .

البلاذري (١ / ٨٤) .

(٥) البلاذري (١ / ٨٤) .

وجاء في بعض الروايات : « كانت قريش إذا دخل رمضان » خرج من يريد التحنث منها الى حراء ، فيقيم فيه شهراً ، وبطعم من يأتيه من المساكين . حتى إذا رأوا هلال شوال ، لم يدخل الرجل على أهله حتى يطوف بالبيت أسبوعاً فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يفعل ذلك » (١) . ويذكرون أن التحنث : التبر (٢) .

وإذا صححت روايات أهل الأخبار عن عادة التحنث في هذا الشهر ، شهر رمضان ، فإنها تدل على احترام الجاهليين له ، واعتقادهم بوجود خاصية وحرمة وميزة له . أو احترام بعض الجاهليين ، وهم الأحناف ، له ، واعتقادهم فيه على عادة الناسك والزهاد في الانزواء في أماكن خلوة ، بعيدة عن الناس ، ليكونوا بذلك في خلوة تامة ، لا صلة لهم بالعالم وبالناس ، فلا يصرفهم صارف عن التفكير في الخلق وفي العالم . ولا يفعل اختيار الجاهليين لشهر رمضان من بين سائر الأشهر عن عبث ، وعن مجرد مصادفة . بل لابد أن تكون هنالك حرمة له عندهم قبل الإسلام بزمان .

وقد تكون هذه الحرمة هي التي ميزته وفضلته على سائر الشهور ، بأن صار شهر الصيام والشهر المبارك في الاسلام ، وفضل بذكر اسمه في القرآن الكريم . ويظهر من اهمال أهل الأخبار له ، بعدم إدخال اسمه في الأشهر الحرم المعروفة المذكورة في الكتب . وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وهي أشهر متصلة ثم شهر رجب الفرد أو شهر رجب الأصم . أن الجاهليين لم يكونوا يعدونه شهراً محرماً كالأشهر المذكورة في أيام الرسول ، ولكنهم كانوا - أو كان بعض منهم كما ذكرت يعظمونه - ويحترمونه ويقدرونه تقديراً خاصاً بتحنتهم به . ومن يدري ؟ فلعله كان من الأشهر المقدسة الدينية عند الجاهليين ، في الجاهلية البعيدة عن الاسلام ، ولهذا بقيت حرمة هذه في التحنث المذكور وفي إطعام الفقراء فيه والمحتاجين .

(١) البلاذري (١ / ١٥٥) .

(٢) تأريخ الاسلام . الذهبي (١ / ٧٤ وما بعدها) .

وتذكر بعض الروايات أن الرسول حينما عاد من الطائف ، بعد أن ذهب الى أهلها طمعاً في اقناعهم بالإيمان به ، اختفى فيه مدة ، ثم عاد منه الى مكة . ولما لهذا الغار من مكانة في الاسلام ، عرف الجبل الذي هو فيه بجبل النور . وهو مقابل جبل آخر يسمى « ثير » ، وما زال غار حراء باقياً يقصده الناس (١) .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن عادة التحنث هذه هي عادة يهودية نصرانية . دخلت الى الجاهليين من الرهبان الذين كانوا قد انزوا واعتكفوا في مواضع متعددة من جزيرة العرب . وقد ذهب « هرشفلد H. Hirschfeld » ، وهو من المستشرقين الذين يرجعون أصول الاسلام الى اليهودية بالدرجة الأولى لعاطفتهم اليهودية والى النصرانية بالدرجة الثانية ، ليرجعها بعد ذلك الى اليهودية ، أن « التحنث » معربة عن أصل عبراني ، هو « تحينوت Tehinnot » ، أو « تحينوث Tehinnoth » ، ومعناها الاعتكاف والتوجه بالصلاة الى الله (٢) .

وقد خوطب الرسول في القرآن الكريم بـ « النبي » و بـ « الرسول » . وقد سبق الرسول أنبياء ورسل . ويقال للنبي « نبي Nabi » في العبرانية . وقد وردت اللفظة في أكثر من ثلاث مئة موضع من العهد القديم (٣) . وتقابلها لفظة « نيبيا Nabia » (٤) « نيبو Nabio » (٥) في السريانية ، وتعني الرائي ، أي الناظر والمُنذر بوحى من الله بالكائنات قبل كونها في هذه اللغة (٦) . وكل رسول نبي ، غير أن من الأنبياء من هم ليسوا رسلاً . والرسول عند المسلمين أقل عدداً من الأنبياء بكثير (٧) .

(١) Ency. of Islam, II, P. 315, wustenfeld, Die chroniken der stadt

Mekka, I, s. 426, Burckhardt, Travel in Arabia, I, P. 302.

(٢) M. watt, Muhammad at Mecca, P. 44, H. Hirschfeld, New

Researches into the Composition and exegesis of the qoran, London.

1902, P. 10, C.J. Lyall, in JRAS, 1903, P. 780, Caetani Ann., P. 222.

Hastings, P. 757.

(٣) Shorter, P. 563.

(٤) برصوم (ص ١٧٥) .

(٥) برصوم (ص ١٧٥) .

(٦) Shorter, P. 611.

(٧)

والرسول هو (شليح Shliho) في السريانية ، من أصل « شليح Shlah » بمعنى أرسل وبعث ، والجمع (شليحون) (١) . وهي من المصطلحات النصرانية ، وترد في العبرانية كذلك (٢) . وقد عرفت في المؤلفات العربية بـ « السليح » . أخذت عن النصارى ، واستعملت في معنى الرسول (٣) . ولكن استعمال النصارى لها يختلف عن استعمال المسلمين ، فقد أطلقوها على رسل المسيح . فالرسول عندهم اذن هو دون المفهوم من معناها عند المسلمين . وقد وردت جملة : « شليحه دالاه » في السريانية ، وهي في معنى « رسول الله » (٤) .

وأما الملك جبرئيل أو جبريل ، فانه الملك المكلف ابلاغ الوحي الى الرسل . وقد ذكر اسمه ثلاث مرات في القرآن الكريم (٥) . وهو من الملائكة الأربعة المقربين ، وهم : جبرائيل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل (٦) . ولكل واحد من هؤلاء واجب ووظيفة . وهو « Gabriel » في اليهودية والنصرانية ، ومعناها رجل الله « وهو أحد الملائكة السبعة المقدمين المقربين من الله في هاتين الديانتين (٧) . وهو الذي حمل البشارة لوزكريا في شأن ولادة يوحنا ، ولريم في شأن ولادة المسيح (٨) . ولم يرد اسم جبريل في القرآن الكريم إلا في سورتين ، هما : سورة البقرة (٩) وسورة التحريم (١٠) وهما سورتان مدينتان . أما السور المكية ، فقد ورد فيها

(١) برصوم (ص ٨٩) .

Hastings, P. 41.

(٢)

(٣) برصوم (ص ٨٩ وما بعدها) .

(٤)

Shorter, P. 611.

Shorter, P. 79. Handwörterbuch des Islam, s. 100 f. Noldake, I, (٥)

s. 20 f,

Shorter, P. 79.

(٦)

Hastings, P. 275, J. Horowitz, Koranische Untersuchungen, s. 167. (٧)

(٨) قاموس الكتاب المقدس [١ / ٣١١] .

(٩) الآيتان : ٩٧ و ٩٨ .

(١٠) الآية ٤ .

« الروح » و « روح القدس » « قل نزل به الروح القدس » (١) . « نزل به الروح الأمين » (٢) . أما في كتب الحديث فيرد فيها بكثرة ، ولا سيما في باب كيفية نزول الوحي . وقد أريد بالروح وبروح القدس ، الملك الموكل بالوحي الذي نزل بالقرآن على الرسول « أي جبريل » وقد ورد في كتب الأخبار أن « طليحة الأسدي » المتنبئ كان يزعم أن جبريل نزل عليه (٣) .

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن الرسول حينما سمع الوحي ، تصور أنه إنما يسمعه من الله مستدلين على زعمهم هذا بآيات من سورة النجم : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فاوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عند جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى » (٤) . وبشيء آخر هو عدم ورود اسم « جبريل » في السور المكية (٥) . وهو زعم يتعارض بالطبع مع ما ورد في كتب التفسير والحديث والسيرة عن نزول الوحي على الرسول .

وأما كيفية نزول جبريل على الرسول وسماعه له ، فتذكر كتب الحديث أنه كان يأتيه الوحي أحياناً مثل صلصلة الجرس وهو أشده على الرسول ، وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه فيعي ما يقوله ، وأحياناً كان يتمثل له على هيئة ملك يكلمه من السماء . وقد كان يتأثر حين نزول الوحي عليه تأثراً شديداً ، فكان يتفصد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد ، من شدته عليه (٦) . ويكاد يغشى عليه ، وربما غط كخطيئ البكر

(١) السورة ١٦ ، الآية ١٠٤ .

(٢) الشعراء ، الآية ١٩٣ .

Noldeke, s. 21.

(٣) تاريخ الطبري [١ / ٨٩٠] « طبعة ليدن » .

(٤) سورة النجم : الآيات ٣ وما بعدها .

(٥) Muhammad at MECCA, by, w. Montgomery watt, P.P. 43, Karl Ahrens, Muhammad als Religionsstifter, Leipzig, 1935.

(٦) التبريد المريح لأحاديث الجامع الصحيح ، [١ / ١] وما بعدها [« باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، السيرة الخلية [١ / ٢٩٢] وما بعدها] .

عمرة عيناه ، وتأخذه حالة تشبه اليرحاء من شدة الوحي عليه . تتأبه أحياناً رعدة شديدة وكرب ، ويربد وجهه ، ويغمض عينيـه . يدوم ذلك به ، على قدر نزول الوحي عليه (١) .

وقد رأى بعض الصحابة الرسول وقد ظهرت وبدأت عليه علامات نزول الوحي ، ورأوه وقد نزل عليه الوحي واشتد به ، وقد أجمعوا كلهم على أنه كان يعاني في أثناءه شدة وصعوبة ، يبقى على ذلك ماشاء الله ، فلا يبدأ ولا يذهب عنه الروح إلا بعد انتهاء الوحي ، فيجلس عندئذ وقد تصيب عرقاً ، يجلس ليرتاح وليجفف عرقه . ثم يتلو على من عنده من أصحابه ماوعاه وما حفظه من الوحي . فإذا فصح عنه ، كان قد وعى كل ماقاله الملك له وحفظه ، لا يذهب عنه حرفاً (٢) . وقد ورد في سورة « طه » ، وهي من السور المكية : « ما يفيد أن الرسول كان يعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليه وحيه ، وذلك في الآية : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه . وقل : رب زدني علماً » (٣) ، فحث على التثبت في السماع وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقنه (٤) . وقد ورد في موضع آخر من القرآن الكريم : « لا تحرك به لسانك ، لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » (٥) . وهي من سورة القيامة ، وهي سورة مكية . وقد ورد أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفـتيه استعجالاً في الحفظ . فلما نزل الوحي عليه بذلك ، كان إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق قرأه كما قرأه (٦) . وبدل ذلك على أن الرسول كان في بدء المبعث يسرع ويستعجل في حفظ ما يوحى إليه ، يعيده في لسانه ويحرك شفـتيه خشية ذهاب الوحي عنه ،

(١) السيرة الحلبية [٢٩٢ / ١ وما بعدها] ، ابن سعد [١٩٧ / ١] .

(٢) « يفصح عني وقد وعيت عنه ما قال » ، التجريد الصريح : [١ / ٤ وما بعدها] .

(٣) الآية ١١٤ .

(٤) المفردات [ص ٥٢٧] .

(٥) القيامة ، الآية ١٦ وما بعدها .

(٦) التجريد الصريح [٦ / ١] .

وهو بعد لم يحفظه كله ، أو لم يعه كاملاً . الى أن نزل الوحي عليه بوجوب التأني وترك التسرع كما جاء في الآيات السابقة .

وقد ورد في بعض الأخبار أن جبريل كان يظهر على صورة دحية الكلبي ، وفي خبر عن عمر بن الخطاب أنه قال : « بينا نحن عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم ، طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد » (١) . ويذكر رواية هذا الخبر أن المراد به جبريل . ولكن الغالب أنه يتمثل له على هيئة دحية المذكور ، إذا تمثل له على صورة إنسان . ويذكر أيضاً أن جبريل لم يظهر للرسول على هيأته الأصلية . أي على طبيعته الملائكية ، إلا مرات لم تتجاوز ثلاثاً (٢) .

ودحية الكلبي ، هو دحية بن خليفة الكلبي ، من الصحابة ، وأحد الرسل الذين أرسلهم الرسول الى الملوك والأمراء ، ويقال إن الرسول كلفه الذهاب الى قيصر (٣) . أسلم بعد معركة أحد في رواية ، أو بعد الخندق في رواية أخرى (٤) . وكان من الأغنياء الأثرياء ، وصاحب تجارة ، له قوافل تسير بتجارته ، وكان يتاجر مع بلاد الشام ، وله صلات وثيقة بالغساسنة وأعراب بادية الشام ، ولعله كان على صلة ببعض الموظفين الروم الذين كانوا يحكمون هذه البلاد في أيام الرسول . وقد كانت له أخت تدعى « شراف » ، خطبها الرسول ، ولكنها هالكت قبل دخولها عليه (٥) .

ولما كان اسلام « دحية » قد وقع بعد الهجرة ، فالمعقول أن يكون ظهور « جبريل » في هيئة « دحية » بعد الهجرة ، إذ لا يعقل تمثل الوحي برجل مازال على

(١) السيرة الخليلية : ١ / ٢٨٨ .

(٢) (المصدر نفسه ١ / ٢٦٨ وما بعدها) « باب بدء الوحي صلى الله عليه وسلم » ، الموطأ

(٧٠) ، مسلم (٢ / ٤٣٠) ، الترمذي (٢ / ٢٠٤) ، Noldeke, I. s. 22. f. Sprenger, (٢٠٤ / ٢) ،

I. s. 272.

(٣) البلاذري (١ / ٥٣١) .

(٤)

Ency. of Islam, I, P. 974.

(٥) البلاذري (١ / ٤٦٠) ، الاستيعاب ص ١٧٢ ، الاغانى (٦ / ٩٥) ، السمعاني ورقة

٨٥ : الاصابة (١ / ٢٣٧٨) ، Noldeke, Geschichte, (١ / ٢٣٧٨) ،

des qorans, I, s. 22. ff., Lammens, Etudes, I, P. 292. f.

الشرك ، ولم يجد الاسلام سبيلاً الى قلبه بعد (١) .

وأما عن وقت نزول الوحي عليه وعلائمه ، فلم يكن له وقت ثابت معلوم ، بل كان يتوقف ذلك على الظروف والمناسبات . ينزل عليه مرات أحياناً في نهار واحد ، ويتقطع أياً ما عنه في بعض الأحيان ، ينزل عليه في النهار ، كما ينزل عليه في الليل وكان يعاني من نزوله عليه عتاً شديداً ، وتسبق نزول الوحي عليه علانم يشعر بها ، توحى اليه أن الوحي مقبل عليه آت ، فإذا جاءه ، تفصد عرقاً ، مع أنه في البرد الشديد (٢) ، وارتعدت لحيته وأخذته الرعدة (٣) ، حتى ينتهي الوحي ، فيقرأ ما نزل عليه على من كان حاضراً عليه من أصحابه لتدوينه ولحفظة . وتذكر كتب الحديث في « باب كيف كان بدء الوحي » ، أنه كان يصاب بـ « البرحاء » أي الحمى الشديدة ، عند نزول الوحي عليه . وذلك من شدة نزول الوحي عليه . ففي حديث عن عائشة : « فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات » (٤) .

والرسول أُمي ، لم يقرأ ولم يكتب ، فإذا أراد كتاب رسالة أو عهد أو تدوين للوحي ، أمر كتابه بالتدوين . على ذلك اجمع المسلمون . وقد وردت في القرآن الكريم آيات ، مثل : « اقرأ باسم ربك » (٥) وآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطون » (٦) . أخذها المستشرقون على أن فيها دلالة على أن النبي كان يقرأ ويكتب ، واستدلوا أيضاً ببعض ماورد في كتب الحديث والسيرة ، وفيه ما يفيد أنه كان ملماً بالكتابة والقراءة ، كالذي ورد في رواية عن صلح « الحديبية » أنه « هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة . وهو ما وقع في البخاري » (٧) . وما جاء السيرة لابن هشام : « فبينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يكتب الكتاب هو وسهيل » (٨) .

(١)

Noldeke, I, s. 24.

(٢) تفسير الطبرسي (المجلد العاشر / ٣٧٨) .

(٣) تفسير روح المعاني (٣٠ / ١٥٦ وما بعدها) .

(٤) البخاري (٢ / ٥) ، كتاب الشهادات : حديث الافك .

(٥) سورة اقرأ .

(٦) الفسكيوت ، الآية ٤٨ .

(٧) الحليبة (١ / ٢٣ وما بعدها) .

(٨)

Noldeke, I, s. 13.

وما جاء في البخاري : « وأخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الكتاب ليكتب ، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد » (١) . وقالوا إن في هذا المذكور وفي غيره من مثل ماورد من أن الرسول « لما اشتد وجعه ، قال : اتوني بالدواة والكتب أكتب لكم كتاباً لا تضلون معه بعدي أبداً » (٢) ، ومن أنه « دعا في مرضه بدواة ومزبر فكتب اسم الخليفة بعده » (٣) . دلالة صريحة على قدرته على الكتابة والقراءة (٤) .

والعلماء كلام في الأدلة المذكورة ، حتى إن أحد علماء الأندلس هو « أبو الوليد الباجي » ، كان قد ذكر أن الرسول كتب بيده ، فردّه علماء قومه « في زمانه بأن هذا مخالف للقرآن ، فنأظرهم ، واستظهر عليهم بأن هذا لا ينافي القرآن . وهو قوله تعالى : (وما كنتم تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) لأن هذا النفي مقيد بما قبل ورود القرآن . وبعد أن تحققت أميته (صلى الله عليه وسلم) وتقررت بذلك معجزته لأمّان من أن يعرف الكتابة من غير معلم ، فتكون معجزة أخرى ، ولا يخرج ذلك عن كونه أمياً » (٥) . وقد فسر بعض العلماء ماورد في البخاري عن قصة كتاب صلح الحديبية ، من أنه كتبه بيده ، أن لفظة (بيده) زائدة ليست في البخاري ، وانما أدخلت عليه ، وفسر بعض آخر كتابة الرسول للكتاب على أنه كان في تلك الساعة خاصة معدوه معجزة . ولكن أكثر الروايات عن هذا الحادث لا تشير إلى أنه كتب الكتاب بنفسه ، وانما تذكر أنه أمر علي بن أبي طالب بأن يكتبه له ، ثم أمر محمد بن مسلمة بأن ينسخ له نسخة أخرى لتعطى للمشركين . وفي رواية أخرى أن النبي لما أمر بمحو جملة « رسول الله » ، التي اعترض عليها رسول قريش ومفوضهم ، أمر علياً بمحوها . فلما قال علي : « لا أحرك »

(١) « قال لملي عليه السلام : امح رسول الله . قال : لا والله لا أحاك أبداً . فأخذه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليس يحسن يكتب ، فكتب مكان رسول الله : محمد . فكتب هذا ما قاضى عليه محمد لا يدخل باللاح . الطبري (٨٠ / ٣) ، السنة السادسة ، الحلبية (٢٤ / ١) .
(٢) البلاذري (٥٦٢ / ١) .

(٣) شرح القاموس (٢٣١ / ٣) ، « اتوني باللوح والدواة ، او بالكتف والدواة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده » ، الطبري (٩٢ / ٣) « السنة الحادية عشرة » .

Noldke, I, p. 123 ff

(٤)

(٥) الحلبية (٢٣ / ١ وما بعدها) .

أو والله لا أخوك أبداً » ، فقال : أرنيه ، فأراه آياه ، فمجاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده الشريفة ، وقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عمرو » (١) .

والأُمِّي في تفسير علماء اللغة من لا يكتب ، أو من على خلقه الأمة لم يتعلم الكتابة وهو باق على جبلته . وقد ورد في الحديث : « إنا أمة أمية لا نكتب » (٢) . وقد بحث عدد من العلماء في موضوع أمية الرسول كما ذكرت ، منهم : أبو الفتح النيسابوري ، والباجي ، وأبو محمد بن مفوز ، والقاضي أبو جعفر السمناني ، وآخرون . وقد ادعى بعضهم أن الرسول صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها . وقد روى ابن أبي شيبة وغيره : مامات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حتى كتب وقرأ . وذكره مجالد المشعبي ، فقال : ليس في الآية ما ينافيه . قال ابن دحية : وإليه ذهب أبو ذر ، وأبو الفتح النيسابوري ، والباجي وصنف فيه كتاباً ، ووافقه عليه بعض علماء إفريقية وصقلية . وقالوا : إن معرفة الكتابة بعد أميته ، لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى بعد معرفة أميته » (٣) . وقال بعضهم : يحتمل أن يراد أنه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف ، كما يكتب بعض الملوك علامتهم وهم أميون . وإلى هذا ذهب القاضي أبو جعفر السمناني » (٤) . فأنت ترى أنهم مجمعون على أمية الرسول قبل البعث ، ولكن من العلماء من يرى أنه كتب وقرأ بعد نزول الوحي عليه ، وأن ذلك لا ينافي معجزة الرسالة في الرسول .

وقد وردت في القرآن الكريم « الأمي » (٥) و « أميون » (٦) و « أميين » (٧) .

(١) الحلبية (١ / ٢٣) .

(٢) شرح القاموس (٨ / ١٩١) ، المفردات ص ٢٢ .

(٣) شرح القاموس (٨ / ١٩١) .

(٤) شرح القاموس (٨ / ١٩١) .

(٥) الاعراف ، الآية ٥٦ وما بعدها .

(٦) البقرة ، الآية ٧٨ .

(٧) آل عمران ، الآية ٢٠ : ٧٥ ، الجمعة ، الآية ٢٠ .

وقد أريد بالأميين قوم الرسول وجهائته الذين كانوا على الوثنية ، كالذي يفهم من آية آل عمران : «وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين» (١) . وآية الجمعة : «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة» . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (٢) . ونعت الرسول بـ «النبى الأمي» (٣) . وذكر علماء اللغة أن الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب . وقال بعض الأمية الغفلة والجهالة ، وذلك هو قلة المعرفة . ومنه : «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانتي» . أي إلا أن يتلى عليهم . قال الفراء : هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب . والنبى الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل . قيل : منسوب الى الأمة الذين لم يكتبوا ، لكونه على عادتهم ، كقولك عامي لكونه على عادة العامة . وقيل : سمي بذلك ، لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وذلك فضيلة لاستغنائها بحفظه واعتماده على ضمان الله منه بقوله : سنقرئك فلا تنسى . وقيل : سمي بذلك لنسبته الى أم القرى» (٤) .

وقد قصد بعض العلماء بالأميين ، من لا كتاب لهم من الناس ، مثل الوثنيين والمجوس ، فورد : «أن النبى» (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، كان يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم» (٥) . فجعل المجوس أميين ، لأنهم ليسوا أهل الكتاب . فيظهر من ذلك أن من معاني الأمية الوثنية وعدم الاعتقاد بالرسول والأنبياء .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن المقصود من الأميين هنا الوثنيون ، ودليلهم على ذلك هو جملة «اموت ها عولام ، Unimot ha Olam» التي كان يطلقها العبرانيون على غيرهم . ويريدون الوثنيين ، أي غير العبرانيين . وذهب بعض آخر الى أن المراد

(١) آل عمران ، الآية ٢٠ .

(٢) الجمعة ، الآية ٢ .

(٣) الأعراف ، الآية ١٥٦ وما بعدها .

(٤) المفردات (من ٢٢) .

(٥) روح المعاني (٢١ / ٧) وما بعدها .

من « الأمي » . الشخص غير المتعلم . أما لفظة « أمة » ، بمعنى جماعة كبيرة وشعب ، فانها « اميثا Umetha » في السريانية (١) .

وقد أطلق العبرانيون على الغرباء وكل من هو غير يهودي ، « كوي Goy » الموحد ، و « كويم Goyim » للجمع ، وتقابل هذه اللفظة لفظة « Gentile » في اللاتينية . ويقال للغريب عنهم « أخريم Abrim » و « Nochrin » كذلك ، تمييزاً لهم عن العبرانيين الذين يذهبون الى أنهم أمة مقدسة مفضلة على العالمين « Kadosh Goy » (٢) .

وذهب بعض المستشرقين اليهود الى أن لفظة « الأميين » معربة من أصل (كوي) و (كويم) ، المذكور (٣) .

وقد ذهب « شبرنكر » - وهو من الزاعمين أن الرسول كان يكتب ويقرأ - الى أن النبي قرأ كتاباً في العقائد والأديان وأخبار الماضين ، وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو : « أساطير الأولين » (٤) . والواقف على القرآن الكريم ، والمطلع على معنى « أساطير الأولين » الواردة فيه ، يرى أن القرآن الكريم قد حكى قول قريش الذين كانوا يستخفون على زعمهم بالقرآن ، فقالوا : « ان هذا إلا أساطير الأولين » (٥) ، و « قالوا أساطير الأولين » (٦) ، و « ما هذا إلا أساطير » (٧) و « قال أساطير الأولين » (٨) . وليس في هذه الآيات أية دلالة على ما ذهب اليه على العكس ، فانك

(١) Shorter, P. 764, Horovitz, Koranische untersuchungen, 1926, s. 51
ff., Buhl-shader, Das Leben Muhammeds, Leipzig, 1930, s. 56. Noldeke,
I, s. 14.

(٢) The Uni. Jew. Ency., Vol., 4, P. 533.

(٣) Torrey, the Jewish foundation of Islam, New York, 1933, P. 38.

Abraham I. Katsh, Judaism in Islam, New York, 1954, PP. 75.

(٤) Noldeke, I. S. 16. Ency. of Islam, Vol., IV, P. 1016.

(٥) الأنعام ، الآية ٢٥ .

(٦) الفرقان ، الآية ٥ .

(٧) الاحقاف ، الآية ١٧ .

(٨) القلم ، الآية ١٥ .

إذا قرأت الآية : « ومنهم من يستمع إليك » وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي أذانهم وقرأ ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك بجادلونك ، يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين » (١) فقد قالت قریش هذه المقالة استخفافاً واستهزاء ، بمعنى أن ما يتلوه الرسول عليهم هو من هذا القصص الذي يقص عن الأولين ، فهو خرافة وكلام هراء ، وليس فيه ما يدل على وجود كتاب بالأساطير الأولين وبأخذ الرسول منه . وقد رد على هذا الرأي في كتاب « تأريخ القرآن » لنوادكه ، وعنده قولاً لا أهمية له (٢) .

ويدل ورود « أساطير الأولين » في مواضع من القرآن الكريم على أن قریشاً كانت تستعمل لفظة « أساطير » وتقصد بها نوعاً معيناً من الكتب ، تبحث في قصص الماضين وأحاديثهم وأخبارهم ، كانت معروفة في مكة أيام ظهور الاسلام ، بدليل ما ورد في هذه الآية من سورة الفرقان : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها » ، فهي تملأ عليه بكرة وأصيلاً (٣) . وهذه السورة هي من السور المكية . فهي تشير الى زعم قریش في أن القرآن ، هو شيء اكتتب الرسول ، وقد أملى عليه من الأساطير . وقد سبق أن قالوا إنه يتعلمه من أناس عاونوه وساعدوه عليه ، كما سأبحث ذلك فيما بعد . ذكروا ذلك في الآية السابقة لهذه الآية من السورة نفسها . وهي تدل دلالة واضحة على معرفة قریش بكتب عرفت عندهم بـ « الأساطير » ووجودها في مكة ، وأنهم كانوا يتداولونها ويقرؤونها .

وقد ذكر علماء اللغة أن الأساطير هي الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها ، وهي جمع أسطار وأسطير وأسطور (٤) . وفي اللاتينية لفظة « Historia » بمعنى الأحاديث والأساطير والتأريخ ، ومنها وردت لفظة « History » في الانكليزية بمعنى التأريخ ، وتقابلها « Istoriya » في اليونانية ، وقد أطلقت عندهم على كتب

(١) الأنعام ، الآية ٢٥ .

(٢)

Noldeke, I, S. 17,

(٣) الآية (٥)

(٤) شرح القاموس (٣ / ٢٩٧) ، المفردات (ص ٢٣١) .

الأساطير والتاريخ ويظهر أن الجاهلين قد وقفوا عليها ، فأخذوا اللفظة عن اليونانية ، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه .

ولا أستبعد وجود هذه الكتب باليونانية وباللاتينية في مكة ، فقد كان في مكة وفي غير مكة رقيق من الروم ، كانوا يتكلمون بلغتهم فيما بينهم وينطقون بها إذا تلاقوا ، كما كانوا يحتفظون بكتبهم المقدسة ، ويكتب أخرى مدونة بلغتهم . وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش أنه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن . واليه الإشارة في الآية الكريمة : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي » (١) . وهي في سورة النحل . وسورة النحل من السور المكية . فرد زعم قريش هذا أن الرجل المذكور الذي كان يباعاً في مبيعة ، أي حانوت في مكة ، وكان الرسول يجالسه ويأنس إليه ، رجل أعجمي ، ولسانه لسان أعجمي ، وهو غير متمكن من العربية . فكيف يعلم الرسول ويلقنه ولسانه على هذه الحال ؟ وقد ورد أن هذا الرجل كان يقرأ كتبهم . وقد كان أناس آخرون مثله ، كانوا رقيقاً يقرأ ويكتب بلغته ، سقط في الأسر وبيع ، فجئ به إلى مكة وإلى مواضع أخرى من جزيرة العرب .

ومن يدري ؟ فلعلهم كانوا يجالسون أهل مكة ، ويقصون عليهم قصصهم ، ويقرؤون عليهم ؛ في أثناء سمرهم من هذا الذي عندهم في كتبهم . فكانوا إذا سألوهم عن هذا القصص ، قالوا لهم : إنه (أستوريا) أي تواريخ . فذهبت بين الناس ، وصارت لفظة عربية ، هي « اسطورة » .

وقد بحث المستشرقون في هذا الموضوع ، وتعرضوا له ، وناقشوا الروايات على اختلافها . ولهم في ذلك كلام لا يخلو بعضه من عاطفة سياسية أو دينية وبالأسف ؛ لأنه لم يناقش من أجل الوقوف على هذه الحقيقة من أجل الحقيقة والعلم .

ولا أهمية ولا معنى كذلك لقول « شبرنكر » إن محمداً قرأ وأخذ من مصدر آخر هو (صحف إبراهيم) المذكورة في القرآن الكريم . وقد رد على هذا الرأي (نولدكه) بقوله : لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف ، ونسب لنفسه وادعاه ، غلى أنه وحي أوحى الله به إليه ، لو فرضنا ذلك ، فإن من غير المقول عندنا ذكر محمد لتلك الصحف

(١) النحل ، الآية ٣٠ .

في القرآن ، لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس الى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه ، ولهذا لا يعقل الأخذ بكلام « شبرنكر » (١) .

أما صحف ابراهيم ، فلم يصل اليها من أمرها شيء . وقد ورد في التلمود أن ابراهيم كان قد وقف على (الهالاخا Halacha) وعمل بها (٢) . وقد نسب المتأخرون اليه كتاب (يزيرا Yezira) من كتب الـ (الكبالات Kabbala) . وكتاباً آخر عرف باسم (Liber de Idolatria) (٣) .

ويراد بـ (الهالاخا) ، ما يقابل مصطلح (الحديث) في عريتنا . ويشمل كل ما ورد بالرواية من أخبار وحديث من أقوال الأنبياء وأفعالهم . وقد جمع ذلك (يهودا هناسي Jehudah ha-Nasi) ، وعرف فيما بعد باسم (المشنا) (٤) . وليس « شبرنكر » أول من قال بهذا القول ، فسرى فيما بعد أن قريشاً قالت به في مبدأ نزول الوحي ، بل قالت أكثر من ذلك ، وسيأتي الحديث عنه فيما بعد بشيء من التفصيل .

وسبق الوحي كما يذكر أهل الأخبار وقت ابتدئ رسول الله فيه بالرؤيا . والرؤيا تمهيد للوحي . وقد عدت هذه الرؤيا جزءاً من الوحي ونوعاً منه . وقد عبر عنها في الحديث بـ « الرؤيا الصادقة » ، وبـ (الرؤيا الحسنة) ، وبـ (الرؤيا الصالحة) ، وقد استغرقت مدة ستة أشهر . وقد عبر عن الرؤيا بتلك التعابير احتراساً من الرؤيا الاعتيادية التي تظهر لكل إنسان . وقد ورد في الحديث أنه كان لا يرى شيئاً في المنام ، إلا كان كما رأي (٥) .

(١) Noldeke, I, S. 17.

(٢) « عبودا زارا ، ١٤ ب » Aboda Zara. 14 b.

(٣) Noldeke, I, S. 17.

(٤) Hastings, P. 891.

(٥) « ... عن عروة عن عائشة أنها قالت : كان أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ، الرؤيا الصادقة ، كانت تحيى مثل فلق الصبح ، ثم حجب اليه الخلاء ، فكان بغار حراء يبحث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ، فيتزود مثلاً ، حتى فجأه الحق . » تفسير الطبري (٣٠ / ١٦١) ، السيرة الحلبية ١ / ٢٦٨ وما بعدها .

وعد بعض العلماء الرؤيا جزءاً من النبوة ، ولهذا عدوا رؤيا الرسول قبل نزول جبريل عليه جزءاً من نبوته . وقد ذكروا أن مدتها كانت ستة أشهر ، وقد انتهت بنزول الوحي عليه (١) .

وسبق الرؤيا تفكير شغل الرسول أمداً طويلاً : تفكير في حالة قومه ، وفي أوضاعهم ، وفي تقرّبهم من الأوثان ، وفي الكون والحياة ومصير الانسان والموت وما بعد الموت ، وفيما شاكل ذلك من أمور تطوف برأس المفكر المتصبر في هذه الحياة ، فتصرفه الى النظر فيها ، وتبعده عن التفكير في التماس ملذات الحياة من متعة وأنس ، يقع في غرامها الانسان في هذه السن على المعتاد . لم يهن ولم يضعف ، بل ازداد في التفكير فيها شغفاً وحباً وهياماً كلما تقدمت به السن . وما أخبار عزلته في الغار ، وانقطاعه فيه عن الناس ، وابتعاده عن قضاء وقته في مجالة من في سنه وقتل وقته بالعبث واللهو على عادة الناس في ذلك العهد وعادة كل مجتمع فيه فراغ ، إلا دلالة على هذه الفترة التي مر بها الرسول ، وهي فترة كان فيها حائراً مفكراً يريد الوصول فيها الى شيء مقنع له مطمئن ، يحل له كل هذه الأسئلة والأفكار التي كانت قد تراكمت في فكره . وتوالت عليه .

ولا أجد وصفاً لهذه الفترة القلقة التي مرت بالرسول ، فترة التفكير والتأمل غير هذا الوصف البليغ الموجز في سورة الضحى : « ووجدك ضالاً فهدى » . انها تتحدث عن ذلك القلق الشديد الذي كان قد أصاب قلب الرسول قبل نزول الوحي عليه ، قلق جعله يسهر الليالي ، ولا سيما في أواخرها مفكراً في تلك المشكلات ، وفي أوضاع قومه وما كانوا عليه « انها أوضاع لم تعجبه ، وجدها ضلالاً وجهاً وحماقة لا بد من تنبيه قومه عليها ومن دلالتهم على فسادها ، ولكن كيف وبأية وسيلة ، وما طرق الإصلاح وأسبابها ، والمناهج اللازمة لذلك ، لرفع مستوى الناس من الجهالة والضلالة الى الهدى والصراط المستقيم ؟

(١) « واول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أمر النبوة الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . قيل : وكان ذلك ستة أشهر ، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة ، فهدى الرؤيا جزءاً من ستة وأربعين جزءاً » زاد المعاد (١ / ١٩) .

وتقول الأخبار إن الرسول كان منذ صغره يحب الخلوة أو الانزواء . ولكن خلوته هذه لم تكن خلوة الأطفال والشبان والرجال الحيين ، الذين يحبون الخلوة عن مرض جسمي ، فيقضونها خلوة فارغة جوفاء ، لم يشغلها تفكير ولا تأمل ، بل كانت خلوة تفكير وتتبع . وإنه كان يختلف بها عن أقرانه ولداته ، حتى بانث عليه وعرفت ؛ اذ لم يظهر عليه ميل الى عبث ولهو ولعب وغير ذلك مما يلهي من في سنه ، ويجعله يمضي وقته بها ، حتى يبلغ رشده ، فعرف بين أهل مكة بالهدوء وبعدم الميل الى المعاكسة والمشاكسة والمرح والتسرع بالكلام ، كما عرف بالجد وبكراهيته العدوان واهانة الناس والاستخفاف بهم ، ليتم وققر وإملاق . كل ذلك حببه لأهل مكة وبقومه ، مما جعلهم ينظرون اليه نظرة تختلف عن نظرهم الى الآخرين من الشبان والرجال الطائشين النزقين .

وقد كانت خديجة خير عون لزوجها في تهدئة نفسه في هذه الفترة الشديدة الحرارة ، وفي بعث الطمأنينة والراحة اليه ، فلم تتدخل كما تتدخل النسوة في العادة في محاولة لصرف رجلها عن هذه الخلوة وذلك التفكير الذي أخذ وقته ، وتصرف فيه . فلم يجعل لها منه إلا بعض شيء . بل تركته يتصرف على النحو الذي يحبه ويرضيه ، مقدمة له كل أمور الراحة والتسهيل ، ليفكر فيما يشغله وصرف نفسه له . بل كانت على ما يظهر تؤيده في نفرتة من جمالة قومه ، وتذهب معه في الاشتمزاز من تصرفاتهم وأعمالهم ، وتقدم اليه كل ما يلزم من عون مادي وروحي يساعده في الانصراف الى هذه الرياضة ، في بيتها أو خارج بيتها في غار حراء أو في أي مكان آخر رأى فيه الهدوء والراحة ومجال التبصر والتفكير .

ذكر أن الرسول كان يسمع أصواتاً تناديه : « يا محمد » ، ولا يرى شيئاً ، غير أنه يسمع الصوت فيهرب منه في الأرض ؛ وأنه كان مرة بأجباد ، فرأى ملكاً واضعاً إحدى رجله على الأخرى في أفق السماء ، يصبح : يا محمد ، أنا جبريل . فذعر رسول الله ، ورجع سرياً الى خديجة . فقال : إني أخشى أن أكون كاهناً ، أو خشيت أن يكون قد عرض لي أمر . فقالت : كلا ، يا ابن عم ، ما كان الله ليفعل بك سوءاً ، إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتؤدي الأمانة ، وإن خلقك لكريم (١) .

(١) البلاذري (١ / ١٠٤ وما بعدها) ، عيون الاثر (١ / ٨٢ وما بعدها) .

وكان أول ما فعله محمد بعد سماعه الوحي أن ترك الغار ليعود الى بيته تعباً حائراً من هذا الذي ظهر له ، وانطلق يذرع الشعاب مسرعاً ، يرتعد فرقاً من شدة ما رأى . وتذكر الأخبار أنه كان كلما مشى الى بيته ازداد رعبه ، لأنه كان يسمع أصواتاً تناديه من كل جانب ، ثم أخذه الروع حين رأى رجلاً في السماء يناديه « ولم ينفعه ما فعله من وضع يده على وجهه ، ليصرف نظره عما رأى . فلما وصل الى البيت كان تعباً يكاد يسقط على الأرض من شدة تعب . وقد أخذته رجفة تشبه الرجفة المتأنية من الحمي . وفزع خديجة من شدة ما رأت ، واستقبلها بقوله زملوني زملوني ، فزملته وصبت على رأسه ماء بارداً ليهدأ روعه ، ثم دثرته .

وتذكر بعض الروايات أن الرسول قال لخديجة : لقد خشيت على نفسي ، وفي رواية : على عقلي . فلما سمعت منه هذا الكلام هدأت روعه ، وطابت خاطره ، قائلة له : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق (١) .

وورد في رواية أن خديجة قالت له : أوجه اليك من يريقك ؟ فقال : أما الآن ، فلا . وذكر أنه كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن ، فلما نزل عليه القرآن ، أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك من الاغماء بعد حصول الرعدة ، ومن تغميض عينيه وتربد وجهه ، ومن غط كغطيط البكر (٢) .

وتذكر الروايات أن خديجة ذهبت وحدها أو معه الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقصت عليه القصة . أو أن الرسول هو الذي قص عليه ما شاهدته وظهر له ، فطمأنه ورقة ، وقال : « قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتي يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لبي هذه الأمة ، فقول له فليثبت » (٣) . وفي رواية أن ورقة قال الرسول : « يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟

(١) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٧) .

(٢) السيرة الحلبية (١ / ٢٨٧) .

(٣) « فقال : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ، صلى الله عليه وسلم ، ليتني فيها جذع ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك . قلت : أوخرجني م ؟ قال : نعم : إنه لم ينج رجل ... » ، تفسير الطبري (٣٠ / ١٦٢) ، في الروايات الأخرى : « وإن يدركني يومك » ، السيرة الحلبية (١ / ٢٧٨) .

فأخبره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ، وهو جبريل . يا ليتني فيها جذعاً شاباً ، حتى أبالغ في نصرتها ، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بما جئت به إلا عودي . قال ورقة : وإن أدركت يومك « وإن يدركني ذلك » ، أنصرك نصراً مؤزراً . . . وفي رواية أنه قال لخديجة « إن ابن عمك لصادق ، وإن هذا لبده نبوة . » وفي لفظ : « إنه لبي هذه الأمة » (١) .

وفي بعض الروايات أن خديجة حينما عادت من ورقة ، وجدت محمداً وقد تصبب العرق من جبينه ، وقد نزل عليه الوحي بيا أيها المدثر ، أو يا أيها المزمل . فأخبرت الرسول بما سمعته ووعته من ورقة (٢) .

وتذكر روايات أخرى أن الشخص الذي ذهبت خديجة إليه ، كان من أهل نينوى ، وكان يقال له عداس . وهو غلام عتبة بن ربيعة ، وكان نصرانياً راهباً ، وأنه كان شيخاً كبير السن ، ثقل سمعه ، وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر ، وأنه لما سمع القصة من خديجة قال : قدوس قدوس ، ثم ذكر لها أنه النبي المرسل الذي بشر به موسى وعيسى (٣) . وذكر رواية هذا الخبر أن عداساً هذا هو رجل آخر غير عداس الوارد اسمه في خبر ذهاب الرسول إلى الطائف (٤) . وهو استدراك لا يمكن قبوله . وقد أخطأ أولئك الرواة في إقحام اسم عداس في هذا الموضوع . ولا سيما أنهم نسبوا إليه ما نسبوه إلى ورقة من كلام « وأن ما قالوه عن صاحب عداس المذكور في هذا الخبر هو نفس ما ذكر عن عداس الطائف .

ورقة الذي قصده خديجة « هو ورقة بن نوفل بن أسد القرشي ابن عم خديجة على ما يذكره أهل الأخبار ، أحد الخنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام ، وحرّموا الخمر على أنفسهم . وكان كما يقول أهل الأخبار قد تعلم العبرانية ، وقرأ التوراة وكتبها

(١) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٨) ، تأريخ الطبري (٢ / ٢٠٦ وما بعدها) .

(٢) السيرة الحلبية (١ / ٢٨٠ وما بعدها) .

(٣) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٨) .

(٤) ابن هشام (٢ / ٦٠ وما بعدها) « سمى الرسول إلى ثقيف يطلب النصرة » .

بالعبرانية ، وقرأ الكتب (١) . ويذكر أن خديجة استشارته في أمر زواجها من الرسول ، وأنه رحب به وشجعها عليه .

ولا نعرف من أمره شيئاً واضحاً صريحاً يلقي ضوءاً على حياته وعلى معتقده وآرائه وموقفه من اليهودية والنصرانية غير تلك الروايات المبهمة الغامضة التي برويها أهل الأخبار . ولم يذكر أحد منهم أنه أسلم ، أو أنه روى حديثاً عن الرسول . وتذكر الأخبار إنه عمي في أواخر أيامه ، وأنه توفي في السنة الثانية أو الثالثة من نزول الوحي على الرسول (٢) . وفي بعض الروايات أنه شاهد تعذيب بلال ، فهي قريشاً من ذلك . فلما لم يتموا ، قال في ذلك شعراً (٣) . وقد نسب إليه شعر في رثاء عثمان بن الحويرث ابن أمد بن عبد العزيز من زعماء قريش قبل الإسلام . وتذكر كتب الأخبار أنه عرف بـ « البطريق » ، وأنه ذهب إلى قيصر ليساعده في أن يملكه على قريش . ولكن قريشاً لم توافق على تملكه ، ومنعت عثمان من أن يملكه ، فمات عند ابن جفنة ، وقال ورقة الشعر الذي أشرت إليه (٤) .

وقد وردت هذه الجملة في البخاري عن ورقة بن نوفل : « وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الانجيل ما شاء الله أن يكتب » (٥) . ووردت في كتاب آخر هذه الجملة : « وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الانجيل بالعربية ما شاء الله » (٦) . وأرى أن المراد بالعبراني هنا السريانية ، إذ لا علاقة للعبرانية بالانجيل . وقد كان بمكة قوم من النصارى يكتبون بالسريانية ، فلا يستبعد

(١) كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) .

(٢) ابن الاثير ، أسد الغابة (٥ / ٨٨) ، طبقات ابن مسعود (١ / ٣٠ ، ٥٨١) ، الإصابة (٦ / ٣١٧) . Ency., IV, P. 1121, L. Caetani, Annali, P. 129, 155, 180, f, Lammens, in Recherches de Science des Religions, VIII (1918) 18, Sprenger, Leben; I, S. 128 ff.

(٣) نسب قريش (ص ٢٠٨) .

(٤) نسب قريش (ص ٢١٠) .

(٥) التجريد « باب كيف كان بدء الوحي » ، (١ / ٥) ؛ الأغاني (٣ / ١٤) ، البلاذري (١ / ١٠٦) .

(٦) عمدة القاري (١٩ / ٢٠٤) .

تعلمه الكتابة والسريانية منهم . وقد كان القلم الارمني هو القلم الشائع في بلاد الشام وبين النصارى في هذا العهد . وقد تعلم نفر آخر السريانية والقلم السرياني من نصارى بلاد الشام والساكنين في الحجاز ، كما لا أستبعد تعلمه اللغة العبرانية والقلم العبراني من اليهود . فقد كان يهود يثرب يعرفونها ويكتبون بها ، ويقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام وغيرهم ، وذلك في أيام الرسول (١) . فلا يستبعد تعلم ورقة السريانية والعبرانية والقلمين العبراني والسرياني وتفسير الأنجيل أو بعض أسفار العهد القديم بالعربية ان يعرف اللغتين .

وقد ورد في كتب السير والأخبار : أن بقية الأحناف ، كانت تعرف العبرانية أو السريانية ، وأنها كانت قد قرأت كتب أهل الكتاب ، حتى قيل إن أختاً لورقة بن نوفل كانت تقرأ تلك الكتب . وإذا صح ذلك ، فإنه يدل أنها كانت تعرف السريانية أو العبرانية ، أو أنها وقفت عليها مفسرة بالعربية . والاحتمالين أهمية كبيرة بالطبع في الوقوف على الحياة الثقافية والعلمية عند الجاهليين .

وقد فسر بعض المستشرقين عدم اسلام ورقة باستنكافه من الايمان برجل أصغر منه سناً وأحدث منه دعوة في نبذ الشرك والايمان بالله واحد أحد (٢) . وقد بنى حكمهم هذا على تلك الأخبار التي تشير الى أنه عاش بعد نزول الوحي على الرسول الى السنة الثانية أو الثالثة منه ، والى عدم ورود خبر يفيد أنه دخل في الاسلام . وقد ورد في الحديث أنه يحشر يوم القيامة ، وهو في ملابس بيض . ولم يرد فيه ما يفيد أنه كان من المسلمين ولو كان قد أسلم لذكر في طبقات الصحابة ومع المسلمين الأوائل .

وذكر أنه كانت لورقة أخت اسمها « قتيلة بنت نوفل » ، وكانت مثل أخيها تنظر في الكتب (٣) . أي الكتب القديمة ويريدون بها كتب أهل الكتاب .

وقد ذكر الطبري أن المراد بـ « ناموس الأكبر » جبريل (٤) . ولفظة « ناموس » من الألفاظ التي ترد في اليهودية وفي النصرانية ، ولذلك يرى بعض

(١) التجريد (١ / ٩٦) ، « باب تفسير القرآن » .

(٢)

Ency., IV, P. 1122

(٣) البلاذري (١ / ٨٠) .

(٤) تاريخ الطبري (٢ / ٢٠٧) .

المستشرقين أن ورقة إنما تعلمها من النصارى أو اليهود . وهي (نوموس Nomos) في اليونانية . ولها معان عديدة « منها الشريعة » والكتب المقدسة ، وكتب الوحي (١) . وأن معنى كتب الوحي والكتب المقدسة ينسجم مع خبر ذهاب خديجة الى ورقة وقوله لها : « لقد جاءه الناموس الأكبر » الذي كان قد جاء موسى . وقد رأى هؤلاء المستشرقون أن المراد بذلك الكتب المقدسة المنزلة على موسى وعلى بقية الأنبياء والرسل بحسب الديانة اليهودية والنصرانية (٢) .

وكانت خديجة لما عرفته عن زوجها من صدق اللهجة ومن أمانته أول من صدق به وآمن ، فكانت بايمانها هذا أول المسلمين . وقد خفف ايمانها به ودخولها في الاسلام من آلام الرسول وأحزانه ، وكانت « تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس » (٣) . وتقدم اليه كل ماله من معونة معنوية ومادية ، لم تضن عليه بماله وبما كان عندها من ثروة ، بل لقد اشعرته أن كل ما عندها هو ملك له ، وأنه له يتصرف به كيف يشاء . وقد كان لمساعدتها هذه ومعاونتها له قبل الرسالة وبعدها أثر كبير في الدعوة وفي حياة الرسول . لقد كانت خديجة في الواقع مؤمنة بالرسول معتقدة بصدقه ، لما رآته فيه من الجد في القول والاخلاص في دعوته وفي لوم قومه وفي تفكيره الذي استولى عليه . كانت مؤمنة به قبل رسالته . فطبيعي أن تؤمن بما قاله الرسول لها من نزول الوحي عليه ، ومن وجوب تبليغه رسالته هذه للناس . فأمنت به ، وساعدت على نشر رسالته وفي إبلاغ دعوته أبناء قومه . وقد كان لمنزلاتها في مكة ولمنزلة قومها أثر ولا شك ، في ثني أولئك المتخترسين ملاً مكة عن الاشتداد في إيذائهم لزوجها ومن إلحاق الأذى والشر به ..

وسر الرسول بهذا الصوت الذي سمعه ، ملقياً الوحي عليه ، وحي الدعوة والرسالة ، وابتداء القرآن . وصار كل همه بعد أن هدأ واستقر رؤية صاحب ذلك الصوت ، والاستماع الى صوته ، ينزل عليه بالوحي ليبلغه الناس . فخرج ليراه ، وليسمع منه شيئاً ،

(١) تاريخ الطبري (٢ / ٢٠٧) .

(٢) M. W. B. P. 51, Ency. of Islam, Vol., III, PP. 844.

(٣) سيرة ابن هشام (١ / ٢٥٧) « طبعة الباني » .

وأخذ منذ ذلك الحين ينتظر انتمام الرسالة بعد أن أبلغ بتزولها عليه من دون سائر البشر ، وبأنه نبي ورسول من عند الله رب العالمين .

وكان أول من أسلم بعد خديجة ، علي بن أبي طالب ، آمن به وهو ابن عشرين سنين ، أو أقل من ذلك بقليل أو أكثر سنة ؛ وكان في بيت النبي وحجره . أخذه من عمه ليخفف عنه (١) . فكان بمثابة الوالد الشفيق له . رأى ولا شك الرسول وهو يقص على خديجة خبر رسالته ؛ ويحدثها بنبوته ، وشاهده وهو راقد في فراشه بعد نزول الوحي عليه في غار حراء ، فأمن به كما آمنت به خديجة ، واتبعه فكان بذلك أول المسلمين الذكور .

وتذكر بعض الروايات أن علي بن أبي طالب رأى النبي وخديجة يصلي معه . « فقال : ما هذا يا محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا علي ، هذا دين الله الذي اصطفاه واختاره ، وأنا أدعوك الى الله وحده ، وإن تذر اللات والعزى ، فانهما لا تنفعان ولا تضران . فقال علي : ما سمعت بهذا الدين الى اليوم ، وأنا أستمع أبي فيه . فكره النبي صلى الله عليه وسلم أن يفشي ذلك قبل استعلان أمره . فقال : يا علي ، إن فعلت ما قلت لك ، وإلا فאתم ما رأيت . فمضى ليلته . ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أعدت علي ما قلت . فأعاده . فأسلم ، ومكث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصلي معه على خوف من أبي طالب » (٢) .

وبإسلام علي صار الرسول يصلي ومعه في صلاته خديجة وعلي ، يصلي بهما في بيته وفي خارج بيته في ضواحي مكة . وقد ذكر « عفيف الكندي » أنه كان في [منى] عند العباس بن عبد المطلب ، فرأى الرسول وخديجة وعلياً وقد جاؤوا الى هناك واخذوا يصلون . فعجب « عفيف » من ذلك ، وقال لصاحبه وصديقه : « ويحك يا عباس ، ما هذا الدين ؟ قال : هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخي ، يزعم أن الله بعثه رسولا . وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه ، وهذه امرأته خديجة قد تابعت على دينه » (٣) .

(١) ابن هشام (١ / ٢٦٢ وما بعدها) ، « طبعة الباني » .

(٢) البلاذري (١ / ١١٢ وما بعدها) .

(٣) عيون الأثر (١ / ٩٣) .

وكان زيد بن حارثة الكلبي ثاني من آمن برسالة محمد من الذكور ، وقد عرف أمداً بـ « زيد بن محمد » ، وعاش في بيت الرسول وفي رعايته وكفنه . ذلك أن خيلاً من بني القين بن جسر أصابت زبداء ، وعمره يومئذ ثمانين سنين ، فساقته الى « سوق جباشة » وباعته هناك ، وصار في ملك حكيم بن حزام بن خويلد ، ثم رآته خديجة عنده فاختارته وصار لها . ثم وهبته لزوجها محمد قبل الرسالة ، فتبناه وأشهد قريشاً على ذلك على عادة العرب ، قائلاً لها : اشهدوا أن هذا ابني وارثاً وموروثاً ، فعرف فيه . وظل يعرف يزيد بن محمد ، الى أن نزلت الآية : « أدعوهم لأبائهم » (١) ، وقال : أنا زيد بن حارثة . وكان والده حارثة قد جزع على ولده جزعاً شديداً ، وفش عنه طويلاً حتى سمع أنه عند محمد وذلك قبل الوحي ، فجاء اليه ليأخذه منه ، وكلم محمد زيداً في الذهاب مع والده قائلاً له : إن شئت فأقم عندي ، وإن شئت فانطلق مع أبيك ■ وتوسل والده الى ابنه بأن يذهب معه ، ولكنه أبى وفضل البقاء في بيت محمد . فلما نزل الوحي آمن به وصدقه ، فكان ثاني المسلمين الذكور (٢) .

ولما كانت الآية : « أدعوهم لأبائهم » وهي من سورة الأحزاب ، آية مدنية ، فإن هذا يعني أن حارثة بقي يدعى « زيد بن محمد » الى ما بعد الهجرة ، الى أن نزل الوحي بنسبته الى حارثة الكلبي أبيه .

وبإسلام خديجة وعلي وزيد ، صار بيت محمد أول بيت دخل أهله في الاسلام ، وأول بيت مسلم عرف في التاريخ ، وأشرف مكان سكنه انسان في نظر المسلمين . سكنه الرسول وهو في أشد الأوقات حرجاً . ونزل الوحي عليه وهو فيه ، ولم يغادره إلا مضطراً فراراً من قريش ، مهاجراً الى المدينة . وفيه صلى هو وزوجه وعلي وزيد ، فكان بذلك أيضاً أول مسجد في الاسلام .

أما أبو بكر ، عتيق بن عثمان بن عامر المعروف بأبي قحافة ، فكان أول المصدقين برسول الله من غير أهل بيته . كان صديقاً للرسول ومن المتصاين به ، وكان ناجراً ذا خلق

(١) الاحزاب ، الآية ٥ .

(٢) ابن هشام (١ / ٢٦٤ ، ٢٦٦) ، الطبري (٢ / ٢١٥) ، امتاع الاسماع (١٠ ١) .

معروف . فلما عرض الرسول عليه الاسلام ، وحديثه بخبر الوحي ونزول جبريل عليه
بالرسالة ، استجاب له من غير تردد ، وصدق بنبوته ، وأعلن اسلامه ، فكان من
السابقين . وقد ذكر أن الرسول قال : « مادعوت أحداً الى الاسلام ، إلا كانت فيه عنده
كبرة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ماعكم عنه حين ذكرته له
وما تردد فيه » (١) .

وموضوع من كان أول الناس إسلاماً ، ومن كان أقدم من غيره في الاسلام ، من
الموضوعات التي استغلتها العواطف والنزعات السياسية فيما بعد ، كما استغلت أموراً
أخرى ، لم يكن الصحابة من المتقدمين والسابقين في الاسلام يفكرون فيها ويقيمون لها
وزناً . روى الطبري عن محمد بن سعد . قال : « قلت لأبي : أكان أبو بكر أوامكم
إسلاماً ؟ فقال : لا . ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين ، ولكن كان أفضلنا إسلاماً » (٢) .
لقد كان عمل الانسان وفعله هو الفضل ، أما الترتيب والتقدم والتأخر ، فلا قيمة لها
بالنسبة الى العاملين المخلصين .

ويوم أسلم أبو بكر ، أخذ يعمل على نشر الاسلام بين أصحابه وأصدقائه ، ومن
يحضرون مجلسه من خاصته . حدث من اطمأن اليه ووثق برجاحة عقله بخبر دخوله في
الاسلام وإيمانه بصدق دعوة الرسول وبرسالته في الاعتقاد باله واحد ، وبهجرة الأوثان .
وشرح لهم مآثله من الرسول ، فأمن بإيمانه نفر ٣ هم : عثمان بن عفان ، والزبير بن
العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان (٣) ،
وجاء بهم الى رسول الله ، فأسلموا على يديه ، وأخذوا منه قواعد الاسلام وشيئاً مما نزل
من القرآن . فكان لهؤلاء نفر مع من سبقهم ، وعددهم جميعاً ثمانية ، شرف السبق
واستحقوا بذلك شهادة السابقين الأولين الذين سبقوا الناس في الاسلام (٤) .

-
- (١) ابن هشام (٢٦٨ / ١) ، جوامع السيرة (ص ٤٥) ، ابن سيد الناس (٩١ / ١) ،
البداية والنهاية (٢٧ / ٣) ، تاريخ الخميس (٢٨٦ / ١) ، الإمتاع (ص ١٥) .
(٢) تاريخ الطبري (٢١٥ / ٢) .
(٣) جوامع السيرة (ص ٤٦) .
(٤) عيون الأثر (٩٥ / ١) ، ابن هشام (٢٦٩ / ١) ، جوامع السيرة (ص ٤٥)
وما بعدها .

وأسلم بعد هؤلاء الثمانية ، وبثأثيرهم ، جماعة هم : أبو عبيدة وعامر بن عبد الله بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وأخوه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وامراته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب ، وأسما بنت أبي بكر ، وعائشة بنت أبي بكر ، وهي يومئذ صغيرة ، وخباب بن الأرت ، وعمير بن أبي وقاص أخو سعد ، وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القاري ، وسليط بن عمرو ، وأخوه حاطب بن عمرو ، وعياش بن أبي ربيعة ، وامراته أسما بنت سلامة ، وخنيس بن حذافة ، وعامر بن ربيعة العنزي ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد جحش ، وجعفر بن أبي طالب ، وامراته أسما بنت عميس ، وحاطب بن الحارث بن معمر ، وامراته فاطمة بنت المجل ، وأخوه خطاب ، وامراته فكيهة بنت يسار ، ومعمر بن الحارث بن معمر ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمطلب بن أزر ، وامراته رملة بنت أبي عوف ، والنحام نعيم بن عبد الله بن أسيد ، وعامر بن فهيرة ، مولي أبي بكر ، وخالد بن سعيد بن العاص . وامراته أمينة بنت خلف ، وحاطب بن عمرو ، وأبو حذيفة مهشم بن عتبة ، وواقد بن عبد الله ، وخالد وعامر وعافل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل ، وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان المعروف بالرومي (١) ، وأبو ذر الغفاري ، وأبو نجيع السلمي ، وعتبة بن مسعود أخو عبد الله بن مسعود (٢) . هؤلاء كانوا السابقين الى الاسلام ، والحائزين على شرف التسجيل في قائمة المسلمين الثانية في قوائم قدماء المسلمين من أصحاب العقيدة والايمان بعد القائمة الأولى ، وفي أولها اسم خديجة ثم الثلاثة الأولون ، ثم الخمسة المذكورون .

ولا يعني ورود الأسماء المتقدمة على النحو الذي ذكرته أنها رتب بحسب تواريخ دخول من ذكرت في الاسلام . فبين المؤرخين خلاف في تواريخ اسلام السابقين الى الاسلام والمقدمين فيه . وقد أورد الطبري روايات تفيد أن أبا ذر وعمرو بن عتبة كلاهما كان يقول لقد رأيتني ربع الاسلام ، ولم يسلم قبلي الا النبي وأبو بكر

(١) ابن هشام (١ / ٢٦٩ وما بعدها) ، عيون الأثر (١ / ٩٤ وما بعدها) .

(٢) عيون الأثر (١ / ٩٨) ، جوامع السيرة (٤٥ وما بعدها) .

وبلال . كلاهما - أي أبو ذر وعمر بن عبد الله - لا يدري متى أسلم الآخر ، كما أورد روايات تشير إلى إسلام أشخاص جاء ترتيبهم متأخراً في هذه القائمة (١) . وسبب هذا الاختلاف هو ما ذكرته مراراً من أن القوم لم يكونوا يؤمنون بموضوع تثبيت الحوادث وتدوين التواريخ ، وأن التدوين لم يتم إلا بعد أمد ، فلم يكن أمام المدونين إلا الرجوع إلى ذاكرة من تبقى من الصحابة المتأخرين الذين كانوا شباناً في عهد الرسول ، أو من التابعين ولم يكن هؤلاء أسهموا في الأحداث وشهدوا مواعيد الإسلام ، والذاكرة لا تعي الأخبار ولا تحافظ عليها أمداً طويلاً . ثم إن المعاصرين لا يهتمون عادة بالأحداث ، لأنها في نظرهم أمور اعتيادية ، ولم يكن يأتي على بالهم أن شأننا سيكون لها ، لهذا لم يمتوا بها ، وموضوع حفظ أسماء المتقدمين في الإسلام ، بحسب تواريخ إسلامهم باليوم والشهر والسنة ، موضوع من تلك الموضوعات التي لم يكن لها كبير أهمية في صدر الإسلام . فهم إذ أسلموا فانما أسلموا تقرباً إلى الله وعن إيمان وعقيدة . لم يسلموا طمعاً في دنيا سينالونها ولا في ملك أو كسب أو سياسة يستغلونها .

وبين الذين أسلموا أناس عرفوا بالوجاهة في قومهم وبالثراء وبتملكهم المال . ومن بين الأغنياء : أبو بكر ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وكان تاجراً كثير الأسفار بالتجارة . وقد وضع هؤلاء منذ أسلموا كل ما في أيديهم في خدمة دينهم وعقيدتهم ، وفي نشر الإسلام ومساعدة المسلمين المحتاجين ، وفي شراء رقاب الرقيق لفك أسرهم . وبهذه المساعدات المادية القيمة قووا الإسلام وثبتوه ونصروه ودعموه . فكان لها - بالطبع - تأثير كبير في الانتصار على الوثنيين .

(١) الطبري (٢ / ٢١٨) : « عن عمرو بن عبد الله . قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة مستغنياً ، فقلت من أنت؟ قال نبي ، فقلت وما النبي؟ قال رسول الله ، فقلت الله أرسلك؟ قال نعم ، فقلت بم أرسلك؟ قال بأن نبيد الله ونكسر الأوثان ونصل الأرحام ، فقلت نعم ما أرسلك به ، فن تبك؟ قال حر وعبد ، يعني أبا بكر وبلال . فكان عمرو يقول : لقد رأيتني وأنا رابع أربعة ، فأسلمت وقلت أتبك يا رسول الله . قال : لا ، ولكن الحق بقومك » ، تاريخ الإسلام ، للذهبي (١ / ٨١) ، جوامع السيرة (ص ٥٥ ، وما بعدها) .

كما كان بين المسلمين أناس عرفوا بالشجاعة وبعدم الميلاة في القتال وباجادتهم الرمي . ومن الرماة المعروفين مسعود بن ربيعة القاري (١) . وأناس عرفوا بتحمل الشدائد والصبر على التعذيب مهما كان شديداً ، فصبروا ورابطوا . لم تضعف عزيمتهم ، وقد صار تحمل هؤلاء العذاب سبباً في إسلام من قام بتعذيبهم أو شهده ، فتراجعوا عن وثنيهم ، واستغفروا وتابوا ، ودخلوا في دين من عذبوا في سبيل الله .

وبين الذين ذكرت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، كان من السابقين في التوحيد ، ومن بيت عرف التوحيد ودعا إليه وحارب الأوثان . وكان أبوه زيد بن عمرو من الداعين إلى التوحيد قبل رسول الله ، ومن العائنين على قومهم تقربهم إلى حجارة لا تسمع ولا تجيب . وكان من الفارثين الكاثنين ، الواقفين على كتب اليهود والنصارى . ولكنه لم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وإنما كان يدعو إلى التوحيد الخالص ، التوحيد الذي ينادى به الإبراهيميون ، أو الحنفاء ، فأولع به عمه الخطاب من سفهاء مكة ، وساطمهم عليه ، فأذوه ، ثم أخرجوه من بينهم ، ونفوه عن بلده ، وهاجر إلى بلاد الشام . وتوفي هناك في زمن غير بعيد عن الإسلام (٢) .

وقد أسلمت بإسلام سعيد امرأته فاطمة بنت الخطاب ، بنت ذلك الرجل الذي كان السبب في إيذاء زيد بن عمرو بن نفيل وفي هجرته عن مكة ، والتي صارت من جملة الأسباب في دخول أخيها عمر بن الخطاب في الإسلام فيما بعد (٣) .

وكان بين هؤلاء المسلمين نفر كانوا مملوكين ، أسروا أو نهبوا فبيعوا في الأسواق ، فصاروا ملكاً لمن اشتراهم . منهم : عامر بن فهيرة ، وهو مولد من مولدى الأسد ، وكان أسود ، اشتراه أبو بكر ، وأعتقه . ومنهم : واقد بن عبدالله حليف بني عدي بن كعب ، جاءت به باهلة فباعوه من الخطاب بن نفيل ، فبناه . وعرف بواقد بن الخطاب ، فلما نزلت الآية : « ادعوهم لآبائهم » (٤) . قال : أنا واقد بن عبدالله . ومنهم صهيب بن

(١) ابن هشام (١ / ٢٧٠) .

(٢) مروج الذهب (١ / ٥٦ وما بعدها) ، جوامع السيرة (ص ٤٧) ، Shorter, P. 817 .

(٣) جوامع السيرة (ص ٤٧) ، طبقات ابن سعد (٣ / ١ من ١٧٥ وما بعدها) « طبعة

Ency. of Islam, Vol. IV, P. 67.

سحقو »

(٤) الاحزاب ، الآية الخامسة .

سنان المعروف بالرومي ، مولى عبدالله بن جدعان ، ذكر انه كان أسيراً في أرض الروم ، فاشترى منهم ، ومنهم عمار بن ياسر (١) . شاركوا إخوانهم الذين سبقوهم في الاسلام من الأحرار ، وأسهموا معهم في الدفاع عن دين الله ، والتفوا حول الرسول الذي جاء الى العرب والعجم والفاقر والغني والفقير ، والذي عابت عليه قريش اهتمامه بالفقراء ، والتفاف الضعفاء حوله . والعناية بالفقير والضعيف ، عيب ومنقصة في نظر زعماء قريش .

ويلاحظ أن معظم من أسلم كان من أحداث الرجال ، أو من لدات الرسول أو من لا يكبره في السن كثيراً . أما الشيوخ المستنون ، فلم يستجيبوا لدعوته استكباراً وأنفقة ، فللسن عند العرب منزلة ، وهي حكمة وتجارب ، فيقدم المسن على الحدث ، ثم إن العرف أرسخ جذوراً وأعق أصولاً في نفوس المستندين . كان من العار على المسن تغيير ما هو عليه وما ورثه من آبائه وأجداده . وقد كان جواب أبو طالب للرسول حين دعاه الى الايمان به وهجر الأوثان وترك عبادة الأصنام : « أما دين آبائي ، فإن نفسي غير مشايمة على تركه ، وما كنت لأترك ما كان عليه عبد المطلب ، وإمكن انظر الذي بعثت به فأقم عليه ، فوالله لا أسلمتكما ما كنت حياً حتى يتم الذي تريد » (٢) . وهكذا سنة الانسان في زمن الشيخوخة تكره التطور وتأبى التغيير ، ولا تأنس إلا بالمحافظة على القديم ، وعلى تراث جماعته الشيخوخة من حكم السنين .

عثر أبو طالب على ابن أخيه النبي ومعه علي بن ابي طالب ، خارج مكة ، يصليان في مكان هادي بعيد عن الناس ، فقال للرسول : « يا ابن أخي ، ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين آينا ابراهيم ، بعثني الله به رسولا الى العباد ، وأنت أي عم ، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه . فماذا كان جواب عمه أبو طالب ؟ كان جوابه : أي ابن أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه . ولكن ، والله ، لا يخلص اليك بشيء تكرهه ما بقيت » (٣) .

(١) ابن هشام (١ / ٢٧٢ وما بعدها) .

(٢) البلاذري (١ / ١١٣) .

(٣) ابن هشام (١ / ٢٦٢ وما بعدها) ، عيون الأثر (١ / ٩٣ وما بعدها) .

أو هو قال : « هذا حسن ، ولكن لا أفعله أبداً . إنني لا أحب أن تعلنوني استي » (١) .
ولست لدينا تواريخ ثابتة مؤكدة لتواريخ ترتيب اسلام من ذكرنا . ومنها يكن
من أمر ، فقد كان إسلامهم جميعاً في الفترة الأولى من تاريخ الاسلام ، ومدتها ثلاث
سنين أو أربع من ابتداء نزول الوحي ، ولم يكن إسلامهم في زمن واحد ، ولكن كان في
أزمنة مختلفة انحصرت كلها في المدة المذكورة .

لم يكن عدد المسلمين قد جاوز الأربعين شخصاً في هذا الزمن ، هم كل من
أسلموا خلال هذه المدة : ثلاث أو أربع سنين . وكل ذخيرته وعدته للمستقبل . وهي
مدة طويلة كان من الممكن اسلام اضعاف اضعاف هذا العدد لو أن الرسول قام بالدعوة
فيها جهاراً . ولكنه لم يكن يومئذ قد كلف وجوب الجهر بالاسلام والتبليغ ، إلا لمن وجد
في قلبه ميلاً الى الاسلام ، ولهذا لم يتجاوز المسلمون يومئذ العدد المذكور .
والعدد المذكور قليل اذا قيس الى عدد سكان مكة ، الذين كانوا عدة آلاف .

لكنه كان في الواقع قوة وكثرة . قوة ، لأن المسلمين كانوا كتلة واحدة متحدة ، أسلموا
عن إيمان وعقيدة ، وبذل الغني منهم كل مملكته في سبيل الله ، وجعل نفسه في خدمة
رسوله ، يخدمه خدمة المولى لسيده ، يرى هذه الخدمة شرفاً له وقرىبي الى الله . وقد
تنافوا في ذلك وتباروا ، وساءوا أنفسهم برقيقهم الذي اعتقوه في سبيل الله . وعاملوه
معاملة الأخ لأخيه . وكانوا كثرة ، لأنهم كانوا يبدأ واحدة لا يفرقهم طمع ولا حسد ،
وكلهم سامع مطيع لكل أمر يصدر من الرسول ، على حين كان أهل مكة زعماء متفرقين
متنافسين متحاسدين ، تسيرهم أهواء وعواطف ، ليست لهم كلمة واحدة ولا عقيدة واحدة
يدينون بها ، ويتبارون في البذل من أجلها . ثم ان المسلمين عازمون على المضي في
الاسلام ونصره واعلائه ، فأما النصر في الدنيا وإعلاء دين الله ، وفي ذلك ثواب الدنيا
والآخرة ، وإما الاستشهاد ونيل الجنة . أما أهل مكة ، فلم يجمع بينهم هدف ومثل
أعلى ودين يدينون به ، يجعل لهم ثواباً في آخرة وجنة يذهبون اليها إن استشهدوا في
سبيل تلك الأصنام والأوثان ، وليس لهم رئيس واحد مطاع ، فهم قلة في العمل ، وإن
كانوا كثرة في العدد .

(١) السيرة الحلبية (١ / ٣٠٦) .

وكلهم كان يتكتم ويتستر ولا يتظاهر باسلامه ، ولا يعان عنه ، خشية استفزاز قريش ، وقيامها على المسلمين ، وهم بعد قلة ، لاقوة لها ولا عدة ولا قبل لها في مقابلة الكفار . وقد كانت أوامر الرسول اليهم أن يلتزموا هذا الكتمان ، وان يتمسكوا بالصبر ، وألا يدعوا أحداً علناً وجهاراً الى دين الله حتى يأذن الله لهم بذلك . فكانوا امتثالاً لأمر الرسول يأخذون بالحيلة ، ولا يجاهرون أحداً بدين الله إلا بعد تثبيت وتأكد من استعدادة لتقبل الدعوة ، ومن نفرتة من عبادة قومه ، ومن سمو مداركه ، ولا يقيمون شعاراً يفصح عنهم فيؤدي بهم الى التهلكة . وبقوا على ذلك مدة ثلاث سنين أو أربع ، حتى أذن الله لمحمد بانداز عشيرته ودعوة قومه ، وسمح للمسلمين بالاعلان عن أنفسهم والجهار بالدعوة الى الاسلام .

وكان الأمر للرسول أن يقتصر في التبليغ على خاصته ، وعلى من يجد في قلبه ميل الى الاسلام ، لهذا لم يعرض نفسه للناس ، ولم يبلغ رسالته لأهل مكة عامة . بقي على ذلك ثلاث سنين أو أربعاً يدعو الى الله مستخفياً (١) ، ويجتمع بمن آمن به سرّاً وفي أماكن آمنة داخل مكة في بعض الأحيان ، وفي خارجها في الغالب في الشعاب المنزوية التي لا يرتادها الناس . وكذلك كان أمره الى المسلمين بالتزام الحيلة والحذر والتخفي ، وعدم الاعلان عن الاسلام الى ان يقضي الله أمره . فكانوا اذا أرادوا الصلاة خرجوا فرادى أو ثنى الى الشعاب والبرية ، يصلون على حذر ، ولهم عيون ترى القادم لتنبيه المصايين عليه ، فلا يؤخذوا على غرة ، ويظهر أمرهم للناس ، بقوا على ذلك طوال مدة الاستخفاء .

لم تكن قريش في غفلة عن الرسول ، فقد عرفته مجانباً أصنامها بعيداً عن أوثانها ، لا يشاركها أعيادها وأفراحها ، عازفاً عن عبادة قومه ، غير راض عنها . ورأته خارجاً أول نهار كل يوم الى الكعبة ليصلي صلاة الضحى ، وكانت تلك صلاة لا تنكرها قريش . أما في الأوقات الأخرى ، فلم يكن من المألوف عندها رؤية شخص يصلي في الكعبة فيها . فكان اذا صلى في سائر اليوم بعد ذلك ، قعد على أو زيد يرصد له . وسمعت بنخبر نزول الوحي عليه وإيمان نقر به من أهله وذوي قرابته ، فلم تنكر عليه لما يقول . « فكان

(١) زاد الماد (١٠٠) .

إذا مر عليهم في مجالسهم ، يشيرون إليه ، ويقولون : إن غلام بني عبدالمطلب ليكلم من السماء » (١) . وفقد أبو طالب ابنه علياً ، فقالت له فاطمة بنت أسد أمه : قد رأيته يلزم محمداً ، وأنا أخاف أن يأتيك من قبل محمد في أمر ابنك مالا تطيقه . فقال : ما كان ابني ليغتاب علي بأمر . واتبع أبو طالب أثر النبي وأثر علي ، فوجدهما ورسول الله يصلي العصر في شعب أبي دب أو غيره ، وعلي ينظر له ، فقال لرسول الله : ما هذا الدين يا محمد ؟ قال : دين الله الذي بعثني به . فدعاه الى التوحيد ، وترك عبادة الأوثان . فقال أبو طالب : أما دين آبائي ، فإن نفسي غير مشايعة على تركه ؛ وما كنت لأترك ما كان عليه عبدالمطلب ، ولكن أنظر الذي بعثت به فأقم عليه ، فوالله لا أسلمتكم ما كنت حياً ، حتى يتم الذي تريد . وقال لعلي : أما أنت يا بني ، فما بك رغبة في الدخول فيما دخل فيه ابن عمك . وأتى أبو طالب منزله ، فقالت له امرأته : ابن ابنك ؟ قال : وما تصنعين به ؟ قالت : أخبرني مولاتي أنها رأت مع محمد وهما يصليان في شعب بأجياد ؛ أفترى ابنك صبا ؟ قال أبو طالب : أسكتي ، ودعي عنك هذا ، فهو - والله - أحق من أزر ابن عمه . ولولا أن نفسي لا تطاوعني على ترك دين عبدالمطلب ، لا تبعث محمداً ، فانه الحليم الأمين الطاهر . فسكنت وبلغ قريشاً ، فراعهم ، وكبر عليهم (٢) .

ونجد في كتب التفسير والسير والتواريخ أخباراً أخرى على هذه الشاكلة ، تفيد علم قريش ووقوفها على دعوة الرسول الى الاسلام ، وأخباره بنزول الوحي عليه لبعض الناس ، وإيمانهم به وتصديقهم رسالته ، وأنه كان يخرج بهم الى الشعاب خارج مكة ، فيصلي بهم صلاة تنكرها قريش ، لأنها ليست من مألوفهم وعرفهم . وكل ما هو خارج عن عرف أهل مكة ومألوفهم ، فانه منكر في نظرهم لا يرضون به . وهي متفقة على أن قريشاً وإن تنكرت لهذه العبادة الجديدة . وانزعجت منها ، ورأت فيها خروجاً على إجماع قريش ، لكنها لم تنزعج منها انزعاجاً شديداً دعاها الى ائذاء الرسول ومن اتبعه ومعاقتهم . فقد ألقت خروج بعض المكيين بين الفينة والفينة على عبادة قومهم واعتزالهم أصنامهم وأوثانهم ، ودعوتهم الى ديانات غريبة عن مكة لم تكن معروفة فيها . ولا سيما

(١) ابن سعد (١ / ١٩٩) « طبعة بيروت » ، البلاذري (١ / ١١٥) .

(٢) البلاذري (١ / ١١٣) .

أولئك الذين كانوا قد خالطوا اليهود والنصارى ، ووقفوا على آرائهم ودياناتهم ، وسافروا الى الخارج ، فزاروا العراق وبلاد الشام ، واختلطوا بالأعاجم ، ووقفوا على ثقافتهم وعلى مختلف الآراء . فلما جاؤوا الى مكة جاؤوا بأراء جديدة وبأفكار غريبة عنهم استوردوها ، فأرادوا نشرها وإدخالها بين قومهم . فلما جوبهوا بالأمر الواقع وباعراض الناس عنهم ، عادوا الى حظيرة قومهم ، ونسوا مادعوا اليه . أما الذين ثبتوا ، ودعوا عن عقيدة وإيمان ، وأصروا على رأيهم ، فقد اضطروا الى الانزواء والاعتكاف وعلى تجنب قومهم ، واعتزلهم للانصراف الى عبادة الله ، فلم تتحش بهم قريش أيضاً ولم تؤذهم ، بل تركتهم وشأنهم لهم دينهم ولقريش شأنها ودينها ، إلا الذين أبوا الإعيب آلهة قريش والاستخفاف بها ، وبعقيدتها وبعرفها ومأوفها ، فقد آذتهم بعد محاولات قامت بها لنهيمهم عن التعرض بمعتقداتهم وآلهتهم وأخرجتهم من أرضها ، وكان آخر من أخرجته ■ وكان من هذا النوع زيد بن عمرو بن نفيل . فلما كان الاسلام ، ظنت أنه حركة من تلك الحركات ودعوة من تلك الدعوات ، ثم لا تلبث أن يمل صاحبها ويتغلب عليه اليأس ، فيقطع أمله ، ويتراجع كما تراجع من ذكرنا . أو يقبع في كهف أو زاوية ، متنسكاً تنسك الأحناف .

ثم إن من سجايا العربي وطبائعه ، التسامح في الاختلاف في الرأي ، وبغض التقائل والتخاصم على خلافات لا تؤذي الشرف ولا تחדش مكانة الانسان في مجتمعه . ولذلك هضم مجتمعه اليهودية والنصرانية ومختلف أنواع الوثنية اضافة الى عقائد أخرى كان اتباعها قلة ، بل أقل من القلة . ولكن أصحابها عاشوا مع ذلك في إخاء ووثام مع المخالفين لهم في عقيدتهم ، وكانهم ذوو أكرثية ، لا فرق بينها وبين غيرها في شيء . وما قيل عن اضطهاد نصارى نجران أو يهود يثرب ، لم يكن من فعل العرب ، بل من صنع وعمل التعصب السياسي العالمي الذي وبأ جزيرة العرب ، ودخل عليها من الروم والساسانية ، وكانوا قد تباروا في اضطهاد الأقليات ، ونقلوا عدوى مرضهم هذا الى جزيرة العرب لعوامل سياسية بحثت عنها في الأجزاء السابقة من تاريخ العرب قبل الاسلام ، ولعوامل أخرى لا مجال للبحث فيها في هذا المكان .

والعربي سجية أخرى ، هي في نظره إيمان ودين . وأريد بها رابطة الدم ، فعلى العربي نصرة من يرتبط به برابطة الدم ومساعدته ، ظالماً كان ذلك الشخص المراد نصرته أو مظلوماً . وإلا عرض قريبه المتمكن نفسه للمعار والشنار . وقد أثرت هذه الرابطة تأثيراً كبيراً في السياسة العربية في الجاهلية وفي الاسلام . لذلك لم يكن من السهل على قريش إيذاء الرسول في هذا العهد وهو من أسرة كريمة معروفة لها في مكة مركز ومقام ، ولم يكن من السهل عليها إيذاء المسلمين وبينهم من كان من أرقى الأسر وأشرفها حسباً ونسباً . ثم لم تؤذي قريش الرسول والمسلمين . ولم يدر من الرسول ولا من المسلمين ما يستوجب الإيذاء ؟ ولم يصدر من النبي ما فيه عيب بمقيدة قريش ودينها ، بل كان الرسول كما قلت حريصاً على الدعوة الى دين الله بسلام وبإتي هي أحسن كما يظهر ذلك من أقدم السور التي نزلت بمكة ، وكلها حث وأمر للمسلمين أن يتخلقوا في الدعوة الى دين الله بالتعقل وبأخلاق الاسلام .

وقد عاد أهل مكة فاستعملوا اللفظة التي سبق أن اطلقوها على كل خارج على عبادة قومه ودينهم هي لفظة « صبا » ، فقالوا : « صبا محمد » ، يريدون بذلك خروجه عن دينهم وكل خارج عن دينه فهو « صابي » ، ويسمون من يدخل في دين الاسلام مصبواً ، وكلهم صباة (١) .

وكانوا اذا أرادوا الإشارة الى الرسول ، قالوا عنه : « هذا الصابي » (٢) . ولما أسلم عمر بن الخطاب ، قالت قريش : صبا عمر (٣) وكان عمر نفسه قد قال يوماً عن الرسول وذلك قبل دخوله في الاسلام : « أريد محمداً هذا الصابي الذي فرق قريشاً ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله » (٤) .

واذا صحت العبارة التي نسب أهل الأخبار قولها الى أبي طالب ، وهي : « ما هذا الدين يا محمد ؟ » ، فإنها تدل على أن الجاهليين استعملوا لفظة « الدين » بالمعنى الاصطلاحي

(١) المفردات (ص ٢٧٥) ، شرح القاموس (١ / ٨٦) .

(٢) الروض الأنف (١١٦ / ١) « الهامش » « سيرة ابن هشام » ، « قلت : أين هذا الذي تدعوه الصابي ؟ فأشار إلي . فقال : الصابي ... قاتنا : الصابي بين الكعبة وأستانها .. » ، صحيح مسلم (١٥٢ / ٧ وما بعدها) .

(٣) الروض الأنف (٢١٦ / ١) الهامش سيرة ابن هشام ، (١ / ٣٦٦) .

(٤) المصدر نفسه : الهامش « سيرة ابن هشام » (١ / ٣٦٦) .

المفهوم منها عند أهل الأديان ، وبالمعنى الذي يحدده العلماء (١) ، أي في مقابل لفظة « Religion » في الانكليزية (٢) . واللفظة معنى آخر هو يوم الحشر ، وذلك في آية «مالك يوم الدين» (٣) . وأما الديان ، فانها بمعنى : القاضي . وقد مدح الأعشى « الأعشى الحرمازي » الرسول بقوله:

ياسيد الناس وديان العرب (٤) .

وقد زعم بعض المستشرقين أن لفظة « الدين » من أصل أعجمي ، وأنها من الألفاظ المعربة ، أصلها فارسي هو « دينا Daena » (٥) . وقد دخلت في العربية بمدة جليلة قبل الاسلام . وترد لفظة « دين » بمعنى الحشر في الارمية والعبرانية كذلك . وهي « دينو Dino » في الارمية ، وتقابل لفظة « Daino » الارمية لفظة الديان في العربية . والله هو الديان ، وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة ، وتعني لفظة « دين » القضاء في اللغة البابلية . وتعني « بل ديني Beldini » معنى سيد القضاء (٦) .

وسارت الأمور سيراً لا بأس به بين المسلمين وقريش ، لم يعكر صفوها نزاع ولا قتال . المسلمون حذرون خائفون ، يخشون جهال قريش وحمقها ، وقريش تنظر الى المسلمين متعجبة ، ترى ماذا يفعل هؤلاء الذين يتركون الأرض ويناجون السماء ، يتعدون عن الأصنام وهي قرية منهم تلمس وتسمع ، وينظرون الى رب في السماء ، وهو بعيد عنهم . لا يسمع ولا يجيب . أليس هؤلاء مجانين ؟ وظل كل يراقب الآخر ، وهو لا يضم له شراً ، ولا يريد أن يقع بينهما شر . وقد كانت قريش تكره الفتن ، وتفر من الخصومة ، وتبتعد جهد إمكانها عن الفوضى ، لأثرها في الأمن ، وفي استقرارها ، وعلى الاستقرار تتوقف حياتها ، فهي مدينة تجارة ودين . ومن طبيعة التاجر ومصلحته حب الاستقرار والأمن . ومن طبيعة المدن المقدسة ومصلحتها ، المحافظة على الأمن

(١) المفردات (١٧٥) .

(٢) Dictionary of Islam, P. 84.

(٣) سورة الفاتحة ، الآية ٣ .

(٤) برصوم (ص ٦٠) ، الفائق (ص ٤٢٣) شرح القاموس (٩ / ٢٠٨) .

(٥) Handwörterbuch des Islam, S. 98, Grundriss der Iran. Philol.,

I, I, S. 107, 270, I. 2, S. 26, 170, II, S. 644, Juynboll, Handbuch des Islamischen Gesetzes, S. 40, 58.

(٦) برصوم (ص ٦٠) .

وتقديسه ، وضمان الراحة والاستقرار للمؤمنين القادمين من مختلف الأنحاء ، والمسلمون
يكرهون الشر ويبتعدون عنه وينهون عنه ويحاولون جهدهم عدم إثارة قريش . ولكن
هل كان من الممكن استمرار الحال على هذا المنوال الى أجل بعيد ؟

الجواب : لا . فسكوت قريش ، إنما كان عن استصغار وعدم مبالاة وعسدها
الاسلام شيئاً غريباً ، وحركة طائشة لا خطر لها ، لا تلبث أن تذهب كما يذهب الزبد
جفاء . ولم تكن لتسكت لو علمت أن الاسلام دين جاء لأهل مكة ولغير مكة ، وأنه جاء
لاجتثاث الأصنام والأوثان وكل ما يتعارض مع عبادة الله الواحد الأحد ، وأنه سيزيل
الأصنام البشر وكل من يدين بالجبروت والطاقوت ويمشي على الأرض مختالاً فخوراً ،
فكان لابد من مجيء يوم تظهر فيه الخصومة ، ويقع فيه الشر ، فاما الوثنية ، وإما الاسلام .
وقد جاء ذلك اليوم حين أخذت قريش تقص آثار النبي والمسلمين ، إما على سبيل
الاستطلاع للوقوف على حالة هذه الشيعة الغريبة التي اعتزلت عبادة قومها ولجأت الى
ديانة غير معروفة لديها ، وإما على سبيل الوقوف على أهدافها وعلى مدى انتشار حركتها
والخطر الذي سيتولد منها على قريش . مهما يكن من أمر ، فقد أخذ نفر من أهل مكة ،
وأكثرهم من الجهال الفحاش ، يتعقبون أثر المسلمين ، ويتسقطون أخبارهم ويتقصون
مواضع اجتماعاتهم وأوقاتها ، ليراقبوا حركاتهم وليروا ما هم فاعلون . فكان عملهم هذا
الشرارة التي أضرمت نيران الفتنة بين المسلمين وقريش . جاء في رواية : بينا طليب بن
عمير وحاطب بن عمرو يصليان في شعب بأجباد الأصفر ، إذ هجم عليهما ابن الأصداء
وابن الغيطة وكانا فاحشين ، فباطشوهما ، ورموهما بالحجارة ساعة حتى خرجا
فانصرفا» (١) .

وفي خبر آخر : خرج جماعة من المسلمين الى شعب أبي دب للصلاة ، فيهم سعد
ابن أبي وقاص ، فظهر عليهم نفر من المشركين ، وقد كانوا يرصدونهم ويتبعون آثارهم ،
وهم يصابون ، فذاكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى بطشوا بهم . فأخذ سعد الحلي

(١) البلاذري (١١٧/١) .

جمل ، فضرب به رجلاً من المشركين ، فشجّه شجّة أوضحت ، وانكسر المشركون ، وقوي أصحاب سعد ، فماردوهم حتى خرجوا من الشعب . فكان هذا الدم أول دم أمريق في الاسلام (١) .

هذان الحادثان وأمثالهما وان بدوا وكأنهما عبت من عبث الصبيان ، لكنهما تركا أثراً في نفوس جهال مكة . وحمل الرسول على نصيح المسلمين بالتخفي والتزام البيوت مدة من الزمن حتى تستقر الأحوال وتهدأ الأعصاب ، ودخل هو وجماعة من أصحابه بيت الأرقم بن الأرقم ، وبقي فيه مختفياً مع جماعته لا يخرج ، الى أن أذن الله له بالخروج . وقد كان بعض المسلمين الذين بقوا خارج البيت يراجعون دار الأرقم لتلقي أوامر النبي ، وتنفيذ ما يحتاج اليه . وفي هذه الدار أيضاً أسلم بعض المسلمين . قال عمار بن ياسر : لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ، والنبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فقلت له : ما تريد ؟ فقال : ما تريد أنت ؟ قلت : أريد أن أدخل على محمد ، فأسمع كلامه . قال : وأنا أريد ذلك . فدخلنا عليه ، فعرض علينا الاسلام ، فأسلمنا . ثم مكثنا يومنا على ذلك ، حتى أمسينا ، ثم خرجنا مستخفين . فكان إسلام عمار وصهيب بعد إسلام بضعة وثلاثين رجلاً (٢) .

ونقع دار الأرقم هذه على الصفا ، وقد عرفت بدار الخيزران أيام العباسيين ، إذ اشتراها المنصور ، ثم أعطاها ولده المهدي ، ثم أعطاها المهدي الخيزران أم ولديه الهادي والرشد (٣) . أما قبل ذلك ، فقد عرفت بدار الأرقم ودار الاسلام . وقد احتفظ بنو الأرقم بها الى أن اشتراها منهم المنصور (٤) .

وليس في كتب الأخبار والسير والتواريخ مضبوط للوقت الذي استخفى فيه الرسول والمسلمون في دار الأرقم . فالروايات في ذلك متضاربة مضطربة ، ولكن

(١) البلاذري (١١٦/١) ، ابن هشام (٢٧٥/١) ، الطبري (٢١٦٠٢) .

(٢) البلاذري (١٥٨/١)

(٣) الحلبية (٣١٩/١) ، أخبار مكة (ص ٤٢٤) ، « طبعة لايزك » ، امتاع الأسع

(١٨/١)

Ency. of Islam, Vol. I, p. 435.

(٤)

المرجح ، على ما يبدو من غربلتها ونخلها ، أنه كان في أواخر السنة الثالثة من النبوة أو في السنة الرابعة ، أي في أواخر العهد الذي تحدثت عنه ، بمعنى المدة التي أخفى الرسول فيها أمره ، وصار يدعو الناس فيها خفية بعد نزول : (يا أيها المدثر) ، ولم يكن الرسول فيها قد أندر قومه علانية بالدخول في الاسلام (١) .

وقد اتخذ المسلمون الأولون استخفاء الرسول في دار الأرقم حادثاً أرخوا به ، فقالوا : « أسلم فلان قبل دخول دار الأرقم » (٢) ، وقالوا : « إسلام فلان في دار الأرقم » (٣) ، وقالوا مثل ذلك في توقيت إسلام الطبقة الأولى من الصحابة .

والروايات متضاربة في مدة الاستخفاء في دار الأرقم ، فهناك من يجعل مدتها شهراً فقط (٤) . ثم انها متضاربة كذلك في كيفية الاستخفاء ، هل كان استخفاء تاماً عن الناس في تلك الدار فلا يخرج منها احد من المسلمين ولا يظهرون لأحد ، أو كان استخفاء في أوقات قصيرة من النهار ، وذلك في أوقات اجتماعهم بالنبي مثلاً لأجل الصلاة وتوضيح الاسلام . والتبشير بدين الله وقبول أحد فيه ؟

والأرقم بن أبي الأرقم ، مخزومي من آل مخزوم المعروفين بالثروة والغنى في أيامهم بمكة . وأما أمه ، فهي من خزاعة ، دخل في الاسلام شاباً ، فكان من المسلمين الأولين المكافحين المناضلين عن الاسلام ، مع أن أهله كانوا من أشد الناس في وقت إسلامه عداوة للاسلام ولمحمد (٥) . ولما وجد حراجة موقف المسلمين بعد تلك الحادثة المذكورة ، ووجوب الالتجاء الى مكان أمين لا تجرؤ قريش على انتهاك حرمة ، عرض بيته على الرسول ، فكان أول معقل وملجأ أمين له ولأتباعه . وعددهم حتى هذا الوقت لم يكن قد بلغ الأربعين ، فكان في ذلك شرف عظيم في الاسلام . وبفضل مكانة الأرقم في بيته ، وبحكم العنعات الاجتماعية وعصبية الدم ، تمكن المسلمون من التحصن في هذه الدار بأمان وسلام ، بالرغم مما وقع فيما بينهم وبين جماعة المشركين المذكورين .

(١) الحلبية (٣١٩/١) ، الطبري (٢٠٦/٢)

(٢) البلاذري (١٧٦/١)

(٣) البلاذري (١٨٠/١) .

(٤) السيرة الحلبية (٣١٩/١) .

(٥) امتاع الاسماع (١٨/١) ،

واذا استثنينا دار الرسول التي شرفت بسكنى الرسول فيها وبنزل الوحي عليه فيها مراراً وبإسلام أول المسلمين فيها ، فصارت بذلك أشرف دار على وجه الأرض في نظر المسلمين ، فإن من حق « دار الأرقم » أن تتباهى على سائر الدور الأخرى بكونها « دار الإسلام » ، والمنزل الأول الذي اختاره الرسول ليكون مقراً ومسكناً له وللمسلمين إلى حين . مكان أدى ما القى عليه من واجب خير أداء ، فله الحق إذن في أن ينال تلك الدرجة العالية عند المسلمين .

وبخروج الرسول ومن كان معه من دار الأرقم ، اختتم عهد ، وابتدأ عهد . اختتم عهد الاستخفاء والدعوة إلى الإسلام سرّاً وتخفياً ، وابتدأ عهد الدعوة إليه علناً ، دعوة عشيرة الرسول وآله أولاً ، ثم دعوة أهل مكة عموماً وغير أهل مكة للدخول في الإسلام . وقد أثارَت هذه الدعوة العلنية قريشاً بالطبع ، فجاهرت بعداوتها للنبي ولما دعا إليه . ولا نعلم متى كان خروج الرسول من دار الأرقم ، فكتب السير والتواريخ ساكنة عن ذلك . كذلك لا نعلم عن كيفية اختفائه في هذه الدار ولا عن عمله وعمل بقية المسلمين فيها شيئاً ، فكتب السير والتواريخ ساكنة عنها أيضاً ، لم تذكر هل كان الرسول يخرج من هذه الدار بين الحين والحين فيذهب إلى الكعبة أو إلى بيته ، أو أنه كان مخفياً فيها اختفاء تاماً ، فلم يغادرها إلى آخر يوم ، وهو اليوم الذي غادرها بأمر نزل عليه ، ولم تتحدث تلك الموارد عن الوحي ، هل نزل عليه في دار الأرقم أولاً . إن سكوت هذه الموارد عن هذه الأمور شيء مؤسف حقاً ، جعلنا في جهل عن هذه الحقبة الأولى من تاريخ الرسالة .

وهكذا اختتمت هذه الفترة ، فترة انقطاع الدعوة إلى الإسلام إلا للمختصين بالرسول ومن وجد الرسول فيه استمداداً لتقبل الدعوة والإيمان به ، بمرحلة جديدة هي المرحلة التي بدأ فيها الصراع الفعلي بين الرسول وقريش . وفيها أخذ رؤساء مكة يقاومون الإسلام ، ويدركون خطره على كياناتهم وعلى عاداتهم الموروثة عن آباؤهم وأجدادهم انتهت مرحلة التخفي بعد أن دامت ثلاث أو أربع سنين (١) ، وبدأت مرحلة الدعوة العلنية والجهار بها رضي المشركون أو غضبوا .

(١) امتاع الامناع (١٥/١) .

ان علمنا عن مدة الاستخفاء ليس على ما ينبغي ويرام من التحقق ، اذ لم تتحدث كتب السير والأخبار عنها كثيراً . مع أنها مهمة ، لأنها تكون أول عهد النبوة ومبدأ نزول الوحي على الرسول ، والمرحلة الأولى من مراحل انتشار الاسلام ، والأساس الذي قام عليه بناء الأمة الاسلامية ، ولهذه الأسباب يطمع المؤرخ في الحصول على معلومات مفصلة مسبهة عنها . وقد كان لقلة عدد المسلمين في هذه المدة وضعف حالهم ، وتخفيهم ، وخشييتهم من اقتضاح أمرهم لدى قريش ، وعدم مجاهرة الرسول الملاً بالاسلام وانزواته مع أصحابه للعبادة والتأمل دخل ، ولا شك في قلة ما سجل عن هذه المدة في كتب الحديث والسير والتواريخ .

وأود أن أشير الى خير ورد في كتب السير يفيد أن الوحي انقطع عن الرسول بعد رجوعه من حراء الى خديجة ، أي في أثناء مدة الاستخفاء هذه ، ومكث ماشاء الله أن يمكث لا يرى شيئاً ، وفتر عنه الوحي ، فاغتم لذلك ، وذهب مراراً ليرتدى من رؤوس الجبال شوقاً منه الى ما عاين أول مرة من حلاوة مشاهدة وحي الله اليه . وقد قيل : إن فترة الوحي كانت قريباً من سنتين ، وقيل : كانت سنتين ونصفاً ، وقيل : كانت أربعين يوماً ، وقيل خمسة عشر يوماً وقيل ثلاثة أيام (١) ، ثم تبدى له الملك وثبته ، وبشره أنه رسول الله حقاً . فلما رآه ، فرق منه ، وذهب الى خديجة ، فقال : زملوني زملوني . فأنزل الله « يا أيها المدثر قم فأأنذر » (٢) .

وذكر بعض العلماء أن الرسول لما قلق واغتم وكرب من إبطاء جبريل عليه وانقطاعه عنه ، قالت له خديجة : « ما أرى ربك إلا قد قلاك » . فأنزل الله عز وجل : « والضحى والليل اذ سجى . ما ودعك ربك وما قلى » (٣) . وذكر بعض الرواة أنها نزلت بعد قول المشركين فيه إن ربه قد فلاه وودعه . وذكر بعض الرواة أنها نزلت بعد تبت بدا أبي لهب ، ذلك أن الوحي انقطع عنه بعد نزولها ، فذهبت العوراء أم جميل اليه ، وهي امرأة أبي لهب ، فقالت : ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك . وذكر أن الرسول رمى بحجر

(١) إمتاع الاسماع (١٤/١) ، ابن سعد (١٩٦/١) ، السيرة (٢٩٦/١) .

(٢) إمتاع الاسماع (١٤/١) .

(٣) تفسير الطبري « ١٤٨/٣٠ » ، الطبري « ٢٠٦٢ » .

في إصبعه ، فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم ، فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، وقيل : إن اليهود سألوه عن أصحاب الكهف وعن الروح وعن قصة ذي القرنين ، فقال الرسول : سأخبركم غداً ، ولم يستثن . فاحتبس عنه الوحي . فقال المشركون ما قالوا فنزلت . وورد غير ذلك (١) .

ورأى أكثر العلماء أن سورة الضحى إنما نزلت تكديباً لزعم قريش المذكور ، ومعنى هذا أن نزولها كان بعد مدة الاستخفاء ، لافي أثنائها ، أي في المدة التي ظهرت فيها عداوة قريش للرسول ومعنى هذا أن مدة انقطاع الوحي إنما كانت في هذه المدة أيضاً ؛ في هذه المدة التي اشتدت فيها خصومة الكفار له ، فأثر هذا الانقطاع عنه وأحزنه ، فقالت قولها ، فنزل الوحي بعد مقاتلتهم هذه تكديباً لها ، وأفرج عنه .

أما ما ورد من أن نزول سورة « الضحى » كان جواباً لقول خديجة من أن « ربه قد قلاه » ، فإنه يخالف ما عرف عنها من تشجيعها له ، وتهديتها له وتثيئته ، وتصديقها به وبكل ما كان يقوله لها ، فلا يعقل صدور هذا القول منها ، لما فيه من تشكيك وإثارة . وقد ورد في خبر آخر أن الرسول قال لخديجة لما ابطأ الوحي عليه : « ان ربي ودعني وقلاني » يشكوا اليها ، فقالت : « كلا ، والذي بعثك بالحق » ما ابتدأك الله تعالى بهذه الكرامة إلا وهو سبحانه يريد أن يتمها لك « فنزلت (٢) . وهو خير شاذ في نظر كثير من العلماء يضعفونه ، ولا يأخذون به . وأكثرهم على ما ذكرت من أن نزول سورة الضحى كان بسبب تهكم المشركين بالرسول ، وادعائهم أن ربه قد ودعه وقلاه على سبيل السخرية والهزء . ويعني هذا نزول هذه السورة بعد الاستخفاء .

لقد كان الايمان بالله واحد وبوجود رب واحد وينزل الوحي على الرسول ، أول علامة فارقة ميزت المسلمين عن الكفار . ولهذا كانت الشهادتان شهادة : الا إله إلا الله ، وشهادة ان محمداً رسول الله ، هما أول ما فرض في الاسلام .

واذا سألتني عن أهم ما شرع وفرض من أحكام في هذه المدة ، فسيكون جوابي : الصلاة ولا شك ، والصلاة كما هي معاومة ركن من الأركان الخمسة في الاسلام .

(١) « ١٥٦/٣٠ وما بعدها » ، القسطلاني « ٤٢٥/٧ وما بعدها » .

(٢) روح المعاني « ١٥٨/٣٠ » .

وقد ذكرت كتب السير والتواريخ أن الصلاة كانت هي التي تجمع بين المسلمين ، فكان المسلمون في هذه المدة إذا حان وقت الصلاة خرجوا الى الشعاب خارج مكة متخفين ليصلوا فيها ، كما كانوا يصلون متخفين في بعض البيوت خشية وقوف قريش عليهم . وترجع كتب الحديث والسير تأريخ فرض الصلاة الى المرة الأولى التي نزل فيها الوحي ، فتذكر أن جبريل كان أول ما فعله يوم نزل في غار حراء هو أن علم الرسول كيفية الوضوء وأصوله ثم الصلاة ، فصلى الرسول بصلاة جبريل (١) .

بل يظهر من بعض الأخبار أن قريشاً كانت لا تشكر الصلاة وقت الضحى ، فذكر أن الرسول كان يخرج الى الكعبة أول النهار ، ويصلي صلاة الضحى . وكانت تلك صلاة لا تنكرها قريش . أما في الأوقات الأخرى ، فلم تكن قريش ترضى بها (٢) . ولم يفصح هذا الخبر عن كيفية تلك الصلاة وشكلها ، وماذا كان يقال فيها ، ومن كان يصليها ، قريش كلها أو نفر منها ؟ وهل كانت بركوع وسجود ، أم كانت مجرد وقوف ؟ ولست استبعد صلاة قريش في وقت آخر في البيت الحرام أو في معابد العرب الأخرى . وقد ورد في خبر عن عبد الله بن الصامت أن أبا ذر الغفاري قال له : « يا ابن أخي ، صليت سنتين قبل مبعث النبي ، صلى الله عليه وسلم . قال : قلت فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهني الله » (٣) . وهذا إن صح يدل بالطبع على أن العرب كانت تعرف الصلاة قبل الاسلام .

أما الصلاة في هذه المدة ، فكانت أول ما فرضت على الرسول ركعتين ركعتين كل صلاة (٤) . ولما رجع الرسول بعد نزول الوحي عليه وأخبر خديجة بنزوله عليه ، صلى بها ركعتين على نحو ما علمه جبريل (٥) . وكانوا يصلون الضحى والمغرب ، ثم نزلت الصلوات الخمس قبل الهجرة . وكانت الصلاة ركعتين ركعتين ، ثم نزل تمامها بالمدينة للمقيم ، وبقيت صلاة المسافر ركعتين (٦) . هكذا كانت الصلاة في بادئ

(١) البلاذري « ١١١/١ » ، الطبري « ٢١٠ » .

(٢) البلاذري « ١١٣/١ » ، إمتاع الاسماع « ١٦/١ » وما بعدها .

(٣) صحيح مسلم « ١٥٣/٧ » ، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه .

(٤) ابن هشام « ٢٦٢/١ » وما بعدها .

(٥) البلاذري « ١١١/١ » .

(٦) البلاذري « ١١٧/١ » .

الأمر صلاتين : صلاة في الضحى وصلاة في العصر ، وكل صلاة بركعتين .

وقد كانت الصلاة في هذه المدة صلاة من غير أذان ، ثم أمر به في السنة الأولى أو الثانية من الهجرة ، أي في المدينة ، حينما أتمم رسول الله وأصحابه أن يجعلوا شيئاً للاجتماع للصلاة (١) . ولم تكن الحكمة تشريع الأذان بمكة ، فالأذان اعلان وقوع وقت الصلاة ، ولم يكن من الممكن إعلانها في مكة ، فالمسلمون قلة ، وكانوا يتخفون من قريش ، والأذان هو ضد الأمر بالتخفي والابتعاد عن كل ما يثير غضب قريش ، ولهذا لم يكن من الممكن الأمر به في هذا العهد بمكة .

والصلاة من العبادات المعروفة المستعملة في كل الأديان ، وهي من أركان الدين في معظمها تقريباً ، وإن اختلفت في شكلها ومفهومها . ويرى المستشرقون أن لفظة « الصلاة » من الألفاظ المعربة . عربت عن الإرامية قبل الإسلام بأمد ، وقد وردت لفظة « صلوات » في القرآن الكريم بمعنى المصلي والمعبد (٢) . وقد كان السريان يطلقون على كنيستهم « صلوتا » ، فـ « صلوات » جمع مصلي ومعبد وما زال نصارى شرقي الأردن يطلقون على كنائسهم « صلوات » (٣) . والظاهر أن أهل الحجاز استعملوا هذه اللفظة استعمال نصارى العرب لها . وقد ذكر « الجواليقي » ، أن « صلوات » الواردة في القرآن الكريم ، هي كنائس اليهود . وهي بالعبرانية « صلوتا » (٤) . وتقابل لفظة « صلوتا » جملة : « بيت صلوتو Beth Sloutho » في السريانية ، ومعناها « بيت الصلاة » . وقد أطلق العبرانيون على كنيستهم « صلوتا » أي موضع الصلاة . أخذوا ذلك من السريان (٥) . والصلاة بالمعنى المفهوم منها عند المسلمين هي « صلوتا » « Selota » في الإرامية (٦) . و « صلوت » في الحبشية و « صليتو » في الأكديّة (٧) . أما في العبرانية ، فيقال لها « تفيلاه Tephilah » (٨) .

(١) البلاذري « ٢٧٣/١ » .

(٢) الحج ، الآية ٢٤ ، الكشاف ٣/٣ وما بعدها المفردات ص ٢٨٧ .

(٣) مرمرجي ص ١١٩ .

(٤) الحج ، الآية ٤٠ ، الجواليقي ، المغرب [ص ٢١١] .

(٥) برصوم ص ١٠٥ وما بعدها .

Shorter, p: 636.

(٦)

(٧) مرمرجي ص ١١٤ وما بعدها .

Hastings, p. 444.

(٨)

أما القرآن الكريم ، فليس في استطاعتنا حصر ما نزل منه في أثناء هذه المدة على وجه ثابت مضبوط ، إذ اختلف في ذلك العلماء . فذهب فريق منهم الى ان سورة (اقرأ باسم ربك) هي أول ما نزل من القرآن ، وذهب فريق ثان الى ان سورة (يا أيها المدثر قم فأنذر) كانت أول ما نزل . وذهب فريق ثالث الى ان (سورة الفاتحة) هي أول ما نزل به الوحي من القرآن الكريم (١) . والمعلماء في ذلك كلام وبحوث لا مجال للتعرض لها في هذا المكان . على أن أكثرهم يميلون الى الرأي الاول ، مستندين الى خبر مروي عن عائشة زوج الرسول (٢) .

والذين يذكرون أن سورة (يا أيها المدثر) هي أول ما نزل من الذكر الحكيم ، يستندون الى رواية لا تشير الى نزول شيء من القرآن الكريم في غار حراء ، بل تجعل نزوله بعد ذلك . وتذكر هذه الرواية ان الملك الذي جاء الرسول بحراء ، جاءه بعد ذلك فأوحى اليه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر » (٣) ، فكانت على هذه الرواية أول ما نزل من القرآن .

وقال معظم العلماء إن سورة (ن والقلم وما يسطرون) هي أول ما نزل بعد (اقرأ) ، وإن (المزمل) نزلت بعد (ن) ، ثم نزلت (المدثر) بعد (المزمل) ، ثم نزلت (تبت) بعد (المدثر) ، وقدم بعضهم (الفاتحة) على (تبت) (٤) . ولا يعني قولهم هذا نزول السورة كلها من أول آية فيها الى آخر آية على هذا الترتيب ، ففي بعض السور آيات متأخرة ألحقت بالآيات القديمة المذكورة ، وقد عينها ونص عليها العلماء ، وأشاروا اليها في أسباب النزول (٥) .

على أن هناك من قال إن سورة (الضحى) هي أول ما نزل بعد سورة (اقرأ) . نزلت بعد إبطاء التنزيل على الرسول بعد نزول (اقرأ) عليه ، فقال كفار قريش :

(١) السيوطي : (الاتقان ٢٩/١ وما بعدها) ، البلاذري (١٠٧/١) .

(٢) راجع المراجع المذكورة .

(٣) الاتقان (٤٠/١) .

(٤) الفهرست (ص ٣٧) ، الاتقان (١ / ٤٢ وما بعدها) ، روح المعاني (٣٠ / ١٧٨) .

(٥) راجع كتب التفسير ومباحث أسباب النزول وما كتب في ترتيب نزول السور ، البلاذري (١٠٨/١) .

ودعه ربه وقلاه ، فنزلت (والضحي) . ومنهم من قال : إن أول ما نزل (اقرأ باسم ربك) : ثم (نون) ، ثم (المدثر) ، ثم (المزمل) . ومنهم من قال : أول ما نزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ١ حتى بلغ الى (الرجعي) ، ثم نزلت (يا أيها المدثر) ، ثم ثلاث آيات من (ن) (١) .

ولم يدون العلماء - واأسفاه - تواريخ نزول الوحي ، بالشهور والسنين . وإنما اكتفوا بذكر أسباب النزول ، أي المناسبات التي نزلت فيها الآيات ، وذلك باستثناء سورة (اقرأ) التي نص أكثر العلماء على أنها نزلت في اليوم الأول من نزول الوحي وفي غار حراء . ومعنى ذلك أنها نزلت في السنة الأولى من النبوة ، فهي إذن أقدم السور والآي . أما (ن) ، فقد ذكر العلماء أنها نزلت في كمار قريش وعلى رأسهم أبو جهل والوليد بن المغيرة . وقد كانوا ينسبون الى الرسول الشعر مرة والسحر مرة ثانية ، والجنون مرة ثالثة . فبدأ جل شأنه هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه اليه من الجنون ، وتعظيم أجره على صبره على أذاهم ، وبالثناء على خلقه (٢) . وأما المزمل فذكر بعض العلماء أنها نزلت بعد يا أيها المدثر (٣) ، وذلك حينما ذهب الرسول فرعاً الى خديجة ليخبرها بخبر الوحي ، فقال : زملوني زملوني ، فنزلت (يا أيها المدثر) . وعلى أثرها نزلت يا أيها المزمل (٤) . وذكر بعض آخر أنها نزلت لما اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : « سمو هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه ، فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . فقالوا : يفرق بين الحبيب وحبيه . فتفرق المشركون على ذلك . فبلغ ذلك النبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتزمل في ثيابه وتندثر فيها ، فأناه جبريل عليه السلام ، فقال يا أيها المزمل يا أيها المدثر » (٥) . وذكر في سبب نزول (المدثر) ما ذكرته عن

(١) البلاذري (١ / ١٠٧ وما بعدها) .

(٢) روح المعاني (٢٩ / ٢٣ وما بعدها) .

(٣) البلاذري (١ / ١٠٩ . الطبرسي ١٠٣٧ / ٣٧٧) .

(٤) روح المعاني (٢٩ / ١٠١) .

(٥) روح المعاني (٢٩ / ١٠١) .

نزول (يا ايها المزمل) (١) . وأما (تبت) ، فيذكر العلماء ، أنها نزلت بعد صعود رسول الله الصفا لانداز قريش على ما سأحدث عنه فيما بعد (٢) ؛ أي أنها نزلت بعد خروج الرسول من دار الأرقم وبعد انتهاء مدة الاستخفاء التي تحدث عنها .

هذا هو كل ما ذكره العلماء عن أقدم ماورد من القرآن الكريم ؛ ولكننا لو درسنا أسباب النزول المدونة في كتب التفسير والحديث بعناية ودقة « نجد أنها باستثناء «اقرأ» تشير في الواقع الى أن نزولها كان بعد مدة الاستخفاء وبعد تحرش قريش به وتعرضها بالاسلام . إذ لا يعقل نزولها في تلك المدة ؛ ولم تكن العلاقات قد ساءت بعد بين الرسول وقريش في هذا العهد . ولعل هذا هو الذي جعل بعض العلماء يذهبون الى أن النبوة أتت الرسول وهو ابن أربعين سنة ، ثم استمرت على رأيهم ثلاث سنوات ، حتى بلغ الرسول الثالثة والأربعين ، فانتهت بنزول جبريل بالقرآن عليه . أما في السنين الثلاث المذكورة سني النبوة ، فقد قرن به إسرافيل ، كان يعلمه الكلمة والشيء ، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه ، لأن ذلك لم يكن من واجب إسرافيل . ثم إن هذه المدة كانت تمهيداً للرسالة . وهذا الخبر ضعيف على رأي أكثر علماء السيرة والتواريخ (٣) .

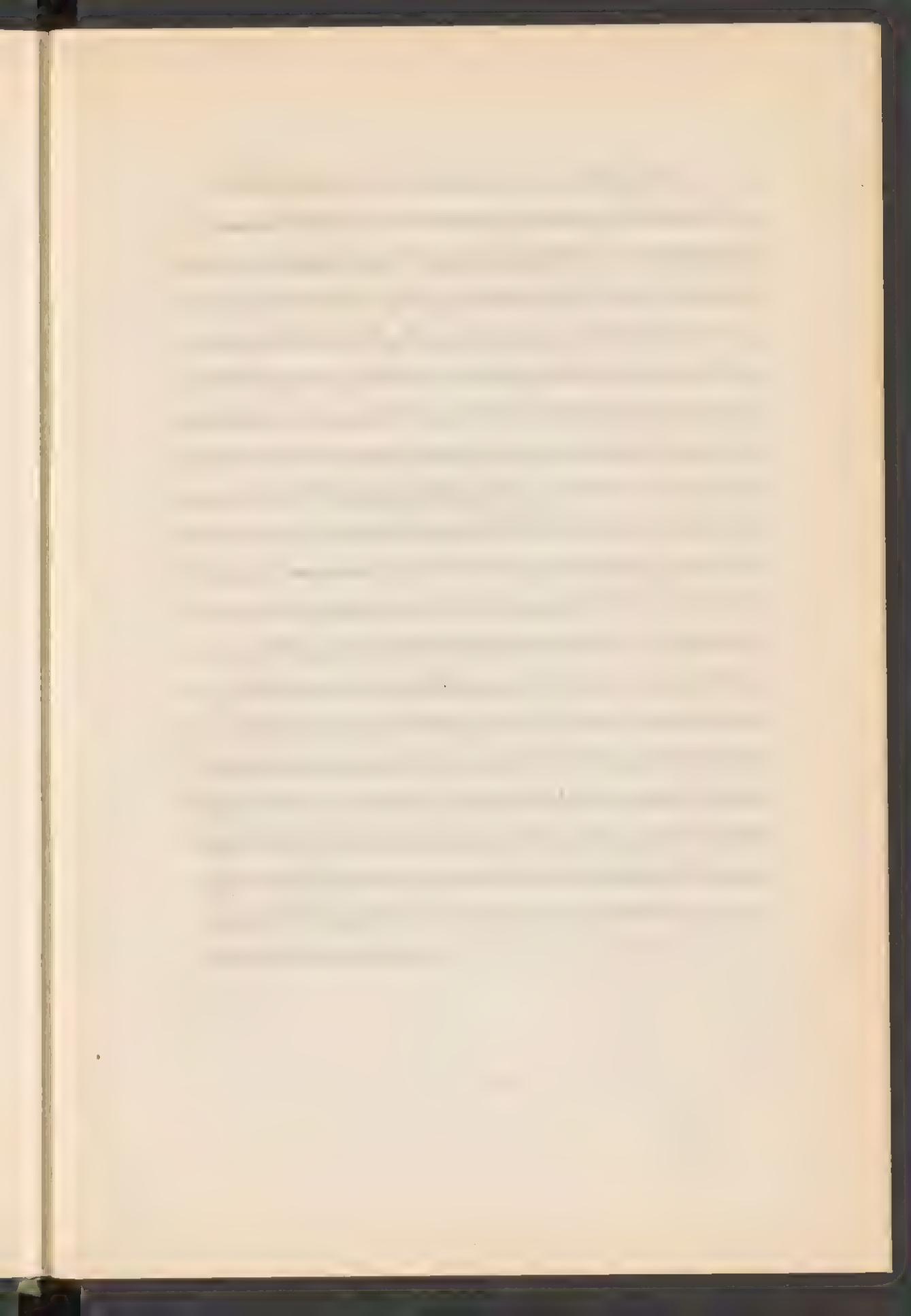
ولابد لي هنا من التنبيه على أهمية دراسة موضوع ترتيب نزول الآي والسور في تدوين السيرة ، فإن الوقوف على أسباب النزول ووقته ومكانه يساعدنا مساعدة قيمة في تثبيت الحوادث وتوضيح ماورد مجملأ أو غامضاً في كتب السير والتواريخ . ويقتضي ذلك بالطبع الرجوع الى كتب التفاسير والى كتب أسباب النزول والى كتب الحديث ، لتكوين رأي واضح موحد في الموضوع . وهذا يوجب على العلماء المختصين المحدثين دراسة الموارد القديمة المذكورة ونشرها بأسلوب حديث ، وترتيبها وتبويبها ، ليتمكن المؤرخ من الاستفادة منها أكبر فائدة « ومن التوفيق بين الروايات العديدة التي ترد عن حادث واحد ، ليكون له بذلك رأياً علمياً عميقاً في البحوث التي يتطرق اليها في هذا الباب .

(١) الطبرسي (١٠ / ٢٨٧) .

(٢) الطبرسي (١٠ / ٥٥٩) ، روح المعاني (٣٠ / ٢٦٠) .

(٣) الاتقان (١ / ٧٧) ، ابن سعد (١ / ١٩١) .

هذا كل ما بلغه علمي من أمر هذه السنين الثلاث أو الأربع الأولى من النبوة ،
سني التحفظ والاستخفاء ، ان مرت هادئة ناعمة لم يتخللها عنف ولا اعتداء ، فقد كانت
ولاشك شديدة عنيفة على الرسول . لا يعرف شدتها وعنفها إلا أصحاب الرسالات والرأي .
الرسول في شوق شديد الى سماع الوحي ورؤية الملك الموكل به ، ليتلقى منه أوامر الله
ونواهيه ، متلهفاً الى سماع الأمر الذي سيصدر اليه بتبليغ الرسالة لعشيرته ولقومه .
كل لحظة بالنسبة اليه هي سنة أو قرن ، يريد ابلاغ رسالته واتمام كلمة الله في أقرب
وقت واقصره . والوحي لم يصدر اليه فيها إلا بالتريث والانتظار والصبر ، ثم هو قليل .
بين النزول والنزول مدة طويلة هي دهور في نظر المتيم المشتاق الشاعر بعظم رسالته
ويوجب ابلاغها للناس . ثم هو قلق حائر كيف يبلغ رسالته لقومه ، وهم على هذا
الحال من التمسك بالأصنام والأوثان وبسنة الآباء والاجداد ، وليس له قوة ولا مال ،
يتغلب بهما على عدوه وعدو الله . ان الله قد اختاره لرسالته وهو ملزم مكلف أداءها
ونشرها بين الناس حتى يقولوا نشهد الا إله الا الله ونشهد أن محمداً رسول الله . إنه
لا يرضى ولا يقنع ولا يقبل إلا بالايان بالله وبالقول بالشهادتين ، أما المال والمالك ،
فليس لها مكانة عنده . وليس للمشركين من سبيل إلا الايمان والدخول في الاسلام .
قضى الرسول وقته هذا وهو بين التفكير في الله والتهجد والتعبد له ، وبين التفكير فيما
ذكرت وفي حال من بايعه وصدق به ، وهم كلهم جماعة لم تتجاوز في خلال هذه المدة
الأربعين شخصاً . ثم نزل عليه الوحي فجاء يأمره بانذار قومه وتبليغهم رسالة رب
العالمين ، لا يبالي ولا يداري ولا يفكر في ختار ، فانها رسالة ، ومن شرفه الله باختياره
رسولاً ، فعليه ألا يبالي ولا يخشى من الناس أحداً ۝ وأن يعتمد عليه ، ولا يخيب من
اعتمد عليه . أما كيفية ذلك ، وكيف أبلغ الرسول قومه رسالة الله اليه ، فهذا ماستراه
في الفصول التالية من هذا الكتاب .



الفهرست

الصفحة	المقدمة	الصفحة
٣	المقدمة	١٢
٤	الفصل الاول	١٣
٥	خطورة تأريخ الاسلام	١٤
٦	كيفية تدوينه - المسلمون	١٥
٧	اليوم - السمات التي	١٦
٨	تميز المسلمين اليوم عن	١٧
٩	غيرهم	١٨
١٠	دراسة تأريخ الاسلام	١٩
١١	دراسة تحليلية - جلود	٢٠
١٢	المسلمين في الوقت الحاضر	٢١
١٣	المؤرخ وتحليل الحوادث	٢٢
١٤	تسرع بعض	٢٣
١٥	المستشرقين	٢٤
١٦	المستشرقون المتحامنون	٢٥
١٧	على الاسلام - شبرنكر	٢٦
١٨	في كتابه حياة محمد	٢٧
١٩	المستشرق الايطالي	٢٨
٢٠	كيتاني	٢٩
٢١	طريقة هؤلاء المستشرقين في	٣٠

هل الف الصحابة ؟	١٥	ارتداد نصارى مصر ..	٠٠
الاسلام عبادات ومعاملات	١٦	يوحنا الخلقدونى ..	٠٠
دين وديا	٠٠	تفسير أسباب اقتصار	٠٠
الاسلام ينظم الامور	٠٠	الاسلام	٠٠٠
الديوية والدينية	٠٠	المسلمون ينتصرون على	٢١
للمسلمين	٠٠	النصارى بسبب غضب	٠٠
البحث عن مصادر تأريخ	١٧	الله عليهم ، لا يتعادهم عن	٠٠
الاسلام وموارده ...	٠٠	الكنيسة	٠٠٠
موارد اسلامية متعددة .	٠٠	يوحنا الدمشقي ...	٠٠
وجوب الرجوع الى منابع	١٨	تهجمه على الاسلام ..	٠٠
الاعجمية التأريخية	٠٠	دعواه أخذ الرسول دينه	٠٠
القديمة	٠٠	من اليهود والنصارى ..	٠٠
الاشارة الى الموارد	٠٠	ظهور الاسلام في نظره	٢٣
المذكورة بصورة عامة .	٠٠	علامة من علامات ظهور	٠٠
الساسانيون والاسلام .	١٩	الدجال	٠٠٠
عدم مبالاة البيزنطيين	٠٠	جراة يوحنا على الاسلام ..	٠٠
بالعرب	٠٠	وتسامح المسلمين معه ..	٠٠
خمول المؤرخين البيزنطيين	٠٠	المؤرخ الارمني الاسقف	٠٠
في أيام الرسول ...	٠٠٠	سييوس	٠٠٠
الكنيسة والاسلام ..	٠٠	وصفه لفنوح العسبر	٠٠
يوحنا النيقى	٢٠	للعراق وايران وأرمينية،	٠٠

٢٣	يوحنا بن بنكاية . . .	٢٨	الراهب برثلئيساؤس . .
٢٤	سباب انتصار المسلمين .	٢٩	الرهاوي . . .
٢٥	تعرضه لنزاع علي ومعاوية .	٣٠	مصطلحات اسلامية . .
٢٦	ثناؤه على معاوية . . .	٣١	حقده على الاسلام . .
٢٧	يعقوب الرهاوي . .	٣٢	القيصري امر بتأليف الكتب . .
٢٨	مخطوطة في التاريخ في	٣٣	للرد على المسلمين . .
٢٩	مكتبة القاتيكان . . .	٣٤	القيصر ميخائيل الثالث .
٣٠	ثيوفانيوس الكاثوليكي .	٣٥	القيصر الراهب . .
٣١	ثيوفيلوس الرهاوي . .	٣٦	جهل النصارى المذكورين .
٣٢	ثيوفانس وتأريخ الاسلام .	٣٧	بالاساؤم . . .
٣٣	وقوفه على موارد في	٣٨	الكنيسة والدولة تسعان . .
٣٤	تأريخ الاسلام . .	٣٩	المؤرخين من كتابة شيء .
٣٥	تحامله على الاسلام . .	٤٠	محايد عن الاسلام . .
٣٦	البطريق ديونيسيوس .	٤١	الثواب في الآخرة لمن
٣٧	يوحنا الداري . . .	٤٢	يذم الاسلام . . .
٣٨	ايولوجيوس القرطبي . .	٤٣	كيفية تدوين السيرة . .
٣٩	الياس بن شنجا . . .	٤٤	تدوينها على هــى . .
٤٠	موارد اخرى . . .	٤٥	القرآن الكريم . .
٤١	كتب الجدل والمناظرات .	٤٦	طريقتي في هذا الكتاب .
٤٢	مؤلفات يوحنا الدمشقي .	٤٧	تقديم صورة صافية نقية .
٤٣	ثيودور أبو قره . . .	٤٨	لتأريخ الاسلام . . .

- ٠٠ ليس المؤرخ قاضيا يحكم
 ٠٠ على الماضي ٠٠
 ٠٠ قياس الماضي على الحاضر
 ٣١ خطأ طريقة من يتخذ
 الحاضر مقياسا للماضي
 ٠٠ فهم الحادث وتقصي
 موارده ٠٠٠
 ٠٠ التلاعب في تدوين التاريخ
 ٣٢ تفسير التاريخ وفقا لمذهب
 المؤرخ ٠٠
 ٠٠ تفسير القرآن الكريم
 على وفق الالهواء ٠٠٠
 ٠٠ الصعوبات التي يواجهها
 المؤرخ من ناحية الاستفادة
 من الموارد ٠٠
 ٠٠ عدم وجود فهارس دقيقة
 منظمة للموارد الاسلامية
 ٠٠ أكثر المطبوع ما زال مادة
 خاما ٠٠٠
 ٣٣ ليس التاريخ في حكم
 الرياضيات ٠٠
- ٠٠ الموارد الاسلامية المتأخرة
 ٠٠ القصص الاسرائيلي
 ٣٤ ابن عباس والقصص
 الاسرائيلي ٠٠
 ٠٠ الرواية عن اليهود
 ٣٥ حذر المؤرخ ٠٠٠
 ٠٠ كيفية فهم السيرة النبوية
 الفصل الثاني
 ٣٦ مكة المكرمة ٠٠
 ٠٠ القرآن الكريم واسيرة
 النبوية ٠٠
 ٠٠ اسم مكة عند اليونان
 ٣٧ ديودورس الصقلي ٠٠
 ٠٠ لفظة مكربة ٠٠٠
 ٣٨ مكة في القرآن الكريم
 ٠٠ أم القرى ٠٠
 ٣٩ مينكانا ٠٠
 ٠٠ أقدم مورد أشار الى
 قريش ٠٠
 ٠٠ قريش من الاسماعيليين
 ٠٠ قريش تهاجم بيت عربية

الكعبة	خزاعة وفقي
صورة عيسى وأمه في ..	قصي في الكتابات النبطية ..
الكعبة	قصي في الكتابات الصفوية ..
الاصنام في كل بيت من ..	قصي لكاهن ..
بيوت فريش	٤١ فريش في نص حضرمي ..
التضارب في عبادة فريش ..	أساء الاصنام ..
٤٧ وثنية فريش وثناسة ..	عدد الاصنام في مكة ..
متطورة	٤٢ قصي ورومولوس ..
محجات اخرى في جزيرة ..	قصي ييسط نفوذ فريش ..
العرب	على مكة ..
المثقفون الجاهليون ..	٤٣ عدد أصنام مكة عام الفتح ..
وعبادة الاصنام	عسر بن لحي مؤسس ..
٤٨ النصرانية وعبادة الصور ..	الوثنية
الاحناف	٤٤ عدم وجود وصف دقيق ..
٤٩ انزواء الاحناف ..	للبيت الحرام
خدم البيت	تستقيف البيت
٥٠ رزق فريش	٤٥ جدر الكعبة
حرم مكة	أيام فتح البيت في الجاهلية ..
٥١ بشر زمزم	صور ورسوم وضعت في ..
موقع مكة	الكعبة
٥٢ الاحايش	تشال عيسى بن مريم في ..

٥٢	الموالي والعبيد	٥٥	حكومة مكة حكومة ملا ..
..	أسواق النخاسة	٥٦	حكم الرؤساء
٥٣	الفتن والاملاق	٥٩	عظباء مكة وعظباء
..	أكل أموال اليتيم	..	الطائف
..	والضعيف	حكم لا مركزي في مكة ..
٥٤	جشع لاغنياء	دار الندوة
..	غنى مكة	٦٠	قضي مؤسس دار الندوة ..
٥٥	سرعة توزيع الثروة في مكة	عبدالدار يوث دار الندوة ..
..	عظباء أم القرى	التجاء رؤساء قريش الى
٥٦	الشعاب	دار الندوة عام الفتح ..
..	عشان بن الحويرث ..	٦١	ملا مكة
..	طبعه في الحكم	قريش لا تقبل الا برئاسة
..	انتجساؤه الى الروم	..	الرؤساء
..	لمساعدته في حكم مكة	الغنى من مؤهلات الحكم ..
٥٧	استتابة عشان بن	٦٢	أسفار قريش
..	الحويرث في التلقب بلقب	..	الدراهم والدنانير ..
..	ملك	قافلة مكة
..	رفض أهل مكة قبوله ملكا	سوء توزيع ثروة أهل
..	تلقبه بلقب البطريق	مكة
٥٨	الانانية تتحكم في مجتمع	٦٣	بنو مخزوم أغنى سمر مكة ..
..	مكة	مساهمة نسوة مكة في

التجارة	الميسر والازلام
بيوت الاغنياء	٧٠ القراء الكتاب في مكة
٦٤ مباهج الحياة	جاليات أجنبية في مكة
الطيب والثياب الناعمة	٧١ قصص وأساطير
طبقة متوسة	اليهود في يثرب
٦٥ تاجر مكة	علم أهل مكة بأحوال العالم
رحلته الى اليمن والنسب	الخارجي
بلاد الشام	حروب الروم مع
١٦ التجارة مع العراق	الساسانيين
استغلال أهل مكة	الاعراب
للاعراب	٧٢ المخلفين من الاعراب
غزة وبصري	انقسام الاعراب على
٦٧ استغلال تاجر مكة حرمة	أنفسهم
مدينته	الغزو والغارات
العظماء أصحاب الجاه	٧٣ الروم يطمعون في جزيرة
٦٨ العظمة بالحسب والنسب	العرب
والمال	خطبة القيصر أغسطس
غطوسة العظماء	٧٤ الخلاصة
التفاخر والتباهي	الفصل الثالث
٦٩ طريقة كلام العظيم	٧٥ من الميلاد الى المبعث
خضراء قريش	النبي العربي

..	الاسماعيليون	..	مذميا	..
..	لفظة محمد	..	تسميته قثا	..
٧٦	محمد ومحمدة في	٨١	أسماء الرسول الاخرى	..
..	الكتابات الجاهلية	..	والد الرسول	..
..	يحد	..	طعن بعض المستشرقين في	..
٧٧	عبدالمطلب يسبي الرسول	..	صحة اسمه	..
..	محدا	..	كنية والد الرسول	..
..	العقيدة	٨٢	أبو قثم	..
٧٨	أسرة محمد	..	أسم الرسول في النقود	..
..	ورود اسم الرسول في	..	اليونانية	..
..	القرآن الكريم	٨٣	أحمد	..
..	رأي شبرنكر	..	أحمد في النصوص	..
..	البارفليط	..	الجاهلية	..
..	منحنا	..	طعن بعض المستشرقين في	..
٧٩	قثم بن عبد المطلب	..	التسمية	..
..	اسم الرسول في التوراة	٨٤	معنى الفارقليط	..
..	والانجيل	..	ورودها في الانجيل	..
..	طعن المستشرقين في صحة	..	انجيل يوحنا	..
..	تسمية الرسول	٨٥	المانوية والفارقليط	..
٨٠	رد هذا الطعن	..	المنحنا	..
..	تسمية المشركين الرسول	..	المنحنا معناها محمد	..

اسمه	٨٦	حدث
رأي كيتاني	٨٧	مشفح
العدائيون أعاجم ٩٤	٨٨	حمايا
استعربوا	٨٩	شفحا
شطحات كيتاني	٩٠	أبو القاسم
تأثر بعض العرب بأرائه ..	٩١	القاسم من الاسماء الواردة
٩٥ تعصب كيتاني على	٩٢	في النصوص الجاهلية
الاسلام	٩٣	المصطفى
وفاة عبد الله بالملايا ..	٩٤	طه ويس
٩٦ وفاة هاشم بن عبد مناف	٩٥	ابن أبي كبشة
في غزة	٩٦	مخالفة أبو كبشة جمهور
آمنة بنت وهب	٩٧	قريش
بنو زهرة	٩٨	مولد الرسول
الدار التي ولد فيها	٩٩	روايات مختلفة عنه ..
الرسول	١٠٠	عام الفيل
٩٧ بيت محمد بن يوسف	١٠١	عدم ورود نص جاهلي عن
الثقي	١٠٢	عام الفيل
الخيزران تشتري الدار	١٠٣	عبد الله بن عبد المطلب
التي ولد فيها الرسول ..	١٠٤	عبد الله في النصوص
عقيل يبيع دار خديجة ..	١٠٥	الجاهلية
٩٨ الموضع الذي ولد فيه	١٠٦	طعن بعض المستشرقين في

- الرسول في هذا اليوم ..
 .. الشفاء
 ٩٨ حليلة السعدية
 ٩٩ ثوية مرضعة الرسول
 الاولى
 .. عودة الرسول الى أمه ..
 .. رعايته الغنم
 .. عسره يومئذ
 ١٠٠ وفاة أمينة
 عودة أم آيسن بمحمد وهو
 طفل
 ١٠١ ذكرى المدينة
 ... حزن عبد المطلب
 ١٠٢ حذبه على محمد
 ... وفاة عبد المطلب
 ١٠٣ اصلاحات دينية تسبب
 لعبد المطلب
 ... سبب تسميته بعبد المطلب ..
 ١٠٤ أساء قريش أسماء عريية
 ... شمالية .. ورودها في
 ... نصوص نبطية

- ... أبو طالب
 ١٠٥ أولاد أبي طالب
 ١٠٥ أبو طالب يتاجر مع بلاد
 الشام
 ١٠٦ ذهاب الرسول مع عمه
 الى بصري
 ... قصة بحيرا
 ... مقبرة المعلاة
 ١٠٧ حرب الفجار
 ... أسبابها
 ... استمرارها
 ١٠٨ حلف الفضول
 ... سبب هذا الحلف
 ١٠٩ تقدر روايات حلف الفضول ..
 ١١٠ اشتغال محمد بالتجارة ..
 ... ذهابه الى سوق حباشة ..
 ... شريك محمد في التجارة ..
 ١١١ ذهابه في تجارة لخديجة ..
 ... مسيرة
 ١١٢ أسفار الرسول
 ... التفكير في الزواج

- ١١٣ رواية سكر والد خديجة .
 ... نقد هذه الرواية ..
 ١١٤ عشر خديجة ..
 ... عشر الرسول ..
 ... أبو هالة : زوج خديجة
 الاول ..
 ١١٥ عتيق بن عائذ ..
 ... اولاد خديجة ..
 ١١٦ بيت خديجة ...
 ... حب الرسول لخديجة .
 ١١٧ بناء الكعبة ...
 ... وفاة القاسم ..
 ... وفاة عبد الله وابراهيم .
 ١١٨ تجارة الرسول ..
 ... ترك الرسول التجارة
 للخلوة والتأمل ...
 ... قریش جماعة تجارة ...
 ١١٩ طبع الرسول وعزفه عن
 العبث واللهو ..
 ... اجتنابه أعياد قوميه
 وعبادتهم ..

- ١٢٠ وصف الرسول ..
 ... انصراف الرسول الى
 التفكير ..
 ١٢١ وصف الرسول في القرآن
 الكريم ..
 ... سب الاختلاف في
 الروايات ..
 ... لم يكن الجاهليون
 يسجلون حوادثهم ..
 ١٢٢ سيرة الرسول ..
 الفصل الرابع
 ١٢٣ محمد رسول الله ..
 ... عشر الرسول عند نزول
 الوحي عليه ..
 ١٢٤ كيفية ابتداء نزول الوحي
 على الرسول ..
 ... أول ما نزل من القرآن ..
 ... عدم نزول شيء منه ..
 ... نزول الوحي على
 الرسول وهو في يقظة ..

... تعريف الوحي ...
 ... القرآن الكريم ...
 ... الالهام والتابع والرئي ...
 ١٢٦ النبوة ...
 ١٢٧ أول ما نزل من القرآن ...
 ... سورة المدثر ...
 ... اليوم الذي نزل فيه الوحي ...
 ١٢٨ شهر رمضان ...
 ... غار حراء ...
 ١٢٩ الرسول يجاور في غار حراء ...
 ... عادة التحنث عند الجاهليين ...
 ١٣٠ قریش في شهر رمضان ...
 ... احترام الجاهليين لشهر رمضان ...
 ... الاشهر الحرم ...
 ١٣١ جبل النور ...
 ... الاعتكاف والحنث ...
 ... الرسول والنبي ...
 ١٣٢ السليح ...
 ... الملائكة الاربعة ...
 ... جبريل في القرآن الكريم ...
 ١٣٣ الروح القدس ...
 ... كيفية نزول جبريل على الرسول ...
 ١٣٤ علائم نزول الوحي ...
 ... لا تحرك به لسانك ...
 ١٣٥ ظهور جبريل على صورة دحية الكلبي ...
 ١٣٥ اسلام دحية الكلبي ...
 ١٣٦ وقت نزول الوحي ...
 ... البرحاء ...
 ... الرسول أمي ، لم يقرأ ولم يكتب ...
 ... المستشرقون ...
 ١٣٧ آراء العلماء في معرفة الرسول الكتابة والقراءة ...
 ١٣٨ الامي في تفسير علماء اللغة ...
 ... النيسابوري والباجي وابن مفوز ...

- ... ابن نحية والسمناني ..
- ١٣٩ المجوس ومن لا كتاب لهم ..
- ... الوثنيون
- ١٤٠ كوي وكويم
- ... أساطير الاولين
- ... معنى الاساطير
- ١٤١ أسطار وأسفير وأسطور ..
- ١٤٢ أستوريا
- ... كتب يونانية ولاينية ..
- ... بسكة
- ١٤٣ صحف ابراهيم
- ... الهلاخاويذيرا والكنالا ..
- ... المشنا
- ... الرؤيا الصادقة ...
- ١٤٤ الرؤيا والنبوة ...
- ... فترة إلقاء حياة الرسول ..
- ١٤٥ حب الرسول للخلوة ..
- ... والانزواء
- ... خديجة تساعد الرسول ..
- ... رسول الله يرى جبريل ..
- ١٤٦ الرسول يسرع الى بيته ..

- ... الرسول يخشى على نفسه ..
- ... ذهاب خديجة الى ورقة ..
- ١٤٧ نبوة الرسول
- ... عتداس
- ... ورقة بن نوفل
- ١٤٨ حياة ورقة وشعره ...
- ... معرفته الكتابة والقراءة ..
- ١٤٩ تعلمه العبرانية ..
- ... والسريانية ...
- ... قتيلة بنت نوفل
- ... قراءتها الكتب
- ... الناموس الاكبر
- ١٥٠ رأي المستشرقين
- ... خديجة أول الناس اسلاما ..
- ... انتظاره نزول الوحي عليه ..
- ١٥١ اسلام علي بن أبي طالب ..
- ... سبب اسلامه
- ... عفيف الكندي
- ١٥٢ زيد بن حارثة ثاني ..
- ... المسلمين
- ... نسبه وتبني الرسول له ..

- ١٦٠ علم قريش بدعوة
 .. الرسول وبدينه ..
 ١٦١ يهود ونصارى بسكة ..
 ... زيد بن عمرو بن نفيل
 ... تسامح أهل الجاهلية في
 الاختلاف في الرأي ..
 ١٦٢ رابطة الدم
 ... لفظة صبا
 ... الصابيء والصباة ..
 ١٦٣ الدين والديان
 ... أصل لفظة دين
 ... بل ديني
 ١٦٤ سكوت قريش عن
 المسلمين
 ... قريش تقتص آثار
 الرسول
 ... ابن الاصداء وابن الغيطة ..
 ... سعد بن أبي وقاص ..
 ١٦٥ دخول الرسول دار
 الارقم
 ... دار الارقم

- ١٥٣ اسلام أبي بكر ...
 ... اول الناس اسلاما ...
 ... أبو بكر ينشر الاسلام ..
 ١٥٤ المسلمون الاولون ..
 ... خلاف المؤرخين في ترتيب
 أسماء السابقين في الاسلام ..
 ١٥٥ مسلمون أثرياء
 ١٥٦ مسلمون شجعان ...
 ... سعيد بن زيد بن عمرو بن
 نفيل
 ... مسلمون فقراء
 ١٥٧ معظم من أسلم من أحداث
 الرجال
 ... أبو طالب يسأل الرسول
 عن دينه
 ١٥٨ عدد المسلمين
 ... تنافس المسلمين في خدمة
 الرسول
 ... تناوب أهل مكة
 ١٥٩ تكتم المسلمين
 ... وقوف قريش على الاسلام ..

- ١٦٦ السنة الثالثة من النبوة •
 ... مدة الاستخفاء
 ... الارقم بن الارقم ...
 ١٦٧ خروج الرسول من دار
 الارقم
 ... الدعوة الى دين الله ...
 ... ما ورد عن مدة الاستخفاء ..
 ١٦٨ انقطاع الوحي عن
 الرسول
 ... سورة والضحي
 ١٦٩ سبب نزول السورة ..
 ... الصلاة
 ١٧٠ الصلاة خارج مكة ..
 ... قريش تصلى وقت
 الضحي
 ... الصلاة قبل الاسلام ..

- ١٧١ الاذان
 ... الصلاة في الايمان الاخرى •
 ... صلوتا
 ... التفيلة
 ١٧٢ سور مكية قديمة ...
 ... يا أيها المدثر
 ... سورة المزمل
 ... سورة تبت
 ١٧٣ سورة أخرى
 ... أسباب النزول
 ١٧٤ اقدم ما ورد من القرآن •
 ... أهمية دراسة موضوع
 ترتيب نزول الآي
 والسور
 ١٧٥ التهجد والتعبد ..
 ١٧٦ الفهرست

~~71 650X N 92 1~~

403

71 650X

N 92 1

